الطريق إلى الحرية

حمود الشوفي

سيرة ذاتية

إعداد وتقديم د. رياض شكيب العيسمي

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لعائلة حمود الشوفي حصراً

التحميل مجاني والتعميم بالمشاركة طوعي ومرحب به

ISBN: 978-1-7923-9182-8

المحتويات

تقديم

- حمود الشوفي شهيد الحرية الذي سقط من غير دماء ---------- 5

- حمود الشوفي إنساناً ومناضلاً سياسياً ودبلوماسياً كما عرفته زوجته أم العربي -------- 8

من مذكرات حمود الشوفي ---------- 15

- البداية في السويداء
- عودة إلى الرواية الشخصية
- مؤتمر حمص
- مشروع أيزنهاور
- مرحلة 1954- 1956
- 1957، الفترة التي سبقت الوحدة
- 1958، الوحدة بين مصر وسورية
- عودة إلى السيرة الذاتية
- عهد الانفصال
- العودة إلى التنظيم الديمقراطي
- التشابه بين التنظيم الجديد في سورية وتنظيم الحزب في العراق
- الأشهر الثلاثة الأخيرة من عام 1962 والأشهر الثلاثة الأولى من عام 1963
- عودة لرواية الوقائع عندما انتفلت إلى دمشق في مطلع عام 1963
- القيادة الحزبية المؤقتة

ملاحق ---------- 99

- المقابلة التي أجراها الصحفي تمام البرازي مع الأستاذ حمود الشوفي لمجلة الوطن العربي بتاريخ 1988 /5/13

- الكلمة التي ألقاها الأستاذ حمود الشوفي في بغداد في حفل تأبين الأستاذ المرحوم نسيم السفرجلاني عام 1994

- مقالة الأستاذ حمود الشوفي "سورية واحتمالات التغيير" التي نشرتها صحيفة القدس العربي في 2006 2//25

حفلات التابين ----------147

- حفلة أوغستا في ولاية جورجيا في الولايات المتحدة الأمريكية

نص نعوه حمود الشوفي كما نشرتها الصحيفة المحلية في مدينة أوغستا

- حفلة صلخد من محافظة السويداء في الجمهورية العربية السورية

- كلمة المحامي الأستاذ طارق أبو الحسن، أمين عام حزب العمال الثوري وعضو قيادة قطرية سابق في حزب البعث العربي الاشتراكي

حمود الشوفي بالصور ---------- 154

مجموعة منتقاة من الصور للأستاذ حمود الشوفي إثناء عمله في السلك الدبلوماسي

- بالصوت والصورة نص الاستقالة التي قدمها سعادة سفير الجمهورية العربية السورية حمود الشوفي للأمم المتحدة المؤتمر الصحفي الذي عقده في نيويورك عام 1979

- حمود الشوفي يعود إلى ساحة الكرامة في السويداء حيث بدأ الطريق إلى الحرية قبل 70 عام

حمود الشوفي في سطور ----------

- ملخص موجز يعرض بالكلمات السيرة الذاتية للأستاذ حمود الشوفي

فهرس الأعلام ----------

قائمة بأسماء الأشخاص الذين جاء على ذكرهم في المذكرات

المصادر والمراجع ----------

قائمة بأسماء الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية العربية التي أستقيت منها المعلومات

تقديم

حمود الشوفي شهيد الحرية الذي سقط من غير دماء

كان حمود الشوفي واحداً من رجالات سورية المعدودين، واسما بارزا تردد في المحافل العربية والدولية. وكان مناضلا عنيدا، وقائدا حزبيا متميزا، وسياسيا محنكا، ودبلوماسيا عتيدا. ولد ونشأ في سورية. تعلم في مدارسها، وتخرج من جامعتها، جامعة دمشق. بدأ حياته النضالية بالانتماء إلى صفوف حزب البعث وهو ما يزال في المدرسة الإعدادية. امتهن السياسة وبرع في استخدامها. عمل في الحزب والدولة، والسلك الدبلوماسي طيلة حياته. خرج من سورية آخر مره عام ١٩٧٨من القرن الماضي ليكون مندوبها في الأمم المتحدة. لكنه سرعان ما استقال من منصبه ليشكل مع سياسيين سوريين آخرين «التحالف الوطني لتحرير سوريا» في عام 1979. والذي ضم طيفا واسعا من الأحزاب والمنظمات والشخصيات الوطنية السورية المعارضة، والتي كان هدفها الرئيسي إسقاط النظام الأمني في سورية واستبداله بنظام ديمقراطي يستند إلى التعددية وتداول السلطة. حيث جاء هذا الهدف متجاوبا مع ما كان قد بدأه في عام 1964 بعد أن استقال من منصبه كأمين سر للقيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي احتجاجا على سيطرة الجيش على السلطة وتهميش دور الحزب بعد حركة 8 آذار من عام 1963. لقد أغضبت فكرة التحالف الوطني لتحرير سورية الذي دعا له حمود الشوفي مع آخرين النظام الحاكم في سورية بشكل عام، ورئيسه حينذاك حافظ الأسد بشكل خاص. فحُكِمَ عليه بالإعدام غيابيا. وتعرض بعدها لمحاولتي اغتيال. وبقي في المنفى إلى أن أدركته المنية في الثالث عشر من نيسان من عام 2011 في مدينة أوغستا في ولاية جورجيا الأمريكية حيث كان يعيش مع زوجته وأولاده وأحفاده.

عندما خرج حمود الشوفي من الوطن آخر مرة في عام 1978، لم يخرج الوطن منه. بل بقي حياً فيه، يحمله معه أينما ذهب، ويضعه نصب عينه أينما أتجه. وكان يذكره صباح مساء إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. لقد قضى وهو يحلم بعودة كريمة ومشرفة إلى وطنه. وكان يأمل دوما أن يكون الوطن مثواه الأخير. وعندما بدأت ثورات الربيع العربي استبشر ببزوغ فجر الحرية في الوطن العربي، وبتحقيق الجماهير العربية للأهداف التي طالما ناضلت وضحّت من أجلها. وكان للثورة السورية في نفسه وقعاً مميزاً. حيث أن النظام الذي طالب أطفال درعا بإسقاطه في الخامس عشر من آذار عام 2011 هو امتداد للنظام نفسه الذي طالب هو بإسقاطه في عام1964 وكان حينها في عمر لا يزيد عن أعمارهم إلا بقليل.

إنه لمن دواعي الأسف أن يرحل حمود الشوفي إلى العالم الآخر قبل أن يرحل النظام السوري فيتسنى له الرجوع إلى وطنه بعد طول نضال من أجل الحرية وتشرّد في أصقاع المنافي. إلا أن العزاء يبقى بروحه التي صعدت إلى الرحاب العليا وهي مطمئنة بأن صدى صوته المطالب بإسقاط النظام كان ما يزال يتردد قويا في ساحات التغيير في معظم البلدان العربية والهاتفة «الشعب بدو حرية». ذلك ما يجعل منه **"شهيداً للحرية"** يسقط من غير دماء. فهو من عرف الطريق إلى الحرية منذ نعومة أظفاره، وسلكها طوال حياته، ودفع لها من عمره سجنا وتشردا وملاحقه وحكما بالإعدام. وهو من آمن بدور الجماهير وقدرتها في الوصول إلى الحرية مهما طال الزمن ومهما عزت التضحيات. وهذا ما جعلنا نعتقد بأن **"الطريق إلى الحرية"** يمثل عنواناً مناسبا لهذا الكتاب الذي يتضمن مذكراته وبعضاً من سيرة حياته الذاتية والنضالية. ولو قدر له أن يعيش لينشرها بنفسه، لابد وأن يكون هذا العنوان أحد خياراته.

لقد رحل أبو العربي* تاركا خلفه إرثاً نضالياً زاخراً وتجربةً وطنيةً ثَرّة تستحق أن يُلقى عليها الضوء. لقد كنا في العائلة، كما كان أصدقاؤه ومعارفه، نحثه على أن يكتب عن تجربته الطويلة في العمل الحزبي والسياسي. والتي دامت لأكثر من نصف قرن في مرحلة فاصلة ليس في تاريخ سورية فحسب، وإنما في تاريخ النضال العربي. وبالرغم من أنه كان قارئا مواظبا، إلا أنه كان يتردد في الكتابة، وخاصة عندما يتعلق الأمر بكتابة مذكراته. (علمنا فيما بعد من ملاحظة كتبها في حاشية المذكرات بأنه كان لديه إحساس بأنه لن يعش ليكملها وينشرها). لذلك كان الاعتقاد لدينا بأنه قد رحل ولم يترك خلفه أية مذكرات مكتوبة. لكنه فاجأنا في مماته كما كان يفاجئنا بحياته بحالة الكتمان التي كان يمارسها عندما كان يتخذ القرارات الكبيرة والشخصية. حيث اكتشفنا لاحقاً بأنه قد ترك من بين مخلفاته مذكرات مكتوبة بخط يده، قوامها حوالي المئة صفحة بنسختها الأولية "المسودة". إلا أنها كانت غير مكتملة ومن غير تنقيح أو مراجعه، وفيها بعضٌ من الأفكار غير المنتهية. وكانت التواريخ الموجودة عليها تدلل على أنه كان قد بدأ بكتابتها في عام ١٩٩٧ من القرن الماضي.

حرصنا على بقاء المذكرات على سجيتها كما تركها ودونما أي تدخل يذكر، عدا ما تتطلب إعادة ترتيبه للحفاظ على التسلسل والترابط في سرد الأحداث. وعملنا على مراجعتها وتدقيقها وذلك بالعودة إلى المصادر لأساسيه قدر المستطاع. وذلك لأن معظم الشخصيات التي جاء على ذكرها، والتي كان من الضرورة العودة إليها للتأكد من بعض التواريخ وتوثيق بعض المعلومات، كانت

هي الأخرى قد رحلت إلى العالم الأخر. ولكن بمساعدة رفيقة دربه وشريكته في الحياة والنضال، زوجته أم العربي، استطعنا أن نتحقق من تواريخ ومسار معظم الأحداث. وذلك لأنها إما شاركت فيها بشكل مباشر وعايشتها عن كثب. ولهذا وضعنا ما كتبته في رثائه خلف المذكرات مباشرة علها تكمل بعضا مما لم يتسن لنا تغطيته، خاصة في الجانب الإنساني والحياتي.

كما كان له مقابله مع الصحفي تمام البرازي من مجلة الوطن العربي نُشرت بتاريخ 1988/5/13. ارتأينا إضافتها في باب الملاحق لأهمية ما ورد فيها من أحداث ومعلومات، معظمها غير مدرج في المذكرات. وبهذا تأتي، إلى حد كبير، مكملة للمذكرات لغاية ذلك التاريخ. وفي باب الملاحق وضعنا أيضا الكلمة التي ألقاها في حفل تأبين صديق عمره ورفيق دربه الأستاذ نسيم السفرجلاني في بغداد في عام 1994. وكذلك مقالته **"احتمالات التغيير في سورية"** والتي نشرت في صحيفة القدس العربي بتاريخ 2006/2/52.

وفي باب حفلات التأبين ضمنا كلمة رفيقه وصديق شبابه السيد طارق أبو الحسن التي ألقاها في حفل التأبين الذي أقيم له في مسقط رأسه في مدينة صلخد من محافظة السويداء في سورية. وفي النهاية وضعنا مجموعة من الصور المنتقاة من حياته في العمل الدبلوماسي. وأيضا وضعنا نص النعوة التي نشرتها الصحيفة المحلية (ال أوغستا كرون يكال) لمدينة أوغستا في ولاية جورجيا الأمريكية حيث أقيم له حفل تأبين وشيع فيها إلى مثواه الأخير. وفي الختام ارتأينا أن نضع نبذة موجزة عن حياته وفهرسا للأعلام لكثرة الأسماء التي جاء على ذكرها في المذكرات.

ختاما لا يسعنا إلا أن نشكر كل الذين ساهموا في إنجاز هذا الكتاب، وهم كثر. ونخص بالذكر الراحلة السيدة سلوى عزام لمرجعته وتقديم الملاحظات. وأيضا الأستاذ فوزات رزق الذي نقح النسخة النهائية ودققها لغويا. وكذلك الأستاذ كمال الشوفي لتوليه مسؤولية تعميمه.

د. رياض شكيب العسمي

*العربي اسم ابنه البكر، الذي كان قد أسماه كذلك تيمنا بالمناضل الجزائري الشهير العربي بن مهيد الذي برز اسمه في خمسينات وستينات القرن الماضي.

صورة حمود الشوفي وزوجته وداد عزام في مطلع حياتهما الزوجية عام

حمود الشوفي إنسانا ومناضلاً سياسياً ودبلوماسياً

كما عرفته زوجته ورفيقة دربه أم العربي

السيدة وداد عزام-الشوفي

ورحل أبو العربي!

كان يوم ١٣نيسان ٢٠١١ يوما مؤلما، وسهما موجعا نزل عليَّ وعلى الأولاد نزول الصاعقة، زعزعني وهدَّ كياني. غارت دمعتي، حتى أصبحت غير متأكدة بأني سأقوى بعد اليوم على المشي. لقد كان أبو العربي رفيق العمر، وكان زوجا وصديقا محبا، وأبا حنونا. كان جديا وهادئا، وكان منطقيا وذا رأي سديد. لذلك كنا نلجأ إليه دائما في معالجة الأمور الصعاب. كان شهما جدا، ذكيا وكريما إلى أبعد حدود الكرم.

لقد فرّق الدهر بيننا يا أبا العربي وهذه حال الدنيا. فكل امرئٍ لابد أن يفجع في يوم من الأيام، ومن سينجو منها، ومن يدري ما تخبئه الأيام؟ إنه علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

.

لقد كنت فخورة بحمود، وبتلك المجموعة الرائعة من رفاقه. كنت أنظر إليهم بنظرة فيها الأمل بغدٍ أفضل لبلدنا، والسير بسوريا في طريق الحرية، التي هي مطلب الجميع. كانت نهاية الخمسينات وبداية الستينات في سوريا، مرحلة علا فيها الشعور القومي كثيرا، وكان يبدو لي بأن الأمة العربية لا بدَّ وأن تتوحد، ويكون لها مكانها المرموق. وقبيل استلام الحزب للسلطة في 8 آذار 1963 وبعدها بقليل، زاد عمل حمود الحزبي وانشغل أكثر فأكثر، وكان بيتنا مفتوحا لكل الرفاق، بعضهم كان يأتي ليأخذ المعلومات، والبعض الآخر يأتي ليتلقى أوامر الحزب أو مناقشة بعضها لبدء العمل بتنفيذها. كنت في تلك الأيام أعمل معلمة في إحدى المدارس الابتدائية في دمشق، وكنت دائما أختار الدوام النصفي حتى يتسنى لي القيام بعملي في المدرسة ومتابعة واجبات البيت. كنت أذهب إلى المدرسة حوالي الساعة السابعة صباحا، وكنت قبل مغادرتي المنزل كثيرا ما أذهب إلى الصالون كي أجمع "منافض السجاير" وأحضر القهوة العربية، وأستبدل مجمع "الشكولاتة" الفارغ بآخر جديد. ولكني كثيرا ما كنت أتراجع عندما أجد بعض الرفاق ما يزالون نياما على "الكنابيات". لم يكن بيتنا ليشبه كل البيوت، إلا أنني كنت سعيدة بذلك مثلما كان حمود وجميع الرفاق والأصدقاء.

إن الحزب الذي عرفته في تلك الايام كان حزبا مؤمنا بأهدافه، والتي هي (الوحدة- الحرية- الاشتراكية)، والأشخاص الذين ناضلوا في صفوفه لم يأتوا إليه بدافع الثروة أو الطمع بالسلطة، إنما كان الدافع لديهم خدمة الشعب العظيم. ولكن بعد أن تسلم حزب البعث السلطة في سوريا، بدأت الأمور تأخذ منحى آخر. وسرعان ما انقسم الحزب إلى جناحين (المدنيين والعسكريين)، واستمر الخلاف بينهما واستفحل لسنوات عده إلى أن استحوذ الجناح العسكري على السلطة. فاستقال حمود من الحزب، ولكن لم يستقل أحد من رفاقه. وكانوا بعدها إذا ما أتوا إلينا يأتوا بزيارة عائلية، وكان يدخل حمود الغرفة محاولا إقناعهم بوجهة نظره وبصواب تصرفاته وسبب استقالته، التي هي سيطرة العسكر على الحزب، كان جوابهم دائما الرفض. وكانوا يجيبونه: نحن جئنا لزيارة أم العربي والأولاد الأعزاء، الذين أحببناهم كما لو أنهم أولادنا، لذلك الرجاء عدم فتح أي موضوع من هذا القبيل، لأنه من المفروض أن يتم النقد من داخل الحزب، لا من خارجه.

في عام 1965 ذهب حمود إلى إندونيسيا برتبة سفير، وبقي هناك خمس سنوات ونصف وعاد خلالها إلى سوريا مرة واحدة. لم أذهب معه من أجل مدرسة الأولاد، ومن أجل الاهتمام بوالدتي التي كانت مريضة، والتي لم يكن لها أحد سواي ليهتم بها. وعندما تقرر يوم السفر، تجمع معظم الرفاق في بيتنا ليودعوا حمود. وكالعادة، عملت لهم حفلة طعام، ولكن في هذه المرة لم يكن اجتماعهم كالسابق، فلم تر إلا وجوها داكنة تعلوها ابتسامة صفراء. شعرت أن هذه الحفلة ليست حفلة وداع حمود فقط وإنما حفلة وداع لأحلامهم وطموحاتهم، فقلت في نفسي: يا للخسارة أن تنتهي الآمال بهذا الشكل. لقد كان حمود يتظاهر بأن الأسف والحسرة لم تملأ قلبه، ولكنه لم يستطع أن يقنع أحدا بهذا. كان من الصعب جدا على الجميع أن يروه يترك سوريا بهذا الشكل، وبهذه الظروف ولا يستطيع أحد أن يقدر متى ستكون عودته. كنت أحاول جاهدة أن أمنع الدمع الذي تجمع في عينيّ من التدحرج على وجنتيّ. وذهبنا بعدها جميعا إلى المطار، وودعنا حمود هناك. وقبل أن يدخل إلى الطائرة، لوح لنا بيده تحية الوداع ورددنا له التحية. وبعد دقائق، طارت الطائرة، وعدنا إلى سيارتنا، وكان الأسى يقطع نياط قلبي. كان الجميع ساكتون، وكل واحد منا مشغولا بأفكاره الخاصة. ولكن كان يقطع هذا الصمت بعض الأسئلة البريئة من أولادي، العربي وليلى، مثل: (متى سيعود والدي؟ ولماذا ذهب؟ لماذا لم نذهب معه؟). أحيانا، من الصعب أن توضح كل شيء للأطفال.

عاد حمود إلى سوريا بعد عدة سنوات لتجري له عملية المرارة. كنا قد أستأجرنا غرفة إضافية إلى جانب غرفته في المستشفى الفرنسي، فيها عدة كراسي لاستقبال الزوار الذين كانوا يأتون لعيادته. وكذلك لوضع باقات الزهور التي غصت بها غرفته. كنت أشكر الجميع وأقدم لهم القهوة المرة والشكولاتة. وبعد العملية عاد حمود إلى عمله بالسفارة في إندونيسيا، وبقي فيها إلى أن انتقل بعدها مباشرة إلى الهند. حيث بقي فيها سنتان، ومن ثم عاد بعدها إلى دمشق، وبقي فيها عدة سنوات. عمل حمود في هذه الفترة مديرا لدائرة أمريكا في وزارة الخارجية.

وكان آخر منصب شغله حمود هو مندوب سوريا الدائم في الأمم المتحدة، ولم يبق في هذا المنصب أكثر من سنة. حيث استقال عام ١٩٧٩، ودعا إلى مؤتمر صحفي شرح فيه أسباب استقالته وأنتقد سياسة وتصرفات الرئيس حافظ الأسد في حينها، وأعلن انضمامه إلى المعارضة السورية. وبعد هذا المؤتمر لم نعد إلى بيت السفارة في نيويورك. بل ذهبنا إلى فندق في ولاية نيوجرسي المجاورة. ومكثنا فيه لبضعة أيام. ثم عدنا بعدها إلى نيويورك، واستأجرنا شقة، وعاد الأولاد إلى مدارسهم. وكان حمود في حينها يعمل مع الاستاذ صلاح البيطار في مجلة كان اسمها (الإحياء العربي)، وكانت تصدر في فرنسا. ولكن اغتيال الأستاذ صلاح البيطار عام ١٩٨٠ ترك أثرا بالغا في نفس حمود، وفشلا قبل أن يتسنى لهما المطالبة بحكم ديمقراطي في سوريا.

كان الوضع المادي سيئا جدا. حيث لم يعد لحمود أي دخل مادي، وكانت الأقساط الدراسية للأولاد عالية، وفوق طاقتنا بكثير، وإيجار الشقة عالٍ. فبدأنا نقترض من البنوك، طرحت الحكومة العراقية على حمود مساعدة مادية تكفي لنعيش وندفع الأقساط للأولاد. وهكذا بدأنا حياة عادية وجديدة وبعيدة عن السلك الدبلوماسي. ارتحت لاقتصار عملي على الاهتمام بالأولاد وتأمين حاجاتهم خاصة أثناء امتحاناتهم المدرسية. ولم تكن علاقتي معهم علاقة أم بأولادها فقط، بل كانت علاقة مبينيه على الحب العميق والصداقة المخلصة.

كان حمود مرتاحا ومطمئنا لهذا الحل. ولكني لم أكن مطمئنة، فكنت أقول في نفسي: ماذا لو لم يستمر العراق بهذه المساعدة فكيف سيكون الحل؟ ولكن والحمدالله تخرج العربي من كلية الهندسة وتابع دراسة الماجستير في جامعة كولومبيا في نيويورك، وتخرج منها. ودخلت ليلى كلية الطب في نيويورك وبعد أن تخرجت منها عملت اختصاص في الغدد الصم، أما ميسون فقد استطاعت

هي أيضا، وبعدة عدة سنوات، الدخول إلى كلية الطب في ولاية فرجينيا، وتخرجت منها، ومن ثم تخصصت في الأمراض الداخلية. وهكذا بدأنا بالاعتماد على أنفسنا.

في أحد الأيام كنا لا نزال في نيويورك زارنا مسؤولان عاليا المرتبة FBI وطلبا منا أن نترك من نيويورك لأن حسب معلوماتهما أن حمود على القائمة السوداء من قبل المخابرات السورية، وقد يتعرض إلى اغتيال وهما لا يريدان أن يحدث ذلك في أمريكا كما حدث للأستاذ صلاح في فرنسا.

قررنا على أثر تلك الزيارة أن نغادر نيويورك ونذهب إلى ولاية فرجينيا حيث بقينا هناك بضعة سنوات وعندما انتقل العربي إلى أوغستا في ولاية جورجيا ليعمل فيها مهندسا وكذلك ليلى انتقلت إلى هناك قررنا أن نترك فرجينيا ونبقى قربهم.

ضاق صدر حمود لبعده عن سوريا ولكونه غريب الوجه واليد واللسان وكنت كثيرا ما اسمعه يدندن بعض الأبيات من شعر المتنبي:

يقول لي الطبيب أكلت شيئا وداؤك في شرابك والطعام
وما كان في طبه أني جواد أضر بجسمه طــول المقام

وقبل مرضه الأخير بأسابيع قليلة، اتجه نحو النافذة وأخذ يرقب أشجار الحديقة، وكان المطر ينهمر بغزارة وكـأنه يحاول أن يصل الأرض بالسماء ويغسل الشوارع وسطوح المنازل، التفت نحوي وقال: أن الموت هو أسهل الأشياء. لأنه عندما يموت المرء تموت معه طموحاته وأفكاره وأحلامه. حتى أحقاده تذهب كلها وكأنها لم تكن يوما. أما أن يموت ليبعث في كل لحظة، فهذا هو العذاب الحقيقي. نعم ليس الصعب أن يموت الانسان، بل أن يموت من يحبهم ويبقى هو حيا يقاسي الغربة والنكبات.

إن غضب الطبيعة بهذا الشكل هيج أشجاني ودفعني أن أتذكر بعض الذكريات عندما كنا نشترك في المظاهرات ونهتف بصوت عال حتى لا تضيع أهدافنا وطموحاتنا، ولكنها ضاعت فهل لنا من يستعيدها. لقد اكتشفنا أنه بالوحدة والحرية والاشتراكية تكمن قوتنا، ولكن لم نحتفظ بما اكتشفناه. لقد رأينا مفعول الزمن، ولكن لم نر وجهه. سمعنا أن حب الوطن أقوى من الموت، ولكن لم يستقر منه شيء. كنا نتلقى الصدمات واحدة تلو الأخرى. صدمات موجعة، ينفطر لها القلب ويندى لها الجبين. لا أدري إن كنا في أول مرحلة من مراحل تاريخ قادم بالعجائب. أم في نهاية مرحلة، تبدأ وتبتعد لتنتهي في أفق بعيد. لقد أصبحت، وعلى ما أظن، الفجوة كبيرة بين الماضي والحاضر. ثم نظر إلى الأعلى متأملا، وعاد فسألني: هل تعرفين كم يوما بقي على عيد الأضحى؟ أظن انه لم يبق إلا قليلا. فأطرق قليلا، وأخذ يردد:

عيد بأية حال عدت يا عيد فيما مضى أم لأمر فيه تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم فلـــــيت دونك بيد دونها بيد

لقد عاش أبو العربي في أمريكا أكثر من ربع قرن. عاش فيها مكرها ومجبرا. وبقيت الغصة ترافقه طيلة حياته. وكثيرا ما كان يقول ماذا يمكن أن يحصل لو وضعت نفسي في الطائرة وعدت سوريا؟ وكنا نقول له: هذه فكرة انتحارية، لا تفكر فيها أبدا، لأنهم سيقتلونك وأنت في المطار، أو ستمضي بقية أيامك في زنزانة صغيرة، وجسمك ضعيف ونحيف لا يتحمل التعذيب. وكان يرد بقول الشاعر دعبل الخزاعي:

ألم يأن للســـفر الذيـــن تحملوا إلى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك ســـــوابق عبرةٍ نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين كم دار تفرق شملهـــــــا وشمل شتيتٍ عاد وهو جميع
كذاك الليـالي صرفهن كما ترى كـــــــل أناس جدبة وربيع

مرض حمود بسرطان الرئة. ظننا أنه التهابا رئويا. ولكنه عندما طالت مدته، أخذته ليلى الى المستشفى، وصورته. فتبين أنه مصاب بسرطان الرئة، وكان من الصعب إجراء عملية جراحية للاستئصال الورم لأنه كان قريبا من القلب. بدأ حمود بالعلاج الكيميائي، وكان لدينا أمل بشفائه. لكن ليلة الثامن من نيسان كانت صعبة عليه. نقلناه إلى المستشفى. خرج من البيت ماشيا على رجليه إلى السيارة. لكنه خرج ولم يعد. وكان هذا آخر عهده بالبيت. توفي في 13 نيسان 2011. صلي عليه في الجامع في السادس عشر، وجرت له حفلة تأبين مرموقة. حيث توافد المعزون، وتتالت فيه الخطب من أبنائه وأحفاده، ومحبيه وأصدقائه، وممن تعرفوا عليه في بلاد الغربة، وملئت باقات الزهور المكان، واسترجعت ذكريات حياة ملأها حب الوطن والحرية ضاق بها شريط صور تلفزيوني كان يحاول جاهدا تلخيص مسيرة النضال الطويل. ودعناه بعدها إلى مثواه الأخير في 17 نيسان 2011، في يوم ذكرى استقلال سوريا، البلد الذي ولد فيه وأحبه وترعرع فيه، وخدمه ومثله في المحافل الدولية، وناضل من أجل إكمال استقلاله بالحرية، ومات وهو يحلم بأن يؤويه ترابه.

رحل أبو العربي ويا حسرة قلبي عليه، انطفأت تلك الشمعة التي أضاءت علينا حياتنا، وملأتها بألوان الأمل، لتنتهي بذلك حياة التشرد والعذاب.

من مذكرات حمود الشوفي

البداية في محافظة السويداء

قبل خمسين عاما، توقفت عن متابعة التعليم الديني لألتحق بالمدرسة الابتدائية. ولعل تلك البداية قد طبعت كل حياتي اللاحقة. إذ ما كان لي أن أحيا واتصرف كما فعلت، لو لم أبدأ تحصيلي المدرسي في مدرسة دينية. وقد يكون مثل هذا القول مستغربا لشباب اليوم، ولكنه لم يكن كذلك قبل خمسين عاما. إذ أن التعليم لم يكن إلزاميا ولا مجانيا، وكانت القلة القليلة من الذكور، وأقل منها من الإناث تذهب إلى المدرسة الابتدائية. وكانت تنتهي سنوات التحصيل العلمي بالنسبة للغالبية ممن يذهبون إلى المدرسة عند الشهادة الابتدائية، لتبدأ حياتهم العملية. والأقلية من هؤلاء التي تتابع الدراسة، تتابعها لأربع سنوات لاحقة، والقليلون جدا هم الذين يتابعون الدراسة الثانوية، وأقل منهم من يتابع الدراسة الجامعية.

عندما التحقت بالصف السادس الإعدادي كان عليّ ترك قريتي الأولى صلخد حيث ولدت، والالتحاق بالمدرسة الإعدادية الوحيدة في محافظة السويداء، والتي كانت تشغل مبنى من طابق واحد، كان ثكنة عسكرية طوال فترة الانتداب الفرنسي. كانت تلك السنة المدرسية ١٩٤٨-١٩٤٩، وهي السنة الأولى التي أصبح فيها التعليم الإعدادي مجانا. إذ أن مجانية التعليم كانت قبل ذلك مقتصرة على المرحلة الابتدائية. وكان من الممكن ألا أتمكن من متابعة تحصيلي العلمي لولا مجانية التعليم. إذ أن دفع قسط مدرسي لم يكن بالأمر الهين على أسرتي التي تعيش من الزراعة. صحيح أننا كنا نملك أرضنا وكان أبي يشغّل معه عاملا زراعيا ويعطيه ربع الانتاج (مرابع)، إلا أن محصولنا كان بالكاد يكفي أسرتنا. وعندما توفيت أمي، قبل ثلاث سنوات من دخولي المدرسة الإعدادية، اضطربت حياتنا المعيشية لأن أبي كان شديد التدين ولم يكن معنيا بتفاصيل حياتنا المادية. وكان أخي الكبير (حمد) قد تزوج وطلق وسافر للبحث عن عمل خارج منطقتنا. وبالتالي كنت مرشحا، كوني ثاني أخوتي من حيث العمر، لأن أترك المدرسة وأبدأ مساعدة أبي في الزراعة. وقد صادف أن خالين من أخوالي كانا يعيشان في السويداء كمعلميّن في تلك السنة، وبالتالي كان من الممكن أن أسكُنْ معهما وأتجنب نفقات السكن. وكان أبي قد لاحظ بعد أن تركت المدرسة الدينية قبل سنتين من ذلك التاريخ، أن وضعي في المدرسة الإعدادية قد أصبح مدعاة للفخر تماما كما كان وضعي في المدرسة الدينية، وأنه لم يكن ليسمع عني إلا كل إطراء، وكان كل من عرفني يتنبأ لأبي بأنني سأكون متميزا عن كل أقراني لو أتيح لي أن أتعلم. وعلى أية حال فقد تركت صلخد قريتي الأساسية وذهبت إلى السويداء. ولم يكن ليخطر ببالي أو ببال أحد من

أفراد أسرتي أن تلك السفرة التي لا تتجاوز الثلاثين كيلو مترا ستمتد العمر كله. ولتنتهي رغم إرادتي في أمريكا حيث أبدأ تسجيل هذه المذكرات بعد نصف قرن تقريبا على تلك السفرة البسيطة من صلخد إلى السويداء.

وقبل أن ينتهي عامي الدراسي الأول في السويداء توفي أبي- رحمه الله – وأصبحت يتيم الأبوين. ولم يستطع أخي حمد أن يتابع زراعة أرضنا فأصبحت خالتي (زوجة أبي وأم أخي الأصغر حسين) هي رأس أسرتنا. ولم تكن تستطيع أن تزاول أي عمل مأجور، فرتبت أن تزرع أرضنا مقاسمة مع من يزرعها. وبذاك فقد كان دخلنا متواضعا يقيم الأود بصعوبة. إلا أن نفقات الإقامة في السويداء قد ازدادت علي بعد سنتين من إقامتي فيها لأن خاليَّ قد انتقلا منها وأصبحت ملزما بنفقات سكني بالإضافة إلى نفقات المعيشة العادية الضرورية. مع هذا لم أفكر قط بترك المدرسة والعودة الى العمل الزراعي. وإنما أخذت أعمل أي عمل متاح في فصل الصيف لأقتصد ما قد يكفيني للفصل الدراسي اللاحق. ولم يحدث أبدا أن نظرت إلى وضعي المادي نظرة اشفاق أو تبرم أو ضجر. وذلك لأن غالبية التلاميذ زملائي لم يكن وضعهم المادي أحسن من وضعي كثيرا. وأيضا لأن طبيعة منطقتنا وتربيتنا البيتية تجعل من العار الشكوى من الضيق المادي وتبث في النفوس الترفع عن الشكوى والتطلع الى القيم التي تعارف ناس ذلك الزمان عليها، قيم الرجولة الحقة مثل الصبر، والشجاعة، والصدق، والمثابرة. كما أنه لم يحدث أن كان الفقر في منطقتنا مدعاة للسخرية أو الإشفاق وعلة في تقييم المجتمع للأسرة الفقيرة أو أي من أفرادها. حيث أن المدرسة أصبحت لي ولغيري من أبناء جيلي مكانا لتحصيل العلم. وربما أهم من ذلك كانت مكانا لحياة اجتماعية جديدة تختلف جذريا عن نوعية الحياة المنعزلة التي عاشها الجيل الذي سبقنا، وكلٍ ضمن قريته ومشاكلها البسيطة التي شكلت سقفا لثقافة ذلك تعليم الجبل، قدم من كل أرجاء المحافظة الى مدينة السويداء الراغبون فعلا بالتعلم وذلك باعتبار العلم الوسيلة الوحيدة المتاحة في منطقتنا لتحسين الوضع المعاشي لرجال الغد. وهكذا لم يعد التحصيل الإعدادي والثانوي فيما بعد مقتصرا على أبناء العائلات المُنعمة أو الغنية نسبيا من أهل الجبل. بل أصبح التعليم شعبيا. وبهذا استدرجت المدرسة غالبية أبناء جيلنا، ونسبة أقل من بناته في مدرسة إعدادية منفصلة للبنات. ونظرا لقلة عددنا أخذ تعارفنا كزملاء طابعا هو أقرب إلى الصداقة منه إلى مجرد الزمالة المدرسية. ولذلك امتدت لدى الأغلبية الصداقات التي تشكلت في إعدادية السويداء في أوائل الخمسينات إمداد العمر كله. كما إن الصفات الشخصية والانطباعات الأولية التي حملها كل منا

اتجاه نفسه واتجاه أصدقائه قد تعمقت مع مرور الأيام. ونادرا ما تغيرت في مراحل الشباب والكهولة. وبالرغم من أن الأحزاب السياسية المتواجدة في سورية آنذاك كانت كلها تلتزم بالقانون القاضي أن يكون أعضاء الحزب قد أتموا الثامنة عشرة من العمر عند انتسابهم إليه، إلا أنها لم تكن تدقق في أعمار المنتسبين إليها والمتعاطفين معها. لقد كان جيلنا هو الجيل الأول تقريبا الذي يتشكل وعيه السياسي بعد الاستقلال. ومحافظة السويداء قد لعبت دورا متميزا في النضال ضد الاستعمار الفرنسي عبر ثورة ١٩٢٥، ومن أجل الاستقلال فيما بعد. وذلك بانضمام وحدات الجيش التي جندها الفرنسيون من أبناء الجبل إلى حركة الاستقلال قبل حدوثه.

كانت منظفتنا ذات تراث فذ ومعروف بالنضال ضد الإقطاع وتحقيق انتصارات فعلية ضد النظام العثماني والنظام الإقطاعي فيما بعد. وقد أخذ التعليم هذا الطابع الشعبي نتيجة مجانتيه والتي تمت الإشارة إليها فيما تقدم. لهذه الأسباب وللنشاط السياسي الذي عم سورية بعد الاستقلال أصبحت مدرستنا ساحة صراع حقيقية بين مختلف الأحزاب السياسية التي تنافست لكسب الطلبة إلى صفوفها. ولقد صادف هذا التنافس القائم هوىً في نفسي، بل لعلني شعرت في لحظات ما أنه لم يخلق إلا من أجلي. هذا إذا ما أخذنا بالاعتبار عامل السن بطبيعة الحال. وهكذا فقد وجدت في السياسة، أو في الحزبية على الأصح، نداء العمر ومعنى الوجود. وانصرفتا بكل حماس الشباب وإيمان شبه الصوفي إلى القراءات السياسية. وقد لاحظ المسؤولون الحزبيون في مدرستنا ميلي الشديد للتعلم وحماسي المفرط للنقاش والجدل، فأمدني كل منهم بأدبيات حزبه. وأطلعت في تلك السن المبكرة على معظم المقولات الفكرية والكتابات السياسية الدارجة آنذاك، وخاصة تلك التي تدعو إلى الشيوعية، أو إلى حزب البعث العربي أو إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي. وحتى حزب الإخوان المسلمين كان قد وجد له أنصار في منطقتنا الخالية تقريبا من أهل السنة. وقد أطلعني ممثلوه كممثلي الأحزاب الأخرى على أدبياته ومقولاته السياسية. ولم يطل بي التردد فقبل نهاية الصف الثامن كنت قد انضممت إلى حزب البعث العربي وأقسمت يمين الولاء للحزب في أول آذار من عام ١٩٥١.

لقد تضافرت عوامل متعددة منها تفوقي المدرسي، وحماسي الحقيقي للعمل الحزبي، وقدرتي على النقاش والإقناع، وكذلك وعي المسؤولين الحزبيين لضرورة رعاية المتحمسين أمثالي رعاية خاصة. تضافرت هذه العوامل لتنمّي في نفسي إحساسا كبيرا بالمسؤولية في مثل تلك السن المبكرة. وأخذت القراءة السياسية، والحوار والنشاط والانغماس في القضايا الاجتماعية والسياسية

تشكل الهدف الحقيقي لحياتي، وتجعل انصرافي الكامل إلى احتراف السياسة أمرا طبيعيا، بل هو الأمر الطبيعي الوحيد بالنسبة لي. ولابد من الإشارة هنا إلى أنني لم أكن الوحيد الذي وجد في السياسة مستقبله، بل إن كل أصدقائي كانوا كذلك، وحتى عندما أعود اليوم إليهم بالذاكرة واحدا واحدا، أجد أنهم كلهم قد احترفوا السياسة في وقت ما، ولم يتخلوا عن العمل العام إلا قسرا بالموت، أو السجن، أو التشريد، أو التهديد بها وربما بما هو أشد منها. ولعله من الضروري هنا إلقاء نظرة متفحصة على الظروف السياسية والاجتماعية التي جعلت انخراط جيلنا في العمل السياسي مساله واجبة الوجود. صحيح أننا بدأنا كشعب نعي محيطنا وعيا أوليا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، إلا أن جيلنا ككل أبناء أمتنا لم يستطع أن يشارك في فرحة النصر. إن استقلال سورية لم يأت هينا وقد دفع الشعب في سبيله تضحيات هائلة، وكان من النادر جدا أن تجد في مدرستنا مثلا شخصا لم يسمع من أهله اسم قريب له استشهد في الثورة السورية الكبرى سنة١٩٢٥، أو في المعارك والمظاهرات التي استمرت دون انقطاع حتى خروج الفرنسيين من سورية سنة ١٩٤٦. وقبل أن يستقر وضع الاستقلال الجديد، وقبل أن تترسخ أصول وتقاليد الحكم الديموقراطي فيه، حدثت حرب فلسطين والتي أتت كارثية على الأمة العربية وعلى سورية خاصة باعتبار أن فلسطين هي جزؤها الجنوبي. فقد أعقب الحرب مباشرة استغلال بعض العسكريين للهزيمة وبدأوا مسلسل الانقلابات التي عصفت بسورية فيما بعد، والتي كان أولها انقلاب حسني الزعيم في أول آذار١٩٤٩. وكان طلاب مدرستنا ككل أبناء ذلك الجيل في سورية منفتحين على الدعاية السياسية، ومنحازين بشكل طبيعي للأحزاب الراديكالية التي لم تتحمل مسؤولية سياسية في الهزيمة العسكرية والتي كانت ترفض النظام الديموقراطي الذي خلفه عهد الانتداب الفرنسي عندنا. والذي تميز قبل أي شيء آخر بسيطرة الأرستقراطية الإقطاعية والبورجوازية التجارية. والذي عجزت حكوماته قصيرة العمر والمنطلقة عقائديا من الولاء للغرب ونظامه السياسي عن أن تحصل من هذا الغرب على أي تأييد لها في انحيازها الطبيعي للحقوق العربية في فلسطين. ولذا فقد حظي الانقلاب العسكري الأول بتأييد شعبي فوري مبرهنا بذلك على رغبة الشعب الأكيدة بالانخراط الفعلي لحماية فلسطين وإنقاذ عروبتها وعلى توق الشعب للمشاركة في الحياة السياسية وفي تحمل المسؤولية. ولكن سرعان ما تبخر هذا التأييد وتحول إلى شكوك ثم إلى عداء صريح للانقلاب عندما كشف هذا الحدث عن وجهه الحقيقي، وأنه لم يأت إلا لقبول الهزيمة العسكرية وإلغاء أي حريات عامة في الوقت نفسه.

وبالرغم من تكرر الانقلابات العسكرية فيما بعد فان غرضها الرئيسي لم يتغير ألا وهو لجم الرغبة الشعبية الطبيعية في حياة سياسية حضارية يجد الناس فيها مجالا للمشاركة وتحمل المسؤولية وإبداء الرأي فيمن يحكم وفي إجراءات الحكم السياسية والاقتصادية والثقافية. ولا شك أن العداء الداخلي الذي واجه كل الانقلابات العسكرية منذ انقلاب حسني الزعيم قد جعل الحكم العسكري في بلادنا ناقص الشرعية ومعزولا. وجعل واجهاته السياسية هشة وفاقدة للاحترام، وأصبح الخيار الوحيد المفتوح أمام النظام العسكري – طالما أنه لم يبحث عن طريقة ما لكسب تأييد داخلي حقيقي- أن يستسلم لقيادة القوى الأجنبية صاحبة النفوذ في منطقتنا، وأن يحقق لها أغراضها من أجل أن يبقى. وتنامت بالمقابل القناعة الشعبية بأن القوى الأجنبية هي صاحبة النظام العسكري وحاميته، فهذا انقلاب فرنسي، وذلك انكليزي، وأخر امريكي، وهكذا.

عودة إلى الرواية الشخصية

كنا- نحن أبناء جيل الخمسينيات- مهيأين للانخراط في أحزاب سياسية، وبالرغم من حداثة السن أو ربما بسببها فقد كان طموحنا هائلا مثاليا ومندفعا. لقد شعر جيلنا أن الغرب قد أهاننا واستخف بنا وغدر وتآمر دون وازع من ذمة أو ضمير أو حياء. وشاعت على أوسع نطاق شعبي حقائق ما جرى للملك حسين الأول زعيم الثورة العربية الكبرى. فقد حالف الحسين الحلفاء وأخذ منهم وعودا رسمية بإقامة مملكة عربية مستقلة في الأرض العربية التي تتحرر- نتيجة الحرب العالمية الأولى- من الامبراطورية العثمانية. وكذب عليه الإنكليز بكل وقاحة. فتفاهموا مع الفرنسيين على تقسيم المنطقة وأعطوا للصهيونية وعد بلفور القاضي بمساعدتها على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. ولم يغير انضمام العرب للحلفاء في الحرب العالمية الثانية شيئا من النيات أو السياسات وإنما أضاف حلقة جديدة إلى خيبات أمل العرب القديمة- الجديدة. فالأمم المتحدة التي ورثت دور عصبة العمل حثت جمعيتها العامة في ١٩٤٧/١١/٢٩ على تقسيم فلسطين. والولايات المتحدة التي سبق العرب أن تطلعوا إلى عدلها وتفهمها لوضعهم بعد الحرب العالمية الأولى، زادت بعد الحرب العالمية الثانية على جميع دول العالم بتأييدها للصهيونية، وأعلنت اعترافها الرسمي بدولة اسرائيل حتى قبل أن يعلن بن غوريون الزعيم الصهيوني ولادة إسرائيل. ووقعت الطبقة الحاكمة في سورية وفي كل البلاد العربية المستقلة آنذاك في مأزق ليس له حل سياسي. فالحكومات العربية القائمة كانت نتيجة النفوذ الأجنبي المباشر وغير المباشر في فترة ما بين الحربين. وقد أتت من الطبقة الأرستقراطية التجارية الزراعية التي تطلعت إلى الغرب ووجدت

فيه المثال والقدوة للحكم، والحداثة، والعلمانية، والتطور. فهي لم تكن قادرة بحكم واقعها أن تعادي الغرب الاستعماري خاصة بعد أن انتصر على النازية في الحرب وتزعمته الولايات المتحدة بكل ثقلها الاقتصادي وإرثها التحرري الخالي من الاستعمار (في منطقتنا على الأقل). ولم تكن هذه الطبقة الحاكمة قادرة على أن تنتزع من الغرب أي تنازل يحقق للعرب بعض العدالة. فهي تخاطب الغرب بمبادئ الحرية والعدالة التي تفترض أن النظام الغربي يقوم عليها والغرب يتعامل معها بحكم المصالح السياسية الملموسة كما يراها، وكما تستشعرها حكوماتها التي تتأثر بالدعاية الصهيونية داخل بلاده، والتي تشعر بتعاطف طبيعي مع الصهيونية ومبادئها وبعداء طبيعي تجاه العرب وتطلعاتهم الوحدوية. إن هذا المأزق الذي وجدت الحكومات العربية نفسها فيه بعد انتصار الجيش الإسرائيلي الفاشي على سبعة جيوش عربية مجتمعة قد تحول من مجرد أزمة سياسية قد تعاني منها أية حكومة خسرت معركة عسكرية إلى مأزق وجودي لم يكن له مخرج. وكان من العبث استخدام الشطارة السياسية والدجل والتلفيق الإعلامي للخروج منه. فالحكومات العربية صديقة الغرب وصنيعته قد غدر بها الغرب وهز أمنها وهي لا تستطيع أن تسلم لا سرا ولا علنا بضياع فلسطين، كما لا تستطيع أن تقطع مع الغرب كل جسورها. ولم يكن كافيا أن تعيش الحكومات العربية على مجرد كونها حكومات ديموقراطية منتخبة وذلك لأن التقاليد الديموقراطية لم تكن راسخة رسوخا كافيا في مجتمعنا. كما أن الانتخابات لم تكن من النزاهة بحيث تقطع الطريق على أي تشكيك جدي بنزاهتها. ولم تستطع حكومات الانقلاب العسكري أن تعطي أملا بأنها تقدر على حل إشكال المأزق السياسي أو تريد هذا الحل لو تهيأت لها القدرة فهي قد اغتصبت الحكم لأنها فقط تريد أن تحكم وخسرت أية إمكانية لتكسب مشروعية بقائها كما تقدم.

لم يكن أمام جيلنا واقعيا إلا الأحزاب السياسية العقائدية التي كانت تبشر بالأمل في حالة الفشل السياسي والعسكري وكانت تربط بين الأهداف السياسية والاجتماعية، وكانت بذلك تشق الطريق لتشترك في العملية السياسية الطبقات الشعبية التي كانت محرومة واقعيا من المشاركة. وقد وجد جيلنا في هذه الأحزاب العقائدية ضالته المنشودة التي تعطي للحياة الفردية قيمتها والتي تتجاوب مع طموح السن الشابة وتطلعها لأن يحيى الإنسان حرا عزيزا في وطنه. ذلك الذي كان يستحيل على الحكومات القائمة أو على الانقلابات العسكرية أن تبشر به وأن تكون صادقة بهذا التبشير لو فعلت. لم يكن انضمامي لحزب البعث في أوائل ١٩٥١ عملا فرديا شاذا، بل كان جزءا من تيار جارف دفع الاكثرية الساحقة من طلاب مدرستنا إلى حزب البعث العربي دون سواه. وقد تمكن

البعث أن يجتذب كل المتعلمين في محافظتنا تقريبا، سواء كانوا طلابا، او معلمين، او مهنيين، أو موظفي حكومة. وكان لهذا الإقبال الهائل على البعث أسبابه الواضحة خلافا للشيوعية. فهو حزب قومي وعد بالعدل الاجتماعي الذي تبشر به الشيوعية مع ترسيخ الفكرة القومية وتعميق الانتساب إلى الأمة العربية. وإذا كان الجيل العربي الناشئ في مطلع الخمسينيات على امتداد سورية يجد في العودة إلى الفكرة القومية أملا ببناء حياة حديثة حضارية فإن هذا الانتماء بالنسبة لأهل محافظة السويداء يشكل الطريق الوحيد عمليا لتوكيد مواطنتهم وتمسكهم بالقيم التقليدية التي حفظت مجتمعنا فيما مضى وتطلعهم إلى القيم العلمانية الحديثة التي قد تنقلهم من وضع العوز والفاقة إلى وضع كريم يتيح للإنسان أن يتجاوز بتفكيره وتفاصيل حياته اليومية الركض وراء الرغيف. ولا شك بأن انتماء سكان المحافظة إلى المذهب الدرزي سهّل عليهم كثيرا القبول بالبعث العربي الذي يعد بالمساواة التامة بين المواطنين بغض النظر عن الدين أو المذهب. كما يبشر بالحرية التي كانت جزءا راسخا من تقاليد أهل المحافظة في مواجهتهم التاريخية المعروفة لكل من الحكم العثماني والحكم الفرنسي. ولم يقلّل الاستقلال من شعور غالبية أهل المحافظة بغربتهم عن النظام السياسي الذي أعقب الانتداب الفرنسي. لأن ذلك النظام قد مثّل بالنسبة لهذه الغالبية استمرار تحكم بعض العائلات الإقطاعية التي نقلت ولاءها من الفرنسيين إلى الحركة الوطنية التي استلمت الحكم بعد الاستقلال. فبقيت الوجوه هي، وكذلك السياسات المتتالية التي نفّذتها هذه الوجوه. وقد أتى التعبير السياسي عن رفض أكثرية أهل الجبل لهذا الوضع الذي أعقب الاستقلال بصعود الحركة الشعبية التي عمت كل الجبل تقريبا، وتركزت في منطقتي، منطقة صلخد، ووصلت إلى مواجهتها الدامية مع من أسمتهم أعداءها الطبقيين سنة ١٩٤٧. ومع أنها لم تحقق أي تغيير فوري وملموس في العلاقات الاجتماعية القائمة، إلا أن الجو السياسي قد تغير وأصبحت مساهمة الأكثرية الساحقة في العمل السياسي أمرا طبيعيا. ولما أتى البعث في أوائل الخمسينيات وجد الجو الشعبي وخاصة بين المتعلمين مهيأ لينقل الساسة في الجبل إلى مرحلة أعلى من حيث التطلع والآمال والوسائل. وقد كان البعث حكيما جدا في ترفعه عن الخوض في الصراعات العائلية القائمة، ودعوته الجميع إلى حياة حرة عزيزة في الوطن العربي الواحد.

وكما فشل الحزب الشيوعي في اجتذاب نسبة عالية من المتعلمين إلى صفوفه، فقد فشل الحزب السوري القومي الاجتماعي في اجتذاب أي من المتعلمين إلى صفوفه تقريبا. إذ أن المناداة بقومية سورية متميزة لم يستطع، وما كان له أن يستطيع، تحريك العواطف وإثارة الخيال بين أبناء الجبل

المعتزين بانتمائهم العربي، والذين كان يشكل تاريخهم الحديث والمتوارث تعبيرا عمليا عن الانتماء العربي الطبيعي. وقد ركز الحزب السوري القومي نشاطه على كسب أفراد معينين إلى صفوفه. وكان أبرزهم زيد الأطرش بن الأمير حسن الأطرش، والذي يعتبر تقليديا صاحب الزعامة الشاملة لكل أهل الجبل. ولكن هذا التوجه بالذات قد طعن في أصالة دعوة الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى الحداثة والتطور وذلك باعتماده على ترسيخ الأوضاع الطبقية المرفوضة. كما إن حزب البعث بالمقابل كان قد كسب إلى صفوفه بين من كسب أبناء سلطان باشا الأطرش، قائد الثورة السورية الكبرى والزعيم الذي يجمع أهل الحبل على احترامه وتقديره والفخر به وبمواقفه الوطنية التاريخية. ولم يعمّر الحزب السوري القومي سياسيا زمنا طويلا. فقد انتهى سياسيا في سوريا مع اغتيال العقيد عدنان المالكي سنة ١٩٥٥ ولم يترك في الجبل أثرا يذكر. أما الحزب الشيوعي فقد عمّر أكثر من ذلك وحاول في سنوات المد الشعبي الهائل بين ١٩٥٤-١٩٥٨ أن يجد له قاعدة شعبية متينة في الجبل عن طريق إحياء الانقسامات العائلية والتقليدية، والدخول في تحالفات مع أية وجاهة عائلية خارج البعث. وبرز من صفوفه قائد بارع في هذا المجال هو شبلي حمد عزام، والذي لم يكن من فئة المتعلمين وإنما كان فعلا من الطبقة العاملة. وبالرغم من كل النشاط الذي بذله الشيوعيون، إلا أن وضعهم ظل محدود الأثر في الجبل. وانتهى أي تأثير سياسي لهم عندما وقف الحزب ضد وحدة سوريا ومصر سنة ١٩٥٨. وإذا كان الحزبان العقائديان الشيوعي والسوري القومي لم يتمكنا من ترك أثر ما على الأوضاع السياسية في محافظتي، فإن حزب البعث كان له دور مختلف، وما نزال نرى امتداده حتى اليوم. فمن مطلع عقد الخمسينات أخذ البعث بقيادة شبلي العسمي يرسخ تدريجيا وجوده بين الطلاب والمتعلمين أولا، ثم بين عامة أهل الجبل فيما بعد. ولما قام العقيد أديب الشيشكلي بانقلابه العسكري في ١٩٥٢ تصدى له حزب البعث العربي في كل سوريا بطبيعة الحال. ولكن البعث في الجبل كان أهم تعبير سياسي يومي عن رفض الناس للانقلاب. فعندما فرض أديب الشيشكلي على كل المواطنين أداء يمين بالتخلي عن الانتماء لأي حزب سياسي تحت طائلة التسريح من الوظيفة رفض شبلي العسمي بتوجيه صريح من قيادة الحزب أداء هذا اليمين فسرح من وظيفته كمدرس. وبالطبع أكسبه ذلك وأكسب البعث سمعة واحتراما كبيرين. وبعد أن حلّ الشيشكلي الأحزاب السياسية بمرسوم سنة ١٩٥٢برز حزب البعث على الساحة الوطنية بوصفه الحزب الوحيد عمليا الذي يخوض نضالا إيجابيا ضد الشيشكلي. فلم يكتف البعث كغيره من الأحزاب السياسية برفض التعاون مع النظام العسكري، وانما أخذ يوزع البيانات ويقود المظاهرات. وتعرض أعضاؤه

وانصاره لأذى جسدي نتيجة نضالهم ضد الانقلاب. ولا شك أن البعث قد قوّى من وجوده الشعبي في فترة النضال ضد الشيشكلي بإنجاز عملية اندماجه مع الحزب العربي الاشتراكي في حزب واحد جديد هو البعث العربي الاشتراكي، في صيف عام ١٩٥٢ وعلى صعيد الجبل لم يكن هناك جمهور معروف للحزب العربي الاشتراكي. وقد انضم أعضاؤه القليلون جدا في الجبل إلى البعث، واستمر النضال ضد الحكم العسكري على حاله وإنما تحت الاسم الجديد.

في أوائل السنة الدراسية ١٩٥٢-١٩٥٣ كنت واحدا من حوالي عشرين طالبا أو أقل ممن قرروا متابعة التحصيل الثانوي. وكنت قد حصلت نتيجة معدل علاماتي المرتفع في فحص الكفاءة سنة ١٩٥٢على منحة دراسية مقدارها ٥٠٠ ل.س في السنة، أعلى منحة أعطتها الحكومة لذلك المستوى من التحصيل. وكانت بالنسبة لي حلا نهائيا لمأزقي المادي، وتعبيرا حسيا عن الفائدة الملموسة للتفوق المدرسي، ومدعاة للاعتزاز الذي كنت أحاول أن أخفيه دون نجاح. ولكن لم يمض وقت طويل على بدء العام الدراسي حتى قرر الحزب أن تقوم مدرستنا كغيرها من المدارس التي تم التمكن من تحريكها في كل سورية بمظاهرة طلابية في يوم ١٩٥٢/١١/٢٩ لأن ذلك كان يوم تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ وسلخ لواء الإسكندرون عن سورية سنة ١٩٣٨. وقد ارتأت قيادة الحزب الذي أصبح سريا ويمارس نشاطه تحت الأرض بعد أن صدر مرسوم حل الأحزاب السياسية أن يخطب طالب في تلك المظاهرة ليشرح أهدافها قبل الانطلاق من المدرسة باتجاه دار الحكومة في السويداء. ويبدو أن الزميل الذي كلّفه الحزب بإلقاء الخطاب قد خاف من مغبة ذلك فاتصل بي في اليوم السابق للمظاهرة وسألني ما إذا كنت مستعداً أن ألقي الخطاب عوضا عنه، فأجبته باستعدادي وحماستي لذلك. فأبلغني عند إذن بأن أعتبر نفسي الخطيب الذي ينتدبه الحزب لهذه المهمة، وترك لي أن أقول ما أراه ضروريا لهذه المناسبة. وتمت الأمور في اليوم التالي كما أرادت قيادة الحزب. وقد لعبتُ وأصدقائي الشخصيين، والذين لم يكونوا حزبيين، كلهم دورا بارزا في إنجاح المظاهرة، داخل المدرسة وخارجها. حيث سارت جموع الطلاب تحت الشعارات والهتافات التي وضعتها لهم قيادة الحزب. ولم تبتعد المظاهرة كثيرا عن المدرسة حتى تصدت لها قوات الشرطة. وتحوّلت المظاهرة إلى معركة، رشق الطلاب فيها رجال الشرطة بالحجارة. وردت عليهم الشرطة بإطلاق النار. ومع أن أيا من الطلاب لم يُجرح بالرصاص أو يُقتل إذ أن الشرطة كانت تطلق النار بقصد إرهابنا وتفريق المظاهرة. والطلاب كانوا يعرفون ذلك بطبيعة الحال، فتوقفت المظاهرة بعد معركة دامت حوالي ساعتين. وأعقب المظاهرة ملاحقة الشرطة

للطلاب الذين اعتبرتهم المحركين للتظاهر. وبعد مضي يومين على المظاهرة اعتقلت من الغرفة التي كنت استأجرها. ووجدت نفسي في السجن مع حوالي عشرين طالباً. ونُقلنا في اليوم الثاني إلى سجن المزة قرب دمشق، وبقينا فيها حوالي أسبوعين. أطلق بعدها سراح كل الطلاب المعتقلين عدا خمسة كنت واحدا منهم، حيث تم تحويلنا إلى المحاكمة. وحُكمَ على كل منا بالسجن أربعة أشهر، أمضيناها في قلعة الحميدية في دمشق مع المحكومين فيها أحكاما خفيفة.

عقب انتهاء مدة العقوبة، أُفرج عني ووجدتني خارج المدرسة إذ صدر قرار بطردي من كل مدارس سورية. ولم يكن عندي أي دخل، وكان أخي جادالله قد بدأ في ذلك العام الدراسي مرحلة الدراسة الإعدادية في السويداء. ولم يكن له معين سواي وكانت زوجة أبي وأم أخي الأصغر حسين تفعل فوق طاقتها لتؤمن لي ولأخي جادالله لقمة العيش في السويداء. ولم يكن معقولا أن أستمر في اعتمادي عليها بعد أن طُردت من المدرسة وانتفى بذلك مبرر وجودي في السويداء. ولكنني لم أفكر إطلاقا بالعودة إلى قريتي لممارسة العمل في الزراعة والتخلي عن حلمي في الدراسة. فسعيت لأتدبر معيشتي بطريقة ما ومصمما على متابعة الدراسة عندما تسنح لي الظروف. وكنت قد قررت منذ أيام السجن أن أحترف النضال السياسي كمهنة العمر. وكان علي بعد السجن أن أعاود صلاتي الحزبية ونشاطي النضالي. وقد تم ذلك دون صعوبة كبيرة، وترتبت علاقتي الحزبية التنظيمية في السويداء. ثم تهيأت لي فرصة عمل لدى مخلص جمركي على الحدود السورية اللبنانية في نقطة عبور الدبوسية. وهي على طريق حمص طرابلس، وبقيت في الدبوسية بضعة شهور إلى أن اعتقلت ثانية في حمص لبضعة أيام. ثم سافرت إلى دمشق ومكثت فيها بضعة أسابيع. وتنقلت بمهمات حزبية في تلك الفترة بين السويداء، ودمشق، وحمص وحلب. وكان النظام القائم يزداد عزلة عن الشعب وترتفع حدة المقاومة وقد حاول النظام سنة ١٩٥٣ أن يضرب المقاومة في السويداء ضربة ساحقة يستعيد فيها نفوذه ويكسب عطف الأكثرية السنية في سورية مدعيا أنه يتصدى لطائفة الدروز التي ينتمي إليها سكان محافظة السويداء. وقد فشلت محاولته بإثارة الفتنة الطائفية فشلا ذريعا. إذ تصدى له سلطان باشا الأطرش، قائد الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥وصاحب التاريخ الوطني المجيد. ولم يشأ سلطان الأطرش أن يصطدم بالجيش السوري الذي طالما كانت تعلق عليه الآمال الكبيرة بتحرير فلسطين وخدمة الأهداف القومية الكبرى فانسحب سلطان إلى الأردن مع عدد معقول من المناضلين فاضحا بذلك عزلة النظام العسكري داخليا. وأصبح تواجده في الأردن نقطة تحول آزرت استعداد المناضلين الوطنيين

لمقاومة الحكم العسكري بالقوة إذا لزم الأمر. وعلى صعيد حزب البعث العربي الاشتراكي عاد إلى دمشق القادة الثلاثة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني من منفاهم الاختياري في روما، وأخذ نشاطهم السياسي طابعا علنيا متحديا للنظام. اذ أصبحت بيوتهم مفتوحة للزوار، واستقبلوا وفوداً من كل المدن ومختلف الأحزاب السياسية. وكان البعثيون نشطين جدا في إبراز تصميم الحزب على متابعة النضال لإسقاط النظام، وفخورين بالدور الطليعي الذي لعبه الحزب في تحريك الشعب عامة ضد النظام. وكان توافد البعثيين على بيوت القادة الثلاثة مناسبة أولى بالنسبة لي لأتعرف على قادة البعث عن قرب رغم صغر سني. وقد شعرت كما شعر كل البعثيين تقريبا بروعة كلام الأستاذ ميشيل عفلق وتأثيره السحري على سامعيه من خلال إحيائه لذكريات تاريخية جميلة وإثارته لآمال مستقبلية طموحة وهو يتحدث عن ماضي أمتنا ومستقبلها. ولكن أحاديث الاستاد صلاح الدين البيطار أثرت فيّ أكثر من سواها لأسلوبه العقلاني وتركيزه على الحاضر ومشاكله وتصوراته لحلها. وقد تكررت زياراتي لكل من الأستاذين ميشيل وصلاح. وكنت أتعمد مرافقة كل وفد يهم بالزيارة لأستزيد من سماع أحاديثهما. وقبل مضي وقت غير طويل كنت قد أصبحت معروفا لكل منهما معرفة شخصية ولاحظت أنهما يهتمان بي اهتماما خاصا. أما الأستاذ أكرم الحوراني الذي زرته مرة أو مرتين في تلك الأثناء لم يترك في نفسي أثرا ما وتأجلت معرفته الشخصية بي لسنين طويلة لاحقة.

مؤتمر حمص

في هذا الجو الشعبي المضطرم، اتفقت قيادات الأحزاب السياسية والشخصيات الوطنية على عقد مؤتمر عام لها في حمص أواخر عام ١٩٥٣. وانعقد المؤتمر بشكل علني تقريبا. ودعيت إليه الصحافة السورية والعربية. ومثلت مقرراته المطالب التي تتفق عليها كل القوى السياسية الفاعلة على الساحة السورية آنذاك. وقد تلخصت في هدفين اثنين: الأول: إسقاط النظام العسكري القائم. والثاني: العودة إلى النظام الديموقراطي البرلماني الذي كان قد ظل قائما حتى قيام الانقلاب العسكري الأول في آذار ١٩٤٩ وأعتبر المؤتمر أن عهد الشيشكلي غير شرعي، وكذلك اعتبرت كل المؤسسات التي قامت خلاله، وأهمها المجلس النيابي الذي لم يُنتخب بنزاهة، وحركة التحرير التي أرادها الشيشكلي حزبا شعبيا له وبديلا لكل الأحزاب المعروفة. وكان انعقاد المؤتمر وبالشكل الذي تم فيه انتصارا هائلا للمبدأ الديموقراطي في سورية وسقوطا سياسيا للديكتاتورية العسكرية وتحديا بطوليا للقوى الاستعمارية القديمة (إنكلترا وفرنسا)، وللقوة الاستعمارية الأمريكية الجديدة

والتي كانت منفردة أو مجتمعة وراء هذه الانقلابات العسكرية. وربما كان هذا المؤتمر وما نتج عنه بعد شهور قليلة من سقوط عهد الشيشكلي والعودة فعلا إلى الحياة الديموقراطية أحد الأسباب العميقة للمكانة التي تحتلها سورية بين الدول العربية، وتوكيدا عمليا لحيوية شعبها وتعلقه بالديموقراطية واستعداده لمقاومة الاستعمار وطرق محاربة أدواته بعد أن كان كل تاريخه الحديث سلسلة من المقاومة المباشرة الهادئة حينا والعنيفة أحيانا للاستعمار الفرنسي، وقبله للاستعمار العثماني. كما وأيد مؤتمر حمص دون تحفظ مقاومة سلطان باشا الأطرش لنظام الشيشكلي، ونددد تنديدا شديدا بعمليات القمع الواسعة التي مارسها نظام الشيشكلي في محافظة السويداء، والتي ذهب ضحيتها عدد من الشهداء بينهم نساء وأطفال. كما رسخ المؤتمر بذلك تقليدا عاما أصبح طابعا مميزا لسورية الحديثة ألا وهو رفض التلاعب بالبنية الوطنية الشعبية عن طريق إثارة النعرات الطائفية والتمسك بوحدة الشعب على أساس المواطنة والمساواة القانونية بين كل المواطنين بغض النظر عن الدين أو الطائفة. وقد أصبح هذا التوكيد على وحدة الشعب وإدانة الطائفية السياسية نوعا من تجديد الولاء لمبادئ الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين، وإحياءً لمبادئ الحركة الوطنية التي قادت النضال ضد الاستعمار الفرنسي، والتي حققت نصرا باهرا على محاولة الفرنسيين تمزيق الوحدة السورية بإقامة دويلات طائفية (مستقلة) فيها. وقد ساعد مؤتمر حمص بموقفه الوطني الواضح برافض الطائفية السياسية في إبراز الحقيقة بأن سلطان الأطرش الذي كان لاجئا في الأردن أثناء انعقاد المؤتمر هو نفسه الرجل الذي اجتمعت عليه كلمة الحركة الوطنية كقائد عام للثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ كما أنه هو نفس الرجل الذي كان في طليعة الثوار الذين دخلوا دمشق أثناء الثورة العربية الكبرى ليعلنوا استقلال سورية الحديثة واختيار فيصل بن الحسين (الحجازي) ملكا على سورية. وتأخذ قرارات مؤتمر حمص أهميتها التاريخية بهذا الخصوص عندما نتذكر أن الدول الغربية كانت تتخذ طوال القرن التاسع عشر حماية الطوائف ذريعة لتدخلها في شؤون المنطقة العربية. وعندما تمكن الفرنسيون من السيطرة على سورية كحصة لهم نتيجة تقاسمهم مع الإنكليز السيطرة على المنطقة العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى تابعوا سياسة تمزيق الشعب إلى طوائف في سورية كما كان يفعل الإنكليز في فلسطين. وقد أتت محاولة أديب الشيشكلي باستخدام القمع العنيف في السويداء ضمن دعاية كاذبة تتهم أبناء المحافظة بأنهم كانوا السبب في خسارة العرب لحرب فلسطين. أتت هذه المحاولة بردة فعل جازمة وشاملة من قبل كل رجالات سورية حزبيين ومستقلين. إذ أن الوطنية السورية قد رأت في الشيشكلي وعهده نسخة جديدة من الاستعمار الفرنسي وقبله الاستعمار العثماني، وكان لابد لها أن

تؤكد من جديد على وحدة الشعب كشرط لا بديل له لمقاومة النفوذ الأجنبي بإسقاط أدواته مهما اختلفت الأسماء التي يتخذونها. واشتدت بطبيعة الحال المقاومة الشعبية بعد مؤتمر حمص وانتقل التعاطف معها إلى صفوف الجيش الذي كان يعتبره الشيشكلي الركيزة المتينة لنظامه.

ولم يكن مؤيدو الشيشكلي بين ضباط الجيش موافقين بالضرورة على سياسته بتمزيق الوحدة الوطنية عن طريق استخدام الطائفية السياسية. كان كثير منهم يحتقرون النظام الديموقراطي ويحملونه مسؤولية فساد الحياة السياسية بعد الاستقلال كما يحملونه بشكل خاص مسؤولية الهزيمة العسكرية في فلسطين. ولم تستطع طبقة ضباط الجيش بحكم نشأتها الشعبية (غير الأرستوقراطية) وثقافتها المحدودة أن تتفهم كافة الأبعاد للكارثة التاريخية التي أصابت الأمة العربية في فلسطين. وكانت بذلك تشكل أرضا خصبة لقبول التهويش وتصديق نصف الحقائق مما يفسر انقيادها لبعض الأفراد الطموحين، وقناعة بعض البارزين من أفرادها بأن الدكتاتورية العسكرية قد تكون الطريق الأسلم والأقصر لاستعادة الحق العربي في فلسطين وبناء الدولة العربية الواحدة. ثم أتت عملية القمع الوحشية في السويداء لتفتح عيون الأكثرية من ضباط الجيش على الحظر الذي يجر الشيشكلي بلادنا إليه. ومن ثم أتى مؤتمر حمص ليعيد كثير من ضباط الجيش النظر في موقفهم. ومع أن الحزب لم يكن يقبل العسكريين أعضاء فيه، إلا أن كثيرا من الضباط الصغار كانوا بعثيين أيام التلمذة واستمروا يحملون نفس القناعات السياسية بعد أن أصبحوا ضباطا وقد كان لاندماج حزب البعث مع الحزب الاشتراكي في حزب واحد أثره الكبير على عدد كبير من الضباط الصغار ممن كانوا يوالون الأستاذ أكرم الحوراني أو ممن كانوا بعثيين سابقين. ولما انتشرت الأخبار عن مؤتمر حمص ومقرراته وجد هؤلاء الضباط أن تعاطف الجيش معهم قد أصبح واضحا وإنهم قد يكونوا الجهة الوحيدة المؤهلة لإسقاط النظام. ولم يطل الانتظار كثيرا، ففي الشهور القليلة التي أعقبت مؤتمر حمص، انفض عن الشيشكلي كل مؤيديه من المدنيين ومعظم مؤيديه من العسكريين وأصبحت البلاد تعيش حالة ترقب لتغيير النظام. ولم تجد المحاولات المتعددة التي بذلها الشيشكلي ومعاونوه لكسر العزلة السياسية التي أحاطت بالنظام وفي أواخر شباط ١٩٥٤ وقع الحدث المتوقع، وأعلنت الإذاعة السورية من حلب إسقاط الشيشكلي على يد بعض الضباط الشبان بقيادة مصطفى حمدون.

ومع أن بعض العناصر العسكرية أرادت أن يعلن مصطفى حمدون استلام الجيش للسلطة إلا أنه استجاب دون عناء لطلب قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي وأعلن أن الحركة مصممة على إعادة النظام الديموقراطي البرلماني للبلاد حسب مقررات مؤتمر حمص. وفعلا فقد سجل مصطفى حمدون سبقا في التاريخ العربي الحديث لم يتكرر حتى الآن مع الأسف. إذ دعا مجلس النواب الذي كان الشيشكلي قد حله إلى الانعقاد. كما ودعا رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي ليمارس مهماته، وعاد البرلمان القديم إلى الانعقاد. وأعطى الثقة للوزارة التي كلفها رئيس الجمهورية بالحكم وبالإشراف على انتخابات نيابية جديدة تنعقد قبل نهاية عام ١٩٥٤. ولقد شكل إسقاط الشيشكلي نجاحا باهرا للديموقراطية. كما شكل انتصارا تاريخيا لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي قاد وحده تقريبا النضال الشعبي ضد النظام على مستوى الجامعة والمدارس، وفي كل المدن السورية وخاصة في دمشق. وأتت الحركة العسكرية التي قادها مصطفي حمدون تتويجا لنضال البعث، لأن مصطفى حمدون ومعظم الضباط الذين شاركوا في حركته كانوا أعضاء في الحزب الاشتراكي أو في حزب البعث قبل انتسابهم للكلية العسكرية. كما كانوا كلهم متعاطفين مع البعث العربي الاشتراكي بعد الدمج وقابلين لتوجهات قيادة الحزب وأوامرها. خاصة وإنهم قبلوا بعد نجاحهم في إسقاط الشيشكلي بأن لا يقيموا نظاما عسكريا بديلا، وإنما أعادوا الحكم إلى شرعية الديموقراطية.

خرج البعث فخورا جدا بهذه الحركة العسكرية التي جعلت منه المساهم الأكبر في إعادة الديموقراطية للبلاد والتي أعطته مصداقية لا تدحض في كونه حزبا ديموقراطيا بعد أن كان متهما من قبل الكثيرين بأنه يتعجل الوصول إلى السلطة بكل الوسائل، وبعد أن ارتكز هذا الاتهام إلى اندماج البعث مع الحزب العربي الاشتراكي والذي كان زعيمه ومؤسسه الأستاذ أكرم الحوراني الذي تعاون مع أول انقلاب عسكري في سوريا سنة ١٩٤٩ وشغل منصب وزير الدفاع في أول حكومة أقامها ذلك الانقلاب العسكري. وقد مثل حزب البعث العربي الأستاذ جلال السيد في البرلمان الذي أعادت إليه الحركة العسكرية شرعيته. كما كان وقتها عضوا في قيادة البعث وشخصية سياسية وطنية. ولم يقبل جلال السيد بدمج الحزبين (البعث العربي والاشتراكي) فأعتزل العمل الحزبي وظل صديقا للبعث وممثلا لأفكاره القومية، ومن أشد السياسيين السوريين حماسا للنظام الديموقراطي ورفضا للنظام العسكري. ولعل جلال السيد كان الأول في سلسلة من القادة الوطنيين وعلى درجات متفاوتة من الكفاءة الذين كانوا يصرون على أنهم يعيشوا دون أن يكونوا

حزبيين. لكنه كان هناك شعور بالمرارة عند قيادة الحزب البارزين وذلك لأن الأحزاب والشخصيات الوطنية التي شاركت في مؤتمر حمص قد اختارت أن تحكم وحدها في النظام الديموقراطي الجديد وأن تتجاهل حزب البعث ودوره الطليعي. الأمر الذي قاد إلى تعقيدات كثيرة لاحقة عانت منها البلاد كما سأوضح فيما بعد.

أما بالنسبة لي فقد كانت عودة الحياة الطبيعية للبلاد محطة واضحة على طريق رحلة العمر. لقد عدت لأستقر في السويداء بعد سنتين من السجن والتشرد والانتقال المفاجئ من مدينة إلى مدينة للقيام بمهمات حزبية متقطعة. ولكن بقي وضعي المادي على حاله. فلا دخل منتظم، ولا عمل ولا دراسة. لأنني لم أتمكن بعد طردي من مدارس سوريا سنة ١٩٥٢ أن أنتسب إلى أية مدرسة. وكنت منشغلا أكثر الوقت بالمهمات الحزبية. فاقتصرت قراءاتي بالضرورة على ما أمكن أن أشتريه من كتب أو ما يصلني من نشرات سياسية. وقد صممت أن أعود إلى الدراسة فورا. ومع أن أخي جادالله كان يعيش كذلك في السويداء في غرفة مع بعض زملائه، إلا أنني رأيت أنه لا يحق لي أن أثقل على زوجة أبي التي كانت تتدبر أمر معيشة أخي. فقرر ت ألا أسكن مع أخي، وإنما لبيت دعوة صديق لي هو طارق أبو الحسن لأعيش معه ومع والدته في الغرفة التي كان يستأجرها. وكان وضعه المادي جيدا نسبيا لأن والده كان مغتربا في أمريكا الجنوبية. وكان يملك أرضا في قرية عرمان تدر عليه دخلا معقولا.

لقد أقنعنا سقوط الشيشكلي بقدرة شعبنا على العطاء وتمسكه بالنظام الديموقراطي. وكما أن المساهمة الرائدة التي أسهم فيها البعث بإسقاط النظام جعلت منا نحن البعثيين قوة سياسية تشبع حاجات الشباب الطبيعية لآمال كبيرة، وشعورهم بالانتماء، ووجود معنى وهدف للحياة لديهم يسموان على رتابة النشاط اليومي وعلى المشاكل الناتجة عن الفقر والعيش في حالة التخلف الموروثة. وقد سمح الجو الديموقراطي الجديد بإنعاش كل التطلعات السياسية عند أهل الجبل. فعادت النزعات العشائرية والعائلية تطل برأسها وتهدد بإعادة المشاكل المرتبطة بالنزاعات العائلية القديمة إلى الظهور. وانتشرت في سنة ١٩٥٥ دعوة دينية قادها رجل دين مشعوذ من لبنان عرفت باسم دعوة ٦ آب لأنها ادعت بأن يوم الحساب والدينونة سيقع حتما في ٦ آب ١٩٥٥. وقد حرّكت هذه الدعوة النشاط الديني الذي كان يتعارض تماما مع دعوة البعث للحداثة والعقلانية والانخراط السياسي في صفوف النضال الوطني والقومي. وقد تصدى الحزب في الجبل لهذه

الحركة وأدانها وبيّن سخفها وتدجيلها. وعانى في هذا التصدي من رجال الدين وتهويشهم وتحريضهم الرأي العام ضده. إلا أن مرور يوم ٦ آب دون أن تقوم القيامة أعطى للحزب دفعا جديدا ومكانة واحتراما كبيرا. لأنه ربما كان الجهة الوحيدة التي تجرأت أن تعارض علنا تلك الدعوة الدينية. وأن تتصدى لها وتحاربها بسلاح العقلانية والعلمانية ومن غير أن تلجأ لاستخدام الدين لأغراض سياسية. ولقد تضافرت العوامل الثلاثة: الانتصار على الشيشكلي، والوقوف ضد حركة ٦ آب، والمجاهرة بمحاربة العائلية، لتجعل من البعث في السويداء قوة سياسية صاعدة ينتشر نفوذها كل يوم ويصل تدريجيا إلى كل قرى الجبل.

ففي الانتخابات النيابية التي تمت في خريف ١٩٥٤ فاز الحزب بالمقاعد الأربعة المخصصة لمحافظة السويداء. ولكن فوزه لم يكن ليعكس بصدق قوته النسبية سنة ١٩٥٤، وإنما أتى اختيار المرشحين من عائلات متنفذة مع وقوف كل أعضاء الحزب ومؤيديه صفا واحدا لدعم المرشحين الحزبيين بالرغم من تحدر الأعضاء والمؤيدين من كل العائلات تقريبا. أتى هذا الاختيار ثم الفوز الانتخابي ليضع أمام أهل الجبل أنموذجا في العمل السياسي جديدا عليهم كل الجدة. إذ أنها كانت المرة الأولى في تاريخهم الحافل التي يستطيع فيها حزب سياسي ينشأ خارج الجبل أن يشكل له نفوذا سياسيا حقيقيا يتجاوز الانقسامات العائلية المعروفة في الجبل، ومع أن عصبة العمل القومي في الأربعينيات كان لها أنصار من المثقفين القلائل. وكذلك كان هنالك بعض الأنصار للحزب السوري القومي والحزب الشيوعي وحتى لجماعة الإخوان المسلمين. إلا أن أيا من هذه الأحزاب لم يتمكن أن يبنى له أتباعا ونفوذا بشكل يقترب ولو من بعيد جدا من نفوذ البعث. فمن المعروف أن الغالبية الساحقة من أهل الجبل تنتمي دينيا لمذهب إسلامي باطني، هو المذهب الدرزي. وهي بهذا الاعتبار أقلية طائفية على صعيد سوريا، ولكنها أكثرية واضحة في حدود الجبل. ولعل المشاركة النضالية التاريخية لأهل الجبل في صنع تاريخنا الحديث، سواء بالثورات المتعددة ضد الحكم العثماني أو بالتضحيات الهائلة في ثورة ١٩٢٥ ضد الاستعمار الفرنسي. ولعل هذه المشاركة التي أتت واقعيا بحجم أكبر كثيرا من حصتهم العددية بالنسبة لسكان سوريا تعكس رغبة أصيلة عندهم في أن يحسبوا من الاكثرية لا من الأقليات. وربما أتت استجابة البعث استجابة طبيعية لهذه الرغبة. إذ أن تأييدهم للبعث الذي يؤكد الانتماء القومي العربي يقترب بأهل الجبل من الأصل القومي ويجنبهم الانغماس في نزاع ديني، خاصة وإنهم قد عانوا كثيرا من هذا النزاع في الفترات السابقة. كما إن دعوة البعث للعدل الاجتماعي لقيت قلوبا مفتوحة في الجبل. إذ أنها

كانت المنطقة الوحيدة في سورية التي خاضت نضالا حقيقيا ضد النظام الاقطاعي الذي كان سائدا أيام العثمانيين، والذي حقق انتصارا فعليا بحركة العامية في ثمانينيات القرن الماضي. وأصبحت الأرض في الجبل مملوكة ملكية شخصية من قبل الفلاحين والذين كانوا يشكلون تقريبا كل أهل الجبل بما فيهم من أقليات سنية أو مسيحية. وإذن لقد استوعبت قيادة البعث خصوصية الجبل وإمكاناته. فقدمت مرشحين من أعضائها ممن لهم حظ كبير بالنجاح، حتى لو لم يكونوا يحتلون مراتب عليا في البنية الهرمية لتنظيم الحزب. وقد أتى نجاح المرشحين الأربعة ليضع الأساس الشعبي لتقدم الحزب وازدياد نفوذه فيما بعد. وبالنسبة لي فقد انخرطت بهذا العمل الحزبي بكل طاقاتي، مما جعل قيادة الحزب في السويداء التي تعرف وضعي المادي تطلب مني أن أعتبر نفسي متفرغا للعمل الحزبي، أي أن العمل السياسي أصبح مهنة لي. ولم أتردد بتلبية هذا الطلب. وكان مردوده المعنوي علي أهم بكثير بأن يقاس بالثلاثين ليرة التي كانت تُدفع لي شهريا. ومع أنني لم أعد إلى مقاعد الدراسة في المدرسة الثانوية، فقد تعمقت صلاتي بالحزبيين من الطلاب والذين أصبحوا على صعيد التنظيم الحزبي أكبر شعبة في فرع الجبل.

في أول انتخابات داخلية جرت، انتخبت أمينا لهذه الشعبة الطلابية. وكان كل البارزين حزبيا بين الطلاب أصدقائي. وقد ظلوا كذلك طوال رحلة العمر كلها. وكان أبرزهم الشهيد نايف الشريطي، وطارق أبوحسن، وصالح السغبيني، وغالب عامر، وموسى بشارة، وسعيد النعمة، وعبد الكريم عزي، وفواز عزي، وتوفيق عبيد، وحسين علم الدين. وربما عشرات غيرهم (وقد اقتصرت على ذكر بعض الأسماء من الذين أصبحوا فيما بعد معروفين على نطاق الحزب في كل سورية). هذا وقد أصدرت وزارة المعارف السورية (التربية فيما بعد) قرارا سمحت بموجبه للطلاب الذين نالوا شهادة الكفاءة سنة ١٩٥٢ أن يتقدموا لامتحان الشهادة الثانوية لمرة واحدة في خريف ١٩٥٤ إذا كانت هذه الدفعة من الطلاب هي أول دفعة تخضع لتغيير مدد المراحل الدراسية التي غيرها عهد الشيشكلي. وبهذا أصبحت المدة الفاصلة بين الكفاءة والبكالوريا ٣سنوات بعد أن كانت سنتين. وقد تقدمت فعلا لذلك الامتحان ونجحت بالحصول على شهادة البكالوريا في خريف ١٩٥٤. مما جعلني أتقدم سنة دراسية كاملة على زملائي الذين ظلوا على مقاعد الدراسة ولم يتعرضوا مثلي للطرد والسجن والاضطهاد. وقد أكسبني ذلك النجاح مزيدا من الثقة بالنفس، وإن لم يمكنني من الالتحاق بالجامعة ذلك العام. إلا أنني وظُفت معلما في المدرسة الإعدادية الخاصة التي كانت قد بدأت عملها في السويداء ذلك العام. وهكذا فقد أصبح عندي دخل معقول. ولم يكن التعليم يأخذ

من وقتي إلا أقله. وتمكنت بالتالي من الانصراف بكل طاقاتي للنشاط الحزبي طوال العامين اللاحقين. وفي مطلع السنة الدراسية الثانية ١٩٥٥ـ١٩٥٦ انتسبت للجامعة بعد أن قُبلت في كلية التربية وكان هذا الاختبار مناسبا جدا بالنسبة لي. وذلك لأن كلية التربية سابقا تدفع راتبا شهريا لطلابها طوال دراستهم الجامعية على أن يعملوا مدرسين في المدارس الثانوية بعد التخرج ولمدة تبلغ ثلاثة أضعاف المدة التي يمضوها في الدراسة بالجامعة. ومع اختياري للغة العربية كاختصاص دراسي، لم أجد ضرورة ملحة لنقل سكني إلى دمشق، وإنما بقيت في السويداء أعلم في المدرسة الخاصة، وأذهب لدمشق كثيرا بمهمات حزبية. وفي الوقت نفسه أزور الجامعة لأتعرف على البرامج المقررة واكتفي بتقديم الامتحان في وقته. وقد نجحت في السنة الأولى التي كانت سنة ١٩٥٥ـ١٩٥٦ (الثقافة العامة). إلا أنني رسبت في السنة الثانية ١٩٥٦ـ١٩٥٧ وكانت المرة الأولى في حياتي التي أفشل فيها بامتحان مدرسي. وكان لا بدّ لي من إعادة النظر في ترتيب حياتي القائمة في ذلك الوقت. وبهذا كان علي أن أنتقل إلى دمشق إذا ما أردت أن أنهي دراستي الجامعية بنجاح. وانتقلت إلى دمشق في خريف ١٩٥٧ لأركزّ على الدراسة والانتهاء منها. إلا أنني وجدت أمامي مهمة حزبية جديدة كانت أهم من كل ما قمت به حتى ذلك التاريخ. حيث انتخبت فور انتقالي لدمشق أمينا لشعبة حزب البعث في الجامعة السورية، والتي كانت من أهم التنظيمات الحزبية فعالية على صعيد كل سورية.

عودة إلى الوضع السياسي بين 1954- 1956

كما ذكرت سابقا بأن البعث الذي أسهم أكثر من سواه في النضال لإسقاط الشيشكلي، وكان النضال الأهم في العودة إلى الحياة الديموقراطية. غير أن قيادة الحزب قد شعرت بالمرارة والغضب عندما استبعدت من الحكومة التي تألفت بعد إسقاط الشيشكلي، والتي هيأت البلاد للانتخابات النيابية في أواخر سنة ١٩٥٤. كما وشعرت قيادة الحزب أيضا، بالرغم من استبعادها عن الحكم، بأن الحزب لا بد وأن يكون الحامي الأمين والمسؤول الرئيسي عن حماية النظام الديموقراطي والعمل من خلاله على تحقيق مبادئه وسياساته. وقد فاز البعث بسبعة عشر مقعدا نيابيا من أصل ١٣٠ مقعد، هي عدد نواب المجلس النيابي آنذاك. وأصبح البعث بذلك هو الحزب المعارض الرئيسي في النظام الديموقراطي البرلماني. وتمكنت قيادته أن تبرهن على أن تأثير الحزب على الشارع السياسي وفي أوساط الرأي العام وبين القوة السياسية والاقتصادية الفعّالة يفوق كثيرا نسبته العددية في البرلمان. وقد اتضح نفوذ الحزب خاصة في قطاعين هامين، الجيش والطلاب.

فالجيش الذي لم يكن بعيدا عن السياسة والذي سبق له أن تدخل في شؤون الحكم بشكل مباشر أو غير مباشر، شعر ضباطه أنهم أصحاب هذا النظام الديموقراطي والأمناء عليه. وبالتالي، من وجهة نظرهم، لا بد وأن يستجيب لطموحاتهم وأن يكون حساسا للمشاعر التي تعتمل في صدورهم. فغالبية الضباط تتحدر من طبقات شعبية، والتربية العسكرية تركّز على الوطنية وعلى تعميق الطابع العربي للجيش باعتبار أن دوره التاريخي سيكون متجها لاستعادة فلسطين. وبالتالي، فالتوجه العربي بالنسبة للجيش يشكل مبرر وجوده وحماية له في وجه التفوق الاسرائيلي التقني والتأييد الدولي الذي تحظى به إسرائيل.

ورغم الدور الوطني القديم الذي اضطلع به رجال الحركة الوطنية التي حكمت بعد سقوط الشيشكلي، وبالرغم من مساهمتهم النسبية في النضال ضد الديكتاتورية العسكرية، إلا أن حزبيهما الرئيسيين الشعب والوطني كانا لا يزالان امتدادا للنظام الديموقراطي الذي أعقب الاستقلال والذي لم يستطع أن يتقدم بالبلاد على طريق الحداثة أو في رد العدوان الصهيوني المباشر. فتعاطف رجالات هذين الحزبين مع الغرب الاستعماري كان تعاطفا تاريخيا، وكان عميق الجذور في نفوسهم ثقافيا. وقد حاول كثيرون منهم أن يتقدموا بآراء يأملون منها أن تهزّ هذا الغرب الاستعماري وأن تجعله يعيد النظر في سياساته المقررة اتجاه منطقتنا، ولكن دون جدوى. لعل التذكير ببعض الأمثلة التاريخية المعروفة توضح هذا المأزق التاريخي في علاقة الغرب الاستعماري بنا، وعلاقة الحزبين الديموقراطيين الرئيسيين به. فانتخابات ١٩٥٤ أبرزت الشعبية الكاسحة التي كان يتمتع بها خالد العظم الزعيم الدمشقي وممثل الرأسمال الوطني. وقد طوّر خالد العظم سياساته المالية والنقدية حتى لقبته الصحافة السورية والعربية بالمليونير الأحمر دون أن يؤدي ذلك إلى أي تبدّل ملموس في علاقاتنا التجارية بالغرب الرأسمالي أو أن يعطي شيئا من الندّية والعدالة لهذه العلاقات. وكان رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب والذي فاز بأكبر عدد من المقاعد النيابية وشكل بالتالي معظم الحكومات التي أعقبت الشيشكلي. كان الكيخيا أكثر الزعماء السوريين تمسكا بالنظام الديموقراطي واصرارا على ابتعاد الجيش عن السياسة. وقد التزم طيلة حياته الحافلة بهذا المبدأ. فرفض التعاون مع أي حكم عسكري أو شبه عسكري مهما كانت الظروف. ولكن حماس الكيخيا للنظام الديموقراطي وتمسكه به لم يحجب عنه رؤية الحقيقة التي آلمته كثيرا. حقيقة أن الغرب الديموقراطي هو الذي شجّع الانقلابات العسكرية وأيدها على أمل أن تتمكن من فرض القبول بالكيان الاسرائيلي على سورية، وعلى الأمة العربية. بالتالي، وربما

كانت خيبة أمله بالغرب الديموقراطي هي التي جعلته يتجه نحو العراق، ويسعى لوحدة البلدين لتكون نتيجة الوحدة بينهما قيام بلد كبير وغني من حيث الحجم البشري والاقتصادي. والذي يؤهله لفرض احترامه على الغرب الذي لا يعرف إلا لغة المصلحة المادية المحسوسة. وسورية التي تحررت من الشيشكلي وعادت إلى النظام الديموقراطي كانت كيانا سياسيا قلقا تتجاوز طموحاته أية امكانات عند أحزابه منفردة أو مجتمعة. فسورية بمثقفيها وسياسيها وكل فعّالياتها لم تقبل أبدا عملية الغدر التاريخية التي نفذها الحلفاء دون وازع من ضمير أو شرف أو أخلاق ضد الملك الحسين الأول والثورة العربية الكبرى. خاصة وإن سورية قد تعرضت لنوع من التقسيم غير المنطقي وغير المستند إلى أية خلفية بشرية أو اقتصادية أو تاريخية. فالكيان السياسي الذي ظل واحدا طوال كل العصور التاريخية المعروفة، سواء كان مستقلا بذاته أو جزءا من إمبراطورية، قد أقام على أرضه الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى أربع كيانات سياسية فرضوها بقوة السلاح. وأعطوا واحدا منها للمنظمة الصهيونية العالمية دون أن يقيموا أي وزن على الإطلاق لمعارضة سورية والعرب والمسلمين لهذا الكيان المبني على الظلم والاغتصاب. وقد اتجهت آمال سورية بعد الحرب العالمية الأولى نحو الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها قوة دولية ذات ماض نظيف من الاستعمار والتي كان لها مطالب في تلك الحرب تطلعت إلى تحقيقها البشرية كلها وهي مبادئ الرئيس الأمريكي ويذرو ويلسون. ولكن أمريكا هذه كانت الأولى بين الدول الغربية والشرقية التي اعترفت بإسرائيل وأيدت فرضها على المنطقة. والتي اتضح للشعب العربي في سورية وغيرها ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية أن علاقاتها بالعرب ستكون دائما ثانوية لها وتابعة لعلاقاتها الخاصة والمميزة بإسرائيل.

كانت سورية التي أعقبت الشيشكلي إذن بلدا يتجه طبيعيا نحو الوحدة العربية التي فيها وحدها قد يصبح لاستقلاله معنى حقيقيا. وسورية التي كانت نسبة التعليم فيها ترتفع باستمرار، كانت تتجه كذلك نحو الوحدة باعتبارها الإطار السياسي والاقتصادي الوحيد الذي قد يكون قادرا على تلبية المطالب الاجتماعية المتنامية بتحقيق قدر من الرخاء الاقتصادي، وشيئا من العدالة تضمن حياة كريمة معقولة. والنظام الديموقراطي الذي أعقب الشيشكلي لم يستطع بأحزابه الحاكمة وتعاطفهم الطبيعي مع الغرب وشعورهم بخيبة الامل من هذا الغرب بالذات أن يؤمن للبلاد سياسة اقتصادية تلبي مطالب الأكثرية بالرفاه والعدل الاجتماعي، أو سياسة عربية تحقق خطوات ملموسة سيرا نحو الوحدة العربية. وقد تبين هذا العجز بقصر عمر الحكومات التي تألفت بين عامي

١٩٥٤-١٩٥٦. ولم يكن للحزب الشيوعي المعارض في ذلك النظام الديموقراطي أن يأمل بالتفاف شعبي حقيقي حول أهدافه رغم بروز خالد بكداش كزعيم شعبي تمكن من النجاح بأكثرية شعبية ضخمة في مدينة دمشق. إلا أن تبعية ذلك الحزب لسياسة الدولة السوفيتية تبعية مطلقة جعلت الشيوعيين يخسرون أي أمل بأن يتطوروا وينموا كحزب سياسي سوري. وكيف يمكن لحزب سياسي في سورية أن يؤيد علنا قيام إسرائيل ثم يطمح في أن ينمو؟ وحتى عندما كان الحزب الشيوعي يدافع عن موقفه من القضية الفلسطينية، كان يكتفي بتأييد مقولة ستالين من اعتباره اسرائيل حجرا سيحرك الركود الآمن للشرق الأوسط. وكأن الشيوعيين يعيشون في ضواحي موسكو وسهول سيبيريا، وليس لهم معرفة أو علاقة بالوسط العربي والإسلامي الذي يخاطبونه في سورية. إن عجز الحكومات التي تألفت بعد الشيشكلي وعجز المعارضة الشيوعية والدور الخاص الذي اضطلع به الجيش ونمو الوزن السياسي للحركة الطلابية وخاصة في دمشق وغيرها من المدن السورية، جعل من حزب البعث العربي الاشتراكي قائدا للمعارضة. وكان قائدا مؤثرا وفعالا بنسبة تفوق كثيرا عدد الأصوات التي يتمتع بها في البرلمان المصدر الدستوري لبقاء الحكومة واستمرار سلطتها. وأخذت تبرز على الصعيد الدولي والعربي منذ أوائل الخمسينات عوامل جديدة ساعدت على إبراز دور البعث في سورية وقيادتها نحو مشروع وحدوي جديد وعظيم. وقد قللت وفاة ستالين في سنة ١٩٥٣ إلى حد ما الخوف من الاتحاد السوفيتي. وأخذ الفكر السياسي العربي يتطلع إلى تحالف مع موسكو من أجل الضغط على الحلفاء الغربيين والاستعداد للوقوف بوجههم مع تأمين حماية دولية يقدمها السوفييت. وكان البعث في طليعة من بشر بهذه الإستراتيجية الجديدة. وميّز في كل كُتابه ومفكريه بين الشيوعيين المحليين كخصوم للفكرة القومية ومتساهلين في أهم المسائل القومية المطروحة (مسألة فلسطين) والإتحاد السوفيتي الذي هو قوة عسكرية وسياسية واقتصادية قد تشكل ندا للغرب. وهذا ما قد يجعل مصالحه تقتضي تقيّيم علاقاته مع الدول العربية على أساس احترام السيادة والاستقلال، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية. إلا أن البعث توقع أن تستجيب دولة الإتحاد السوفيتي لإقامة علاقات إستراتيجية لها مع المنطقة العربية بالرغم من عداء الحكومات العربية وكل الأحزاب العربية تقريبا للشيوعية المحلية. وقد أكدت الأحداث اللاحقة مدى صدقية هذا التوقع كما سيتضح فيما بعد. أما الغرب الاستعماري فلم يكن التبشر بعدائه صعبا. فتاريخ علاقاتنا بكل من إنكلترا وفرنسا كان مؤلما ويبعث على القهر والغضب والاشمئزاز من الأسلوب المتعالي الذي تعاملت به معنا هاتان الدولتان

أيام مجدهما الامبراطوري، وفي فترة ما بين الحربين. ولم تغيّر الحرب العالمية الثانية تغييرا أساسيا من الطابع العام للصلف الفرنسي والتدجيل البريطاني.

كان يمكن الولايات المتحدة أن تجد إعجابا بها وبماضيها الخالي من الاستعمار، وبمشروعها الديموقراطي وكل المُثل التي تنادي بها. وكان يمكن أن يتطور هذا الإعجاب العاطفي ليصبح سياسة تقبلها غالبية الشعب عندما تدعو لها الحكومات القائمة. ولكن سيطرت التوجه الصهيوني والإعلام الصهيوني والمصالح الإسرائيلية على عقلية صانعي السياسة الأمريكية ضيعت تلك الفرحة، وأدخلت المنطقة كلها في حالة تحد لأمريكا. وعداء لها قائم حتى اليوم وبعد خمسين عاما على نهاية الحرب العالمية الثانية أعمق مما كان عليه عندما كانت الدولة الأولى التي تعترف بالكيان الاسرائيلي في فلسطين. وربما كانت العلاقات الخاصة التي بنتها بريطانيا مع الولايات المتحدة والتي تعمقت خاصة قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها وبعدها قد أثرت على عقلية صانعي السياسة الأمريكية وجعلتهم يرون المنطقة على الغالب بعيون إنكليزية. وكانت أمريكا ومنذ أيام هيري ترومان قد بنت سياسة خارجية عالمية استهدفت تطويق الاتحاد السوفيتي واحتوائه. وأعطت لتلك السياسة شيئا من الطابع الديني والحماس الصليبي. فأهملت كل اعتبار محلي تقريبا في تعاملها مع الأمة العربية، وجعلت موقفها من كل حكومة أو حزب سياسي أو شخصية وطنية مرتبطا مباشرة بموقف الطرف المعني من الإتحاد السوفيتي. ولذلك لم تتفهم أمريكا، ولم تحاول أن تتفهم، توجه بعض الحكومات العربية لإقامة علاقات لها مع الاتحاد السوفيتي. ولم تفهم، ولم تحاول أن تفهم، شكوك العرب والمسلمين بها وازدرائها، ورؤيتهم لها على أنها مجرد تكرار غبيّ للسياسة الغربية الاستعمارية في المنطقة. ومن الواضح بأن أمريكا لا تزال تتمسك بهذه السياسة الغبية رغم إفلاسها في منطقتنا. ورغم زوال الإتحاد السوفيتي من الوجود.

كان أبرز حدث على الصعيد العربي في أوائل الخمسينيات هو قيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢. ولم يلفت قيامها الأنظار مباشرة. ولعل تجربة سورية مع الانقلابات العسكرية المتكررة هي التي تفسّر السلبية الأولية التي شعرت بها الأحزاب السورية بما فيها حزب البعث اتجاه الثورة المصرية. ولم تكن مصر الملكية قد تصدت لتلعب دورا قوميا عربيا، أو حتى لتؤكد انتماء مصر للأمة العربية. كانت الحكومة المصرية قد انضمت إلى الجامعة العربية منذ تأسيسها سنة ١٩٤٧.

إلا أن انضمامها كان استجابة لسياسة إنكلترا التي كان لها النفوذ الحاسم في مصر. كما وأن الحكومة المصرية ساهمت في الحرب العربية- الاسرائيلية سنة ١٩٤٨. لكن نتائج تلك الحرب لم تُسبغ شيئا من الاحترام على أي من الحكومات العربية المساهمة بها نظرا لنتائجها المعروفة. وقد هزّ حريق القاهرة في مطلع ١٩٥٢ ضمير الشعب في سورية عامة. فحزن الناس وتألموا، ولكن ذلك الحزن لم يتحول إلى سياسة متعاطفة مع مصر، وما كان له أن يدفع إلى سياسة ما. وذلك لأن الانطباع العام السائد حينذاك عن مصر بأنها بلد معني بمشاكله الخاصة أولا وأخيرا. وبالرغم من انتشار الكتاب المصري والفن المصري في كل الوطن العربي وخاصة في سورية، فلم تكن السياسة المصرية تسعى ليكون لها نفوذ وأنصار بين العرب. وكان همها أن تقلّد أوربا في نظامها الديموقراطي. كما أن الطبقة المثقفة المصرية كانت تتطلع بشكل عام إلى أوربا والغرب كمثال لها تحتذي به. ولم تكن مسألة الوحدة مع مصر مطروحة، لا على الصعيد الرسمي ولا على الصعيد الشعبي. حتى ولا على صعيد المثقفين في سورية. وربما كانت مسألة الوحدة تبدو للطبقة السياسية والطبقة المثقفة في سورية هدفا سيتكفل به المستقبل. ولم تكن مصر على أي حال هي البلد المرشح لقيام وحدة أو اتحاد معه، بل كان الجوار أولى بذلك. ومن هنا أخذت دعوة حزب البعث لاتحاد سوري عراقي أهمية سياسية خاصة. وأحدثت انقساما سياسيا حقيقيا بين الأحزاب السورية، وأحيانا داخل هذه الاحزاب نفسها. وذلك لأن النظام القائم في العراق كان نظاما ملكيا وتابعا بشكل ما لإنكلترا. وكان معارضو الإتحاد مع العراق يتمسكون بحرصهم على النظام الديموقراطي القائم في سورية. وربما كان أكثر بلد عربي شبيها بسورية في ذلك الوقت هو لبنان. ولكن الوحدة مع لبنان لم تكن واردة لاعتبارات محلية ودولية معروفة. جعلت من علاقات سورية بلبنان علاقات خاصة وحميمة لدرجة أُستبعد معها تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين. فهما فعلا بلدان شقيقان افترقا بأمر من الأجنبي أيام الانتداب الفرنسي عليهما. ولكنهما قبلا بهذه الفرقة وجعلاها فرقة ودية إلى أقصى الحدود. حتى أن اقتصادهما ظل واحد وعملتهما النقدية ظلت واحدة إلى سنة ١٩٥٣.

وإذا تذكرنا حقيقة أن الثورة المصرية قامت أواسط سنة ١٩٥٢ عندما كانت سورية لاتزال خاضعة لحكم الشيشكلي. وإن العلاقات بين النظام المصري الجديد ونظام الشيشكلي كانت علاقات ودية، فإننا ندرك البرودة التي نظرت فيها سورية الديموقراطية منذ ١٩٥٤ إلى الثورة المصرية باعتبارها نظاما غير ديموقراطي. وأنا اذكر شخصيا مظاهرات اشتركت فيها في السويداء وفي

دمشق نظمها الحزب انتصارا للإخوان المسلمين في مصر الذين تعرضوا سنة ١٩٥٤ لحملة من الاعتقالات، ولحملة إعلامية صاخبة أعقبت محاولة عدد من أعضائهم اغتيال جمال عبد الناصر في ٢٦ تموز ١٩٥٤. وكان أول ما لفت النظر إلى أن شيئا جديدا يجري في مصر هو موقف عبد الناصر وحكومته من مشروع أيزنهاور.

مشروع أيزنهاور

لما قررت إنكلترا الانسحاب من كل آسيا والاكتفاء بقناة السويس كأقصى قاعدة عسكرية لها، أعلن الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور عن مشروعه لملء الفراغ العسكري والسياسي الذي أحدثه انسحاب إنكلترا من شرق قناة السويس. ودعا مشروعه الحكومات العربية للدخول في ترتيبات أمنية مع الولايات المتحدة تستهدف إحكام الطوق حول الاتحاد السوفيتي، والدفاع عن المصالح الغربية في حال تعرض الشرق الأوسط لعدوان سوفيتي. وعرضت أمريكا مساعدات عسكرية واقتصادية على الدول التي تقبل بمشروع أيزنهاور. وقام وزير خارجية أمريكا يومئذ جون فوستر دلاس بحملة نشطة لإنجاح مشروع رئيسه. إلا أن سورية رفضت مشروع أيزنهاور. لكن رفضها لم يأخذ البعد السياسي العربي المطلوب إلا عندما أعلن عبد الناصر رفضه للمشروع وبأسلوب بارع وجذاب. جعل الجماهير العربية وعلى امتداد الوطن العربي كله تتطلع إلى عبد الناصر وكأنه كان المفاجأة التاريخية التي كانت تنتظرها الأمة العربية منذ قرون طويلة. فها هو رئيس مصر، أكبر البلدان العربية والتي تقع جغرافيا في قلب الوطن العربي والتي تربط بين أفريقيا العربية وآسيا العربية والتي لا يختلف العرب على دورها القيادي في الثقافة والفن كما يتفق العرب والمسلمون على مكانه الأزهر الدينية ماضيا وحاضرا ومصر التي كانت مغيّبة عن ساحة الوعي العربي السياسي، يبرز فيها رئيس شاب يخاطب الجماهير العربية بلغتها. فيهز مشاعرها ويحيي في قلوبها الآمال العظيمة. كما يعيد لذاكرتها التاريخية أمجاد الماضي عندما كان العرب قوة تسهم في صنع الحضارة، وقبل أن تتحول بلادهم لتكون حصة الغالب بين القوى الدولية المتصارعة عليهم. ولم يضيّع عبد الناصر كلمات كثيرة في المجادلات أو المناظرات أو اللباقة الدبلوماسية، وإنما ركز على موضوع الفراغ الذي يتحدث عنه أيزنهاور على أنه فراغ في رأسه فقط. وأن الأمة العربية هي المسؤولة عن أوطانها وعن الدفاع عنها. وإن زمن النفوذ الأجنبي قد رحل إلى غير رجعة. وإنه من الأفضل لأيزنهاور أن يتعلم من رحيل إنكلترا عن المنطقة ومن الإرث الذي تركته وراءها، والذي كان كراهية لها ولاستعمارها واحتقارا لسياساتها الانتهازية

والغير الأخلاقية. ثم أخذت مباحثات عبد الناصر مع الحكومة الإنكليزية لاستعادة قناة السويس طابع المحادثات العلنية التي تجري تحت سمع الشعوب وأبصارها. فعبد الناصر مصرّ على طرد الإنكليز وتحرير مصر، وليس هناك مجال لأنصاف الحلول: الإنكليز يجب أن يرحلوا. ومع انتهاء المحادثات المصرية الإنكليزية إلى توقيع اتفاق يقضي باستعادة مصر لقناة السويس ومع رفض عبد الناصر العلني لمشروع أيزنهاور، أخذت أسهم مصر وعبد الناصر ترتفع في الشارع العربي.

مرحلة 1954 - 1956

كان الحزب يعتمد بشكل خاص على الطلاب لاحتلال الشارع السياسي والإسهام بفرض سياسة وطنية ديمقراطية على الحكومات التي تعاقبت بين ١٩٥٤-١٩٥٦. وقد لعب نفوذ الحزب في الجيش وتأمينه حماية نشاطات القطاع الطلابي والقطعات الشعبية الأخرى وحرية الصحافة دورا كبيرا في ترسيخ دور الحزب وتعزيز قدرته على إحداث آثار سياسية واضحة تفوق بما لا تقاس بقوته النسبية في البرلمان. وقد ارتفع صوت سورية عاليا في هاتين السنتين بتأييد نضال كل قطر عربي يسعى للاستقلال، وكل حركة شعبية تناضل من أجل التقدم. ويمكن القول دون مبالغة أن سورية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي قد استطاعت أن تُعرّبْ النضال المحلي لكل قطر عربي، وأن تعطيه بُعدهُ القومي المطلوب. وقد حاولت إحدى الحكومات السورية في هذه الفترة أن تتعاقد مع فرنسا لبيعها كمية من القمح تذهب لإطعام الجيش الفرنسي في الجزائر. فقامت المظاهرات الضخمة في دمشق وباقي المدن السورية وقد دخل طلاب الجامعة عنوة إلى مكتب وزير الاقتصاد آنذاك وطردوه من مبنى الوزارة. وفي نفس اليوم سقطت كل الحكومة حتى قبل أن يجتمع مجلس النواب ليسحب منها الثقة. وقد رسخ هذا الحادث حقيقة الطابع الجديد المتنامي للسياسة السورية بأنها إما أن تكون سياسة قومية عربية أو لا تكون.

وكنت شخصيا منخرط في هذا النشاط الحزبي الشعبي سواء في السويداء أو في دمشق. وأصبحت معروفا إلى حد ما من قيادة الحزب ومن قيادات الصف الثاني فيه. بحيث أنني لما انتقلت إلى دمشق في مطلع السنة الدراسية الجامعية ٥٧-٥٨، انتخبت أمينا لشعبة الجامعة. والتي كانت بحق أنشط تنظيم حزبي على مستوى سورية، وكانت تلعب الدور الأول في تحريك الشارع السياسي. ولم يكن البعث وحده ناشطا في الجامعة، بل كان الشيوعيون والإخوان المسلمين ناشطون كذلك. وكان التنظيم الحزبي الجامعي لكل منهما يلعب أيضا دورا بارزا في النشاط الشعبي لهما. وبالرغم

من التوازن التقريبي في الأعداد لمنتسبي هذه التنظيمات الحزبية الثلاثة، فقد تمكنا نحن البعثيين أن نسيطر على النشاط الطلابي الجامعي إلى حد بعيد. وأن نضع الشيوعيين والإخوان المسلمين في موضع يضطر فيه كل منهما أن يتحالف معنا ضد الآخر حسب المناسبات المختلفة. ففي أول تجربة قيادية لي على صعيد وطني (إذ كانت الجامعة مؤسسة وطنية بالفعل لأنها كانت الجامعة الوحيدة في البلاد آنذاك)، تمكنت من تحقيق نجاح كبير بتحويل كل طاقات الأعضاء إلى النشاط الشعبي والنشاط التبشيري في التنظيمات الحزبية المختلفة في دمشق وضواحيها. وقد شرحت لقيادة الحزب مشكلة الانقسامات الداخلية التي عانى منها التنظيم الجامعي كثيرا. والتي سببها أن الطلاب ميالون للمناظرات والنقاشات النظرية، وإن السبيل المفتوح أمامنا لتعميق وعيهم السياسي هو أن يشاركوا التنظيمات غير الطلابية في مشاكلها وفي التفتيش عن حلول لهذه المشاكل. وإن مثل هذه المشاركة تجعلهم يحتكون بالواقع الذي يعيشه الناس احتكاكا مباشرا. وقد وافقت القيادة على تحليلي، وتمكنت مع رفاقي القياديين في الجامعة أن نشغل كامل وقت أعضاء حزبنا بمهمات عملية وتثقيفية. وأن نخرجهم من الإطار الطلابي الضيق ليعملوا ضمن إطارات أوسع ذات تكوين مختلف. وقد نجحت هذه الخطة أيما نجاح فانتهت إلى غير رجعة الخلافات الداخلية التي كانت الطابع الأبرز للتنظيم الحزبي في الجامعة على مدى السنوات الثلاثة الماضية. وانصرف الحزبيون للنشاط المثمر. وازداد الاقبال على الحزب، وتوسعنا كثيرا من حيث العدد والفعالية. حتى أن شعبة الجامعة أصبحت بحق أهم تنظيم حزبي في كل البلاد. ولم يدم هذا الوضع طويلا. إذ أن قيام الوحدة في شباط ١٩٥٨قد استدعى حل الحزب رسميا كما سيتضح فيما يلي:

قلت إن الحزب بعد الشيشكلي تمكن من أن يلعب دورا بارزا في السياسة السورية أكبر بما لا يقاس من قوته النسبية في البرلمان. فعارض الحكومات التي تشكلت بين ١٩٥٤-١٩٥٦. وضغط عليها شعبيا وإعلاميا لتنهج سياسة قومية متحررة. ولابد من الإشارة إلى أن التاريخ الحديث لسورية والدور الذي لعبته الثورة العربية الكبرى قبل الحرب العالمية الأولى والنضال الشاق الطويل الذي خاضته ضد الانتداب الفرنسي حتى الاستقلال ١٩٤٦ قد جعل من سورية بلدا متهيئا ليقوم بالدور القومي العربي الذي اضطلع به. وأتى نشاط حزب البعث مستجيبا لدواعي التاريخ والمصلحة أكثر بكثير من معارضيه البورجوازيين الذين كانت أوربا الغربية قُبلتهم، أو الشيوعيين الذين كانت قُبلتهم موسكو. وبتعبير آخر فإن نجاح البعث في احتلاله موقعا قياديا في السياسة العربية في الخمسينيات من مواقع المعارضة ثم من مواقع المشاركة بالحكم، لم يكن نتيجة لبراعة تكتيكية يمكن أن تعزى إلى قائد معين أو مفكر معين. ولكن هذا النجاح كان يرجع بالدرجة الأولى

إلى أن عقيدة البعث الوحدوية التي كانت تعبيرا عن تطلع الاكثرية الساحقة في شعبنا في سورية، وعن تطلع الطبقة المثقفة بشكل خاص. كما كانت عقيدة البعث استمرارا لرغبة شعبية واضحة في الحداثة والاستقلال والوحدة العربية. ويمكن القول إن سورية لم تقتنع مطلقا بالترتيبات التي فرضها الحلفاء المنتصرون بعد الحرب العالمية الأولى ولا بالاستقلال الذي توصلت إليه بعد الحرب العالمية الثانية. وظلت الرغبة عميقة وملحة في قلوب معظم أبنائها لتحقيق الحكم الوحدوي الذي دفعها لتناضل ضد الامبراطورية العثمانية بالرغم من ارتباطها بالإسلام أو ارتباط الاسلام سياسيا بها. ومع أن كثيرين من أبناء سورية وسياسيها كانوا يتطلعون إلى وحدة مع قطر قريب كالعراق أو استعادة لكيان سورية التاريخي بإعادة الاردن وفلسطين ولبنان إلى سورية. إلا أن هذه الأكثرية السورية استجابت بسرعة خاطفة للنداءات التي بدأت تنطلق من مصر. والتفت الجماهير السورية وبشكل يكاد يكون عفويا وحكيما حول زعامة جمال عبد الناصر الشابة الذي تمثلت فيه كل قيم الصمود والتحدي لإنكلترا الكريهة إلى القلوب ولكل السياسة الاستعمارية التي كانت تمثلها.

لقد استجابت سورية الشعبية استجابة طبيعية صادقة وخالصة إلى النداءات الوحدوية التي أخذت تصدر من مصر، وخاصة بعد تأميم قناة السويس ١٩٥٦. حيث هبت الجماهير لتدافع عن مصر وثورتها ضد العدوان الثلاثي. وخلال كل المناورات التي أعقبته، والتي انتهت برحيل النفوذ الإنكليزي والفرنسي عن الشرق الأوسط إلى غير رجعة وتخلي اسرائيل عما كسبته في العدوان الثلاثي. ومع أن أمريكا بقيادة أيزنهاور لعبت دورا إيجابيا حاسما في إفشال العدوان الثلاثي، إلا أنها فشلت في تحويل هذه الإيجابية إلى قبول شعبي عربي بها. ذلك لأنه كان واضحا بأنها كانت تريد إخراج إنكلترا وفرنسا من الشرق الاوسط لتحل هي محلها كقوة إمبريالية. وأنه لم يكن واردا في ذهنية قادتها أن يعترفوا للمنطقة بحقها في الاستقلال وتقرير المصير والحياة الحرة الكريمة. ولم ينس أحد الطريقة المُهنية التي سحبت فيها أمريكا عرضها لتمويل السد العالي. والتي كانت السبب المباشر في تأميم قناة السويس، وفي حصول العدوان الثلاثي ذاته فيما بعد. كما أن دورها الإمبريالي في الانقلابات المتعاقبة على سورية كان لا يزال حيا في ذاكرة الناس. وكذلك كان معروفا تأييدها للسلطات الفرنسية في الشمال الإفريقي، وللسلطات الانكليزية في عدن، ورعايتها لحلف بغداد، وتمسكها بسياسة احتوائها للسوفييت، وبالتالي اتهامها لحركة القومية العربية بأنها حركة شيوعية رغم أن ذلك كان أمرا غير معقول وغير قابل للتصديق بالنسبة للشعب في سورية.

1956- 1957، الفترة التي سبقت قيام الوحدة بين مصر وسورية

بعد تأميم قناة السويس واندحار العدوان الثلاثي والانتصار السياسي الباهر الذي حققته مصر بزعامة جمال عبد الناصر، أخذ نجم عبد الناصر يتألق في السماء العربية، وفي العالم الاسلامي، وفي البلدان الساعية للاستقلال، وأيضا في البلدان حديثة الاستقلال. وأخذ عبد الناصر يلعب دورا إيجابيا واضحا في حركة عدم الانحياز. وبدا حجمه السياسي لا يقل إطلاقا عن حجم نهرو زعيم الهند أو تيتو زعيم يوغوسلافيا. ولما كان لمصر وحدها أن تنتج زعامة على ذلك المستوى العالمي لولا انها كانت مركز الدوائر العربية والاسلامية والأفروآسيوية التي كتب عنها جمال عبد الناصر في (فلسفة الثورة). وقد كان عبد الناصر بارعا إلى أقصى الحدود في استثمار الإمكانات البشرية الهائلة التي يقدمها المثقفون المصريون لإدارة الاعلام المصري، الواعي والذكي في معرفة تسليط الأضواء على زعامة عبد الناصر، وإبراز تفوقه التكتيكي الهائل على أنه نجاح استراتيجي وتاريخي متواصل. ولعل صفقة السلاح مع تشيكوسلوفاكيا في سنة ١٩٥٦ توضح القصد هنا. لقد كانت سوريا - بتأثير حزب البعث-هي البلد الأول في العالم غير الشيوعي الذي اتجه إلى شراء السلاح من الإتحاد السوفيتي بعد أن رفض الحلفاء الغربيون (أمريكا وإنكلترا وفرنسا) بيعنا السلاح بحجة المحافظة على التوازن العسكري بين اسرائيل من جهة وبين كل الدول العربية مجتمعة من الجهة الثانية. إلا أن عملية شراء سورية للسلاح من الكتلة الاشتراكية تمت بهدوء. ولم تثر اهتمام الرأي العام العربي أو العالمي. ولكن لما قررت مصر-عبد الناصر شراء السلاح من الكتلة الاشتراكية، رتّبت عملية إخراج إعلامي لها جعل منها بحق نقلة تاريخية حافلة بالمعاني وموحية باتجاهات مستقبلية وآمال عريضة للأمة العربية، ولكل شعوب البلدان حديثة الاستقلال. فقد طلبت مصر توسط شوان لاي رئيس وزراء الصين ليعرف سرا من الإتحاد السوفيتي ما إذا كان هذا الأخير مستعدا لتسليح مصر بكل ما يحمله ذلك من تحد مباشر للغرب الإمبريالي في بقعة جغرافية تعتبر مركز نفوذه. ولما أتى الجواب إيجابيا جرى الإعلان عنه بخطاب مباشر من عبد الناصر توجه فيه إلى شعب مصر والجماهير العربية، وكل الشعوب حديثة الاستقلال. فبرز كرائد يشق طريقا جديدا للاستقلال والحفاظ عليه، وكفارس شجاع مقدام لا ترهبه ادعاءات الغرب وتبجحاته، وكرد تاريخي حان وقته على كل ظلم الغرب وإهاناته لشعوب العالم وازدرائه بمطالب الشعوب العادلة في التحرر والاستقلال وحق تقرير المصير. لقد أتت صفقة السلاح التشيكية كرد حاسم ونهائي على احتكار الغرب للسلاح والتحكم ببيعه للأمة العربية. وعلى صعيد الشعب العربي أتت هذه الصفقة كدليل جديد (بعد تأميم قناة السويس ودحر العدوان الثلاثي) على أن عبد

الناصر هو البطل الذي ظلت الأمة العربية تنتظره منذ صلاح الدين الأيوبي على الأقل. فهو القائد لبلد عريق في إسلامه وعروبته، وفي دوره التاريخي والحضاري السابق لمدنيات روما وأثينا اللتين يستقي منهما الغرب ادعاءاته الامبراطورية ورسالته الحضارية. وهو قائد عربي مسلم شاب يتحدث لغة الناس البسطاء دون تكبّر أو زخرفة. وهو يجسد بحق صورة البطل الذي سخّر كل وجوده لإحقاق الحق ودحر الباطل. وفي سورية، التي اكتشفت في نفس الفترة التاريخية التي بدأ فيها صعود عبد الناصر، أن مستقبلها وكرامتها ووطنيها وكل قيمها الحضارية والثقافية إنما ترتبط بالسياسات التي يبشّر بها حزب البعث العربي الاشتراكي والمنطلقة أساسا من مبادئ الحرية والوحدة والاشتراكية. ولم يطل الوقت حتى تحوّل حزب البعث من موقفه السلبي اتجاه الثورة المصرية والمنتقدة لصيغة الحكم العسكري المعادي للديموقراطية إلى موقف إيجابي أخذ يقترب شيئا فشيئا من الثورة المصرية، ومن زعامة جمال عبد الناصر. خاصة لأن حزب البعث اعتبر بأن فلسفته تشكل الرد الصحيح على هيمنة الغرب الإمبريالية ومحاولاته الحثيثة لتغيير عقائد العرب السياسية وتحويلهم إلى مجرد أتباع طيّعين لإمبراطورية الغرب بكل مبادئها الفكرية والثقافية والاقتصادية. كما وآمن حزب البعث بأن فلسفته هي الطريق الصحيح لتحديث الأوضاع السياسية والاجتماعية في الوطن العربي. وبناء مجتمع حديث يتعامل مع العالم الحديث والتقنيات الفنية دون أن يفقد أصالته الحضارية وبنيانه الثقافي والأخلاقي الذي قامت عليه الحضارة العربية والاسلامية، والتي آمن البعث بأنها هي الطريق لتحرير العالم من نفوذ الغرب الامبريالي ومما يمارسه من تهديد حقيقي لوجود الشعوب والثقافات المختلفة عن طريق سلب أخلاقها وتعميم المادية الجشعة والفردية والمغرقة بنرجسيتها كأساس لمستقبل العالم كله. ولم يكن قادة البعث ومفكروه مغرقين في المثالية، بل كانوا يعرفون أن أهداف البعث تاريخية وأن الطريق إلى تحقيقها وعر وشاق وطويل وأنها ربما تحتاج إلى أجيال عديدة لوضعها قيد التطبيق. ولكن السنتين اللتين مرتا على سقوط الشيشكلي قد أثبتت أن سورية تتحول إلى قبول سياسات الحزب تدريجيا، وأن الحزب يقترب من وضع يمارس فيه تأثيره السياسي من خلال الحكم، وليس من خلال الشارع فحسب. ومع تأميم قناة السويس ودحر العدوان الثلاثي وما أحدثه ذلك من فوران قومي في سورية، تغيرت موازين القوى دون أن تجري انتخابات جديدة. فبقي نفس المجلس النيابي الذي انتخب سنة ١٩٥٤، والذي كان للبعث فيه ١٧ نائبا من أصل ١٤٠، وانتخب سنة ١٩٥٦ الاستاذ أكرم الحوراني رئيسا له. وتألفت حكومة التجمع القومي، والتي كان فيها الاستاذ صلاح البيطار وزيرا للخارجية. وبرزت سورية على الصعيد القومي العربي على أنها منبع الشعور القومي. وأنها

باقترابها من مصر عبد الناصر إنما تعطى لزعامة عبد الناصر المصداقية العربية. إن التأييد الشعبي الكاسح في سورية لعبد الناصر قد جعل منه بحق بطل القومية العربية المنتظر والزعيم الذي تؤيده جماهير الشعب العربي في كل أقطاره. ومع ازدياد حرارة تأييد البعث لعبد الناصر، أخذت تختفي تدريجيا الانتقادات التي كان البعث يؤججها لنظامه. وربما كان هذا التطور طبيعيا إذا ما أخذنا الظروف السائدة آنذاك بالاعتبار. وذلك لأن شعبية عبد الناصر كانت تتصاعد كل يوم مع انتصارات جديدة، أو ما استطاعت أجهزة الإعلام المصرية، وخاصة إذاعة صوت العرب، على تصويره بأنه انتصارات. واقتربت الحكومة السورية والمصرية اقترابا شديدا من بعضهما البعض. وأصبح وصولها إلى صيغة جديدة من التقارب مختلفة نوعيا عن التعاون العادي بين الحكومات العربية أمرا واقعا لامحالة. وكان واضحا وضوح الشمس بأن سورية خلال سنتي ١٩٥٦- ١٩٥٧ تعيش حالة فريدة من الأمل والثقة بالنفس. وبدا شعب سورية بكل طبقاته الاجتماعية، وعلى مختلف اتجاهاته السياسية، يشارك في الحياة السياسية مشاركة يومية دائبة يحسّها الإنسان في المقاهي وفي الشوارع وفي المدارس والجامعة، وفي دوائر الدولة. وحتى في البيوت الخاصة كان شعب سورية قد نزل الى الشارع وصمم على اجتراح المعجزة. ولم تكن المعجزة المطلوب اجتراحها إلا الوحدة الناجزة بين سورية ومصر. لقد تسلل الحكم الوحدوي من ضمائر الشعراء وعقول المفكرين إلى ساحة الواقع المادي المحسوس لأن الشعب، وكل الشعب تقريبا، قد رأى إشراقة الحلم أمام عينيه وآمن أنه قادر على تحقيق الحلم الوحدوي الذي لم يكن يخص جيلنا وحده، وإنما كان الفاتحة لتاريخ جديد ماجد وعزيز تستطيع معه أمتنا أن تستعيد دورها الحضاري والإنساني. وطوال هاتين السنتين كان الواحد منا يحس أنه يقترب كل يوم من وضع جديد مُغرٍ ومثير. لأنها ستكون المرة الأولى في تاريخنا الحديث الذي نمارس فيه إرادتنا المستقلة، ونتصرف كما نريد لا كما تريد لندن أو باريس أو حتى موسكو وواشنطن. لقد كان الأمل الوحدوي يطغى على كل اعتبار آخر ويشكل الحقيقة العميقة التي أصبحت هي المحرك الفعلي للسياسة السورية الرسمية والشعبية.

لم يطرح جمال عبد الناصر شعار الوحدة بين سورية ومصر. كما أن حزب البعث العربي الاشتراكي لم يطرحه كهدف سياسي واجب التحقيق وينطبق الشيء نفسه على كل الأحزاب السورية التي كانت قائمة حينذاك. ومع هذا فإن الجميع، عبد الناصر والبعث وكل شعب سورية وبكل أحزابها تقريبا، كانوا يقتربون من الوحدة يوما بعد يوم، ومن غير تخطيط مسبق. لأن إرادة

الشعب في سورية كانت من الوضوح والقوة والعنفوان بحيث أنها تمكنت من نقل الوحدة من مجال الحلم القومي المنتظر إلى مجال الهدف السياسي الواجب التحقيق. وأصبح لا بدّ للبعث أن يصوغ لهذه الحالة الشعبية الجديدة، والتي كان له فضل لا ينكر في خلقها وترسيخها، سياسة واقعية تستلزم الأدوات الكفيلة بتحقيقها. وهكذا تشكلت حكومة التجمع في أواخر سنة ١٩٥٦على برنامج سياسي تقدمي، ولكن باتجاه أقصى التعاون مع مصر عبد الناصر بهدف إغراء مصر وعبد الناصر بالسير قدما في السياسة القومية العربية. ذلك لأن مصر ومنذ عشرينات القرن الماضي كانت قد انصرفت إلى تعميق نظامها الدستوري، وإلى استقلالها الكامل عن إنكلترا. واتجهت الطبقة المثقفة فيها إلى التحديث الثقافي والاقتصادي والاجتماعي الذي يعتبر الغرب نموذجه المفضل. حتى كان يبدو أن مصر غير معنية كليا بنفوذها العربي الهائل في الثقافة والفن والأدب، وأن ما يهمها هو أن تعترف بها أوربا الغربية كبلد متمدن. وأترك تحليل هذه الظاهرة للمتخصصين لإقرار مدى حقيقتها التي كانت معروفة لكل المثقفين العرب، وكانت مقبولة على الصعيد الشعبي السوري. وربما كان ذلك التعلق العاطفي المثير والعميق بشخص عبد الناصر يعبر عن أمل الشعبي السوري بأن عبد الناصر سيجلب مصر وبكل حجمها وتأثيرها ونفوذها إلى العروبة. وبحيث تنتقل العروبة بمصر إلى حقيقة سياسية، وتنتقل مصر بالعروبة إلى البلد المركز، الذي سيجد ضمن أمته فقط مجاله ليحيا ويبدع ويستأنف اسهامه الحضاري التاريخي.

وعلى الصعيد الشخصي فقد مرت علي سنتا ١٩٥٦- ١٩٥٧ وكإني أعيش شخصيا حلم الأمة الكبير. كنت أنشط دون كلل مع أعضاء الحزب في السويداء لتوسيع القاعدة الحزبية وتدريب أعضائها على الانضباط والعمل الجماعي، وتثقيفهم سياسيا بما يتلاءم مع الدور القيادي الذي كان البعث يتصدى له. ورغم أن سني كان صغيرا جدا فقد أصبحت خلال هاتين السنتين واحدا من البعثيين البارزين على صعيد المحافظة كلها. وعندما أجرى الحزب انتخابات داخلية في صيف ١٩٥٦ فزت بالانتخابات كأمين سر شعبة الطلاب والتي كانت أكبر الشعب في المحافظة، والقوة الابرز على صعيد العمل السياسي اليومي ودورها الفريد في المظاهرات التي كان الحزب يقوم بها في كل مناسبة وطنية أو قومية. وعندما رأيت بأنه لا بد من بذل بعض المجهود لأنهي دراستي الجامعية في وقتها، قررت الانتقال للسكن في دمشق قرب الجامعة. والتركيز على دراستي الجامعية في السنة الدراسية ١٩٥٧-١٩٥٨. كان لا بد لي أن أشترك كذلك في حياة الحزب ونشاطه في دمشق. وتم اختياري من قبل القيادة أمين سر شعبة الجامعة في مطلع تلك السنة

الدراسية رغم أنني لم أكن قد داومت بانتظام في السنتين السابقتين. وكان هذا دليلا على أن الحظ يبتسم لي، وأن قراري باحتراف العمل السياسي كان برأيي قرارا صائبا. وتماما كما كان الحال في السويداء، فقد تهيأ لي في دمشق ظرف مؤات إلى أبعد الحدود. فلقد كان معي في الجامعة مجموعة الاصدقاء الذين نشأنا معا في المدرسة الاعدادية بالسويداء، والتي التقى أعضاؤها من جديد في الجامعة بعد أن أصبح لكل منهم أصدقاء شخصيون جدد من مختلف المحافظات السورية. هذه المجموعة التي التفت حولي في دمشق سنة ١٩٥٧ بقيت معي، أو بقيت معها (أو بالأحرى من لا يزال حيا منها) إلى غاية اليوم. كانت علاقتنا بحق صداقة العمر لأننا كنا مرتبطين بهدف أكبر منا جميعا. هو هدف الأمة كلها ولأننا كنا نضع خدمة هذه الأمة معيارا لصداقتنا وارتباطنا العميق ببعض. وحتى عندما كنا نختلف في الرأي، وكثيرا ما اختلفنا، وعندما كنا ننتهج طرقا مختلفة تنظيميا، كان ارتباطنا الروحي عميقا بحيث ظل أقوى من كل الاختلافات الفكرية والمنهجية. وكان أبرز الأصدقاء تلك السنة الحاسمة في تاريخ سورية نايف الشريطي الذي استشهد سنة ١٩٨٣إغتيالا في دمشق، ونسيم السفرجلاني الذي اختطفه السرطان منا في أمريكا بعد أن كان منفيا عن سورية منذ ١٩٦٦، وطارق أبو الحسن الذي أصبح فيما بعد قائدا في حزب العمال الثوري بسورية، وعادل نعيسة الذي أمضى في سجن المزة أكثر من ربع قرن منذ سنة ١٩٧٠، وكثيرون غيرهم من الذين تقلبت بهم ظروف الزمن وآلمتهم مصائر الأمة وسردتهم في كل بقاع الدنيا. ولكنهم ظلوا رغم كل صنوف الإرهاب والإغراء أمينين على تلك الروح الفذة المتوثبة. التي كانت تطبع جيلنا في سورية أو في معظم الأقطار العربية، جيل خمسينيات القرن الماضي.

في دمشق سكنت مع أحد الاصدقاء في غرفة متواضعة قرب السبع بحرات. وداومت بانتظام تقريبا على المحاضرات الجامعية. كما وعقدت عدة صداقات مع عدد من الأساتذة الجامعيين استمرت كذلك بقية العمر. وكان منهم الأكاديمي المنصرف إلى العلم مثل الأستاذ محمد سعيد الأفغاني، والدكتور عمر فروخ. كما كان منهم البعثي المثقف مثل الدكتور حافظ الجمالي، والدكتور جمال أتاسي (هذه مجرد أمثلة لأن عدد الأصدقاء كان كثيرا). ولم تكن ساعات اليوم كلها كافية لإنجاز الأعمال المطلوبة مني ومن شلة الأصدقاء الذين احتلوا معي مراكز قيادية في العمل الحزبي التنظيمي، وفي العمل الطلابي الشعبي، بالإضافة إلى الدراسة والمطالعة التي لابد منها. كنا نحس فعلا أننا نشارك شعبنا كله في هذا العمل الجبار القادم علينا. كنا نتوقع الوحدة بنوع من اللهفة تتضاءل أمامها عواطف العشق، وكانت حرارة دم الشباب تدفق في عروقنا. كنا

نتصرف على أننا- مع كل أبناء جيلنا- نحمل مسؤولية هذا العمل الجبار والقادم علينا. ولم يكن البعثيون وأصدقاؤهم هم وحدهم الذين يغمرهم شعور الترقب والتحفز والمسؤولية هذه، بل كان كل الشعب عمليا تحركه نفس المشاعر. ولكم تغير وجه سورية في السنة الحاسمة ١٩٥٦. فبعد أن كان البعث وما يمثله من توجه قومي عربي قوة بسيطة يسهل خداعها والتلاعب عليها كما حدث في أعقاب سقوط الشيشكلي. فإن البعث منذ سنة ١٩٥٦ وخاصة بعد فشل مؤامرة الانقضاض اليميني على الحكم بالتعاون مع عبد الإله الوصي على العرش العراقي، وبعد نجاح الحزب السوري القومي في اغتيال العقيد عدنان المالكي، وردة الفعل الشعبية الكاسحة على التآمر وعلى الاغتيال، فأن البعث منذ تلك السنة قد أصبح هو القوة السياسية المحركة للأحداث والتي تقود كل الأحزاب ب السورية بالاتجاه الذي فرضته إرادة الشعب فرضا أقرب ما يكون إلى العفوية. وتمكنت قيادة البعث بحسها التاريخي وحدسها السياسي أن تحول هذه الإرادة الشعبية شبه العفوية إلى طاقة سياسية جبارة تماشت معها كل الأحزاب الوطنية، مع استثناء واحد هو الحزب الشيوعي السوري. إن كل الأحزاب الوطنية القائمة حينذاك- والتي كان أبرزها حزب الشعب والحزب الوطني والاخوان المسلمين، لم تكن معادية لمبدأ الوحدة العربية. صحيح أنها لم تكن ناشطة من أجل الوحدة ولم نكن نظن قبولها في هذا مثل حزب البعث قبل ١٩٥٦ بأن الوحدة كحدث واقعي يمكن أن يقع في مستقبل قريب منظور، إلا أنها كانت دائما تضع الوحدة في جملة شعاراتها وإن كانت لا تقترب من حزب البعث في جعل الهدف الوحدوي يطبع كل أهدافها الأخرى وسياساتها اليومية والآنية. لذلك ومنذ ١٩٥٦ ولما بدأ شعار الوحدة يتحول شيئا فشيئا من حلم جميل بعيد الاحتمالي إلى أمل ممكن بتغيير الحياة السياسية العربية كلها، لم تجد الأحزاب السورية الوطنية صعوبة كبيرة في تبني مطلب الوحدة ومسايرة التيار الشعبي الجارف المتعاظم أثره شيئا فشيئا على الحياة السياسية اليومية. وربما كان لدى بعض القادة في هذه الأحزاب تخوف من سرعة المسار للمد الشعبي الجارف، وللصعود الحاد في وتيرته وفي توسع قاعدة العمل السياسي وفي تعميق الطابع الشعبي للسياسة. وهي كلها اعتبارات لا بد أن يتوقف عندها ويهتم بها الساسة التقليديون الذين نشأوا في أجواء كانت السياسة فيها دائما حرفة الأقلية الغنية والمثقفة. لكن هذه المخاوف إن وجدت لم تظهر على سطح الحياة السياسية. والذي ظهر للعيان أن كل الاحزاب الوطنية تسير جنبا إلى جنب في مقدمة التيار الشعبي الزاخر والمتجه باتجاه الوحدة بين مصر وسورية.

1957-1958، قرار حل الحزب وقيام الوحدة -

لم يكن صعبا على أي مراقب سياسي للأحداث في تلك الفترة أن يحس بوجود تحالف قائم أو في طريقه ليقوم بين البعث في سورية وعبد الناصر في مصر. فالسياسات التي تبنتها مصر-عبد الناصر في الانخراط العملي في نضال البلدان العربية التي كانت لا تزال خاضعة للاستعمار أو الانتداب أو الحماية، ومعاداة الاستعمار الغربي بشكل واضح وجليّ وخال من اللبس والغمغمة، ورفع شعار الحياد الايجابي وعدم الانحياز فيما يخص الموقف من الكتلتين الدوليتين المتنافستين، والمناداة برفع الظلم والاستغلال، وتحقيق قدر من الإنصاف والعدالة سواء بين الدول أو داخل المجتمعات الانسانية المدنية، وخاصة مجتمعنا العربي. واعتبار كل هذه السياسات شروطا طبيعية ومنطقية لا بد منها لكي يقوى عود الأمة العربية ويشتد، ولكي تصبح قادرة على مواجهة الصهيونية. هذا التحدي الهائل لكل حاضرنا ومستقبلنا ولوجودنا ذاته. حيث لم يكن هنالك خلاف لا في السر أو العلن بين أفراد الطبقات السياسية والطبقات المثقفة العربية على إن إقامة إسرائيل كانت اغتصابا وقحا وفجا لأرضنا في فلسطين ولحقوقنا القومية. وكانت إهانة لنا كعرب في صميم عقيدتينا القومية والدينية. وحتى لو افترضنا أنه قد وجد في تلك الفترة، فترة الخمسينيات من القرن الماضي، من يعتقد بأن الصلح مع اسرائيل أمر محتمل فلم يكن أحد مستعدا لأن يجعل همه التبشير بمثل هذا الاحتمال، أو الدعاية له. كان اليمين العربي بشكل عام يسعى لإقناع الكتل الشعبية العربية بأنه يصادق الغرب من أجل تحرير فلسطين. ذلك لأن الغرب، كما كان يعتقد اليمين السياسي، سيسعى يوما إلى إتباع مصالحة وسيعرف أنه قد أوقع بالأمة العربية ظلما فادحا يتناقض مع مثل الغرب في الحرية والمساواة وحق تقرير المصير الخ.... وأن صداقة اليمين للغرب إنما الغرض منها أن تسهم في توعية الغرب للمساعدة على تحرير أرضنا من الصهاينة. ولا يجوز لنا أن نستهين اليوم بمثل هذه المقولات بكونها فعلا جزء من تاريخنا الحديث. وقد قامت عليها كل الحكومات العربية التي ساهمت في حرب فلسطين الأولى وانهزمت عسكريا. والتي كانت تناضل لتبقى سياسيا من أجل جولة ثانية ذات طابع سياسي قبل أن تكون ذات طابع عسكري، معتقدة هذه الحكومات ومن يمثلوها في الحقل الثقافي والاقتصادي والاجتماعي بأن إسرائيل ما هي إلا جسم غريب مصطنع يكفي أن تتخلى عنه القوى الغربية ليسقط وينهار من تلقاء ذاته. وكان اليسار العربي بالمقابل يرى أن مستقبل العرب كشعوب مرتبط بمستقبل الإتحاد السوفيتي، وأن الأقطار العربية مثلها مثل كل البلدان حديثة الاستقلال يجب أن تنظم للمعسكر الاشتراكي وتسلّم بزعامة موسكو المستندة إلى العقيدة الماركسية اللينينية. وإن هذا الطريق هو

الطريق الأوحد المفتوح امامنا لنتمدن ونتحضر وندخل العصر الحديث. ومع إن مَدَّ اليسار العربي كان يعتقد بأن ظلما طاغيا قد وقع على أهل فلسطين، إلا انه كان يحمّل المسؤولية للحكومات العربية صديقة الغرب التي لم تقبل بإسرائيل الاشتراكية التي أيّد الاتحاد السوفيتي وجودها ودعم استقلالها. ولا شك بأن اليسار العربي الشيوعي بموقفه العنيد الواضح في صف موسكو وتأييدها لاستقلال إسرائيل قد خسر أي تأييد شعبي كان له. وتوقف عن أن يكون له أي أثر سياسي. وتحولت الحركة الشيوعية منذ ١٩٤٨ إلى مجرد حلقات مثقفين ليس لها أي أمل بأن تصبح قوة سياسية في أي بقعة من الوطن العربي.

وكان البعث في سورية هو حامل شعارات التحرر والتقدم ومحاربة الاستعمار دون هوادة وانتهاج سياسة الحياد بين المعسكرين. إلا أن صوت البعث لم يكن يصل إلى الطبقة المثقفة العربية القريبة جغرافيا من سورية. وذلك بسب الضعف الإعلامي الحزبي بشكل خاص والحكومي بشكل عام، خاصة إذا ما قورن بالإعلام المصري الناشط والمؤثر. ومع هذا، بدا وكأن عبد الناصر ينطق بلسان البعث في سورية. فكل موقف ناصري له أساس في كتابات البعث. وكل فكرة جديدة يطرحها عبد الناصر كانت تبدو للشعب في سورية على أنها فكرة بعثية. كان هناك إذن تحالف حقيقي بين البعث وعبد الناصر. والواقع إن هذا التحالف أصبح قائما بالفعل قبل أن يجري له تحضير سياسي ومحادثات مستفيضة وترسيم وتخطيط كما يجري عادة في إقامة التحالفات السياسية. وبدا لي على الصعيد الشخصي أنني إنما انتقلت إلى دمشق في لحظة تاريخية نادرة وأنني سأشهد حدثا فذا تنتظره أمتنا منذ مئات السنين. وأنني سأكون أكثر من مجرد شاهد على هذا الحدث، سأكون أداة سياسية في تحقيقه. وقبل أن ينتهي صيف ١٩٥٧، كان الحزب قد رفع شعار الاتحاد الناجز مع عبد الناصر، وكانت الأحزاب السورية تؤيد هذا التوجه أمام الضغط الشعبي المتعاظم. وحتى جماعة الاخوان المسلمين، التي كانت مؤتلفة في تنظيم عالمي مع جماعة الاخوان المسليون في مصر التي تواجه حملة سياسية وقمعية قاسية من قبل نظام عبد الناصر، سايرت التوجه الوحدوي. ولم يبق على موقف الرفض للوحدة وللتوجه القومي سوى الحزب الشيوعي السوري. وكانت أسباب موقفه غير مقنعة حتى لأعضائه. لذلك فقد أخذ يدافع بحرارة عن النظام الديموقراطي في سورية. ويعتبر أن الديموقراطية تواجه تهديدا حقيقيا من قبل احتمال الانجراف وراء دكتاتورية عبد الناصر.

لم يكن النشاط السياسي في مصر طليقا كما هو في سورية. واقتصرت معرفة السوريين بردود مصر على التوجه السوري للوحدة على الموقف الرسمي الذي يصل إلى سورية عن طريق أجهزة الإعلام المصرية الناشطة والذكية، والتي كانت تعرف كيف تخاطب الناس. إذ كان عبد الناصر قد أمم الصحافة المصرية. ومع بقاء التعدد في الصحف اليومية، إلا أنها أصبحت ملزمة بأن تدافع عن السياسة الحكومية. ولعبت إذاعة صوت العرب، التي كانت تنظيما إعلاميا جديدا قام بالأساس ليدافع عن توجه مصر نحو العروبة، دورا هائلا في دفع الفكرة القومية من نطاق الحلم إلى نطاق السياسة العملية على صعيد كل البلدان العربية. حيث أنها كانت اكثر الإذاعات العربية انتشارا وشعبية على صعيد المستمعين العرب. ومع كل هذا الزخم الوحدوي المتصاعد في سورية ومع أن الحزب قد رفع منذ صيف ١٩٥٧ شعار الإتحاد مع مصر، إلا أن قضية تحقيق الوحدة ظلّت أشبه بالحلم الذي يصعب تصديقه. وربما كانت اللحظة الفاصلة في فرض الوحدة على قادة الوحدة، أي على كل من عبد الناصر والبعث وكل الأحزاب السورية، هي تلك البادرة التي قام بها زعماء التجمعات العسكرية في الجيش السوري الذين قفزوا فوق الارتباط الإداري والمهني وذهبوا مجتمعين إلى القاهرة وطلبوا من عبد الناصر بصفتهم ممثلي الجيش السوري أن يقبل إقامة دولة الوحدة، وأن يكون هو زعيمهم. إن مبادرة كهذه تشكل بحد ذاتها نوعا من الانقلاب العسكري. ولكنه الانقلاب الأول في التاريخ الذي يعمل ليصل قائد غريب إلى الحكم من خارج مجموعة الانقلابيين. ولفهم هذه المبادرة لا بد من وضعها في السياق العام للتطورات التي تمت على الصعيد الشعبي. والتي نقلت شعار الوحدة أو الإتحاد من مجرد شعار عقائدي إلى هدف سياسي بمتناول اليد. وقد أدرك عبد الناصر معنى هذه المبادرة، كما أدركتها كل الأحزاب السورية. وتم على أثرها – وبناء على طلب عبد الناصر – بداية المفاوضات السياسية بين الحكومتين المصرية والسورية لإقامة الوحدة السياسية الرسمية بين البلدين. لقد كان محتملا من الناحية النظرية أن يأتي النظام الوحدوي ممثلا لصيغة جديدة في الحكم تكوّن حلا وسطا بين الديموقراطية الكاملة في سورية والتي تكاد تتجاوز الديموقراطية التمثيلية لتكون ديموقراطية شعبية مباشرة وبين النظام الفردي المطلق الذي يعطي للرئيس كل السلطات التنفيذية والتشريعية، والذي يجعل من الهيئات التمثيلية مجرد هياكل فاقدة للروح والتأثير. ولقد كان ممكنا من الناحية النظرية أن تتمخض المفاوضات عن صيغة جديدة للحكم وفلسفته، ولكن الذي حدث فعلا هو أن الجانب السوري قبل أن تقوم الوحدة طبقا للشكل الذي أراده عبد الناصر. والذي كان عمليا القبول بنظام الحكم الفردي القائم في مصر دون أي تغيير في محتواه. وكان الشرط الذي وضعه عبد الناصر هو أن تحل

الأحزاب السورية نفسها. وأن يقوم في سورية تنظيم سياسي شعبي واحد هو الإتحاد القومي والذي سيكون مفتوحا لكل الأفراد بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبية السابقة، باستثناء الحزب الشيوعي الذي رفض أن يحل نفسه. فقد سارعت الأحزاب السورية إلى حل نفسها والإعلان عن ذلك رسميا. ولم يواجه أي منها إشكالات داخلية في صفوفه، لأنها كانت جميعها أميّلْ لأن تكون تجمعات بين أفراد من الطبقة المثقفة السياسية أكثر منها أحزابا شعبية وجماهرية. ولهذا واجه حزب البعث إشكالا حقيقيا لأنه كان منظمة شعبية واسعة الانتشار في سورية. وثانيا، لأنه كان منظمة قومية، وكان لديه تنظيمات شعبية في عدة أقطار عربية أبرزها تنظيماته في لبنان والأردن. اجتمع الحزبيون بشكل طارئ في مكتب الحزب بالحلبوني – دمشق. وكان الحاضرون كل قيادات الفروع من المحافظات ومعظم الأعضاء والحزبيين في مدينة دمشق، وتقريبا كل طلاب الجامعة الحزبيين. فتكلم الأستاذ ميشيل عفلق باسم قيادة الحزب. وشرح للمجتمعين أن حلّ الحزب تضحية لا بد منها كي تقوم الوحدة. وبدون ذلك فإن عبد الناصر لم يكن مستعد للدخول في الوحدة. وكان الأستاذ عفلق كعادته بليغا في كلامه يخاطب العقل والوجدان معا. وأستطيع القول إن الأكثرية الساحقة من الحضور قد قبلت وجهة نظر القيادة، وخاصة فيما يتعلق بالمستقبل. لأن الأستاذ عفلق رغب على الحزبيين أن يعتبروا الحل خطوة تمهيدية لالتقاء تنظيمي جديد ضمن صفوف الإتحاد القومي، وهو المنظمة الشعبية الوحيدة التي ستقوم بعد قيام الوحدة. موضحا أن البعثيين بنشاطهم وتفانيهم لقضية الوحدة ستمكنون بطبيعة الحال من قيادة الإتحاد القومي ضمن الأهداف القومية المعروفة الوحدة والحرية والاشتراكية. وذلك لأن عبد الناصر يرفع الأهداف نفسها ويريد للاتحاد القومي كما يريد البعث تماما أن يكون هو المنظمة الشعبية التي تتبع إليها أجهزة الوحدة، وبها تحيا وتترسخ. ومع أن بعض الحزبيين ناقشوا القيادة واعترضوا على الحل من حيث الشكل أو المضمون، أو الإثنين معا. إذ أنه لم يكن هناك لا في دستور الحزب ولا في نظامه الداخلي طريقة نظامية لحل الحزب. وإنه بالإضافة إلى عدم الشرعية القانونية للحل، فإن مضمونه يبدو مخيفا. إذ أن الحزب الذي يعتبر نفسه أداة لتحقيق الوحدة عليه أن يحل نفسه فيعطل الأداة التي أقامت الوحدة ليتركها لغير المؤمنين بها. وتساءل بعضهم عن صحة المقولة التي يطرحها الأستاذ ميشيل وهي أن البعثيين سيلعبون دورا قياديا في صفوف الاتحاد القومي، وما إذا كان هذا الوعد استنتاجا منطقيا أو التزاما رسميا يقبل به عبد الناصر. وقد حاول الأستاذ ميشيل وغيره من أعضاء القيادة الرد على هذه الاعتراضات وطمأنوا الحزبيين على المستقبل مركزين على أهمية قيام الوحدة ومعناها التاريخي الذي يتضاءل أمامه كل اعتبار آخر، حتى اعتبار بقاء الحزب. لقد قبلت توجهه،

وأستطيع القول بأن الأكثرية الساحقة من الحزبيين الحاضرين قد قبلته أيضا. ولم نترك لعواطف الحسرة والأسف أن تطغى على عواطف الغبطة لقيام الوحدة والاعتزاز بأن البعث كان صانعها الحقيقي. ولكنه من الواضح بأنه كان في هذا الاجتماع تضارب وجهتي نظر: واحدة تؤكد أهمية الديموقراطية وإن قيام الاتحاد القومي يعني قيام حزب واحد الأمر الذي رفضه الحزب وناضل ضده وتمكن من إسقاطه مع اسقاط اديب الشيشكلي الذي سبق وأقام منظمة التحرير لتكون الحزب السياسي الوحيد في البلاد والذي إليه يستند النظام. والثانية لا ترى خسارة كبيرة في حل الأحزاب، خاصة وأن تجربة البعث مع الاحزاب السورية البورجوازية (الشعب والوطني خاصة) كانت تجربة مؤلمة كما تبين من خلال مواقفهم العملية بعد إسقاط أديب الشيشكلي. إذ أن هذين الحزبين اتفقا على إقصاء حزب البعث عن الحكم، مع أنه هو الذي ناضل عمليا ضد الشيشكلي وهو الذي قاد الانقلاب العسكري الذي أطاح به وأعاد الحياة الديموقراطية للبلاد. ومع هذا فلم يتعمق النقاش حول وجهتي النظر هاتين، ولا بينهما. إذ طغى على مشاعر الحاضرين إمكان قيام الوحدة. الحدث التاريخي الخطير الذي ستتضاءل أمامه أية اعتبارات نظرية. لقد شعر الحزبيون المجتمعون أنهم سيشهدون حدثا تاريخيا كبيرا بمستوى أهدافهم. وكانوا يقدّرون تماما أن كل الشعب في سورية عمليا يشاركهم هذا التطلع لقيام الوحدة. ولم يكن أي بعثي يشعر أن من حقه أن يتوقف طويلا أو يتردد أو يجازف بأي عمل من شأنه تأخير قيام الوحدة، وبالتالي يعرض فكرتها للخطر. وبكلام آخر، فإن الشوق لقيام الوحدة والإسهام فيها قد تغلب على أي مشاعر أخرى، سواء تعلقت بالمضمون أو الشكل بالناحية النظرية، أو بالاعتبارات السياسية. لقد حل البعثيون الحزب عن قناعة تامة بأنهم إنما يقدّمون تضحية لا بد منها لقيام الوحدة. وأنه سيكون لهم دور بارز في قيادتها وحمايتها، وبناء نظامها السياسي القادر على جعلها تعم الوطن العربي كله خلال عمرهم القصير كأفراد.

كان هذا الاجتماع في أواخر ١٩٥٧. وقد تقرر أن يجري استفتاء شعبي على الوحدة وعلى انتخاب عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة. وقد جرى الاستفتاء، وكانت نسبة الموافقين تزيد على ١٠٠٪ من عدد المقترعين. وذلك لأن كثيرا من الناخبين، وخاصة من الشباب والطلاب، قد اجتهدوا في أن يصوتوا أكثر من مرة وفي عدة مراكز مستخدمين أوراق ثبوتية متعددة (تذكرة الهوية – تذكرة الطالب- شهادة قيادة سيارة-الخ...) وأُعتبر يوم ٢٢شباط ١٩٥٨التاريخ الرسمي لتوحيد سورية ومصر وقيام الجمهورية العربية المتحدة. وبعد يوم أو يومين من هذا التاريخ، ودون إعلان سابق، وصل جمال عبد الناصر إلى دمشق. وكنت في حينها أنا وحسين علم الدين

متجهين إلى الجامعة، وكنا ما نزال قريبين جدا من شقتنا في السبع بحرات نتأبط كتبنا في صبيحة يوم مشمس عندما خاطبنا شخص في الشارع لم نعرفه ولا يعرفنا بطبيعة الحال قائلا: ألم تسمعا النبأ، عبد الناصر هنا في قصر الضيافة. ولم نتردد لحظة واحدة. فتركنا ما كنا نحمله على قارعة الطريق وتوجهنا مسرعين إلى قصر الضيافة. ولست أدري كيف عرف الناس بالخبر إذ أن الفسحة الملاصقة لقصر الضيافة من شارع أبو رمانة كانت قد امتلأت بالبشر. وتوقفنا حيث لم نعد نستطيع التقدم من شدة الازدحام، وأخذنا نشترك في الأهازيج والغناء والرقص مع الآلاف التي سبقتنا. وكان هناك صوت واحد ترددده آلاف الأفواه بانتظام ويصدر من أعمق الأعماق: ناصر، ناصر. وبإيقاع يدبك عليه المحتفلون ويرقصون، ويعانق بعضهم البعض. وأحسست في هذا الاستقبال القوي بأنني قد ذبت في جسد الجماعة على كبرها وأنا أردد معها ناصر، ناصر، وأدبك وأرقص وأعانق كل من استطعت دون أي إحساس بالحرج، ودون أي تفكير في الحقيقة. ولم تمر ساعة أو ساعتان حتى كان كل شارع أبو رمانة وعلى مدّ النظر من أقصاه إلى أقصاه وكل الشوارع المتقاطعة معه تمتلئ بالناس تدبك وترقص وتتعانق مرددة نفس العبارة: ناصر، ناصر. من أين أتت كل هذه الآلاف؟ وكيف انتظمت خطواتها؟ وكيف تجانست أصوتها؟ وتوحدت مشاعرها منطلقة إلى المكان الذي سيطل منه عبد الناصر. وقد خيّل لي بأن المجتمعين ليسوا كلهم سكان مدينة دمشق فحسب وإنما كل سكان سورية. ولم أر طيلة حياتي قبل ذلك اليوم أو بعده حشدا بشريا بهذه الضخامة، موحد الهدف واللسان ومنظما دون تدخل سلطة ما لحفظ النظام والانضباط. وأطل عبد الناصر. وفي خطبته الأولى هذه، أخبر عبد الناصر الجماهير المحتشدة بالمؤامرة التي أعدها الملك سعود بن عبد العزيز لاغتياله. وكيف أنه دفع شيك بمبلغ مليون دولار لعبد الحميد السرّاج حتى ينفذ هذا الاغتيال أثناء وصول عبد الناصر إلى دمشق. وعرض للجماهير صورة الشيك الذي سحبه السراج في الليلة الماضية. وقال عبد الناصر أنه علم بكل ذلك بعد وصوله إلى دمشق. واستقبلت الجماهير المحتشدة هذا الخبر بحماس هائل متقد مجددة الولاء لعبد الناصر، ومؤكدة بيعته حتى الموت وبشكل خاص حتى القضاء على الرجعية العربية ومؤامراتها التي تحركها أياد أجنبية معروفة. وقد كان لهذا الحدث الذي رافق وصول عبد الناصر إلى دمشق آثار خطيرة. لم تتضح ساعتها وإن كانت قد طبعت قيام الجمهورية العربية المتحدة، وساهمت في فشلها وانتهائها فيما بعد.

لقد بيّن هذا الحدث عدة حقائق انكشفت للجماهير العربية على امتداد الوطن العربي كله، وتلك هي أن الغرب الاستعماري والذي أصبحت أمريكا تنفرد بقيادته بعد فشل العدوان الثلاثي يعارض قيام الوحدة العربية، ولا يتردد بالتآمر الصريح عليها، وإن أمريكا هي ضد الوحدة وتسعى لاغتيال قائدها. وإلا فلا يعقل أن يقدم الملك سعود بن عبد العزيز على خطوة بهذه الضخامة دون أن توافق عليها أمريكا. فالحكام العرب الرجعيون مستعدون إذن للتآمر. وأمريكا، التي تمكنت بعد العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ أن تميز نفسها عن السياسة الاستعمارية التقليدية الإنكليزية والفرنسية بالرغم من أنها بدأت ذلك العدوان بسحب عرضها لتمويل السد العالي في مصر، قد عادت الآن لتلعب نفس الدور القذر الذي تعود العرب أن يروا إنكلترا وفرنسا يلعبانه. وشكلت مؤامرة الملك سعود خطوة جديدة، بل قفزة جديدة إلى المجهول في ميدان العلاقات العربية-العربية. فقد تأسست الجامعة العربية على أساس أن أعضاءها دول ذات سيادة، بالرغم من كل ما يجمعهم من لغة وتاريخ ومصالح. وأن الشأن الداخلي هو شأن مستقل لكل دولة، وإن التعبير السياسي لاحترام الاستقلال المتبادل بين النظم العربية هو امتناع أي دولة عضو عن التدخل في الشأن الداخلي لغيرها. وقد نسف تآمر الملك سعود هذا المبدأ، وكان بشكل عام أصدق تعبيرا عن حقيقة الأمة العربية من ميثاق الجامعة العربية. إذن الأمة العربية هي أمة واحدة، وإن تعددت فيها الدول. وأن السيادة التامة والاستقلال لا يمكن أن يتحققا واقعيا مع هذه التجزئة القائمة. كما وعبّرت مؤامرة الملك سعود عن جانب آخر من واقع الأمة العربية، هو جانب العلاقات العربية الأجنبية. فالملك سعود ومعه كل الطبقة الحاكمة العربية آنذاك، وربما الآن إلى حد بعيد، كانت تجد في أمريكا التي ورثت زعامة الاستعمار الغربي حضنها الآمن وملاذها الأخير ضد غيرها من النظم العربية، وخاصة ضد الشعب العربي وضد كل من يستطيع أن يستثير حلمه ويعيده من غفوته التاريخية التي امتدت قرونا طويلة. وكان رد الفعل العربي الشعبي مجلجلا واضحا أشد الوضوح وهو أن الهجوم هو أنجع وسيلة للدفاع. فالمطلوب من عبد الناصر، بنظر الجماهير العربية، أن يقودها لتحطيم هذه الحدود المصطنعة وإسقاط هذه النظم العربية الخائنة.

ولقد أدرك عبد الناصر بحسه السياسي المرهف أنه لا يستطيع أن يحافظ على شرعية قيادته للجمهورية العربية المتحدة إن لم يستجب لإحساس الجماهير العربية في كل مكان. أي أن يجهر بعدائه للنظم التقليدية، وأن يكون فعلا طليعة الثورة العربية المتجهة لبناء دولة عربية عصرية. ورغم أن عبد الناصر حاول أن يكبح مثل هذا الاندفاع لقلب النظم العربية التقليدية، أي كل النظم

القائمة آنذاك، ورغم التأييدات الرسمية والإعلامية على احترامه للجامعة العربية وميثاقها، إلا أن النظم العربية الحاكمة لم تغفر له إطلاقا جرأته على تحطيم الحدود التي أتى بها الاستعمار. والتي أصبحت المبرر الوحيد لوجود هذه النظم العربية المتعددة. ولم تتراخ النظم العربية أو تتقاعس عن الاستمرار في التآمر على عبد الناصر ومحاولة تدجينه ثم تحطيمه، حتى بعد أن فشلت الجمهورية العربية المتحدة وعادت سورية لتكون بلدا مستقلا من جديد. كما أن مؤامرة الملك سعود كان لها نتيجة حاسمة ومؤثرة على الصعيد الداخلي في سورية. فقد أبرزت عبد الحميد السراج كمسؤول سوري يحمل ولاءً مطلقا لعبد الناصر، ولاءً لا يمكن شراؤه بأي ثمن. وهيأت السراج بالتالي ليكون الشخص الأول في سورية الذي يثق به عبد الناصر ثقة كاملة. وقد أصبح السراج هو حاكم سوريا الفعلي باسم عبد الناصر. وصادف أن السراج مثل عبد الناصر مؤمن بمبدأ الحزب الواحد، ويشكك في جدوى تعدد الأحزاب. ويعتبر هذا التعدد أصلا للفوضى السياسية التي كانت قائمة في سورية. أي أن السراج وعبد الناصر يشتركان في تشكيكهما بالأحزاب السياسية وتعددها، وفي طريقة الحكم القائمة على دور الأجهزة الأمنية القيادية في حماية الوحدة ونظامها. ولم يكن هذا غريبا بطبيعة الحال لأن السراج كان ضابطا بارزا في الجيش ويدعم كتلة عسكرية مرموقة، وإن كانت ليست الكتلة الأقوى. ولكن مؤامرة الملك سعود أخرجت السراج من إطاره العسكري، وجعلت منه السياسي الأول في سورية بكل ما ترتب على ذلك من نتائج محزنة سنتعرف إليها فيما بعد.

عودة إلى السيرة الذاتية

إن حل الحزب بالنسبة لي وللقلة الطليعية الشابة من الحزبيين لم يكن قطعا نهاية المطاف، ولم يضع حدا لنشاطي السياسي. بل نقيض ذلك، إذ أن حل التنظيم ترك الأفراد المتعلقين بقوة بالعمل العام أحرارا ليفتشوا عن الصيغة التي تلائم كلا منهم، ليتبناها ويعبر عن نفسه من خلالها. وقد كانت سنوات النشاط الحزبي العلني بين ١٩٥٤-١٩٥٨، والتي أعقبت اندماج الحزبين البعث والعربي الاشتراكي قد تركت في نفوس أفراد الطليعة البعثية كثيرا من الحزازات والمشاكل. بعضها شخصي، وأكثرها اختلاف في وجهات النظر في تقييم الأمور وتحليلها وفهمها. وكان حل الحزب بشكل ما خلاصنا من ارتباطات تنظيمية، ومن أشخاص قد تتناقض نظرتهم لمعظم الأمور المطروحة معظم الأحيان. وقد تطلعت مثل غيري من البعثيين البارزين إلى دور إيجابي أقوم به بعد أن قامت الوحدة. وكان من الطبيعي بالنسبة لي ولأمثالي من البعثيين أن نستمر في

إبداء الرأي بأية قضية عامة. وألا نتردد في نقد ما نراه من أخطاء كبيرة كانت أم صغيرة. وكنا نرى في النفوذ المتصاعد لعبد الحميد السراج ولأجهزته الأمنية، وخاصة جهاز المباحث العامة، خطرا يهدد الوحدة. فيما كان السراج يرى أن الوحدة تحميها الأجهزة الأمنية. كان معظم البعثيين، وخاصة المنحدرين من البعث العربي، يرون في نمو الأجهزة الأمنية تهديدا للتأييد الشعبي الكاسح الذي يحظى به عبد الناصر وتتمتع به دولة الوحدة.

إعادة بناء الحزب

لقد أصبح الأستاذ أكرم الحوراني نائبا لرئيس الجمهورية، وجعل مكانه في القصر الجمهوري بالمهاجرين. وعين الأستاذ صلاح الدين البيطار وزير ثقافة مركزية في الوزارة الاتحادية في القاهرة. أما الاستاذ ميشيل عفلق فقد تفرغ للكتابة المتقطعة من حين لآخر، وركز جهوده على متابعة نشاط المنظمات الحزبية خارج حدود الجمهورية العربية المتحدة. وقد ترددت مثل غيري من الشباب البعثيين على الأساتذة الثلاثة كلما سمحت لي الفرصة بذلك. ولم يطل الوقت حتى بدأنا نعرف أن البعثيين ليسوا في الواقع شركاءً أنداداً في دولة الوحدة. وأن مناصبهم شكلية أكثر منها حقيقية. وأن نظام الوحدة يجعل من كل السلطات مركزة في شخص الرئيس عبد الناصر، وأن ما نلاحظه من تنامي الأجهزة الأمنية ودورها في مراقبة الناس ونشر جو الخوف إنما هو الخيار الذي أراده عبد الناصر وليس مجرد تعبير عن طموح عبد الحميد السراج. وكانت طبيعتي وتربيتي وتجربتي تجعلني شديد الحساسية للظلم ووافر الحماسة لاتخاذ مواقف متشددة ضده. وهكذا لم أجد في نفسي قدرة على مسايرة رموز النظام الجديدة رغم أنه نظام الوحدة. بل وجدت نفسي مع أقلية من البعثيين السابقين نندم على حل الحزب، ونسعى لإعادة التنظيم الحزبي من جديد. وهكذا فعندما بدأت عملية تنظيم الإتحاد القومي لم أنظم له، ولم أشترك في انتخاباته وأن كنت لم أتخذ مواقف صريحة ضد من شارك من البعثيين في هذه الانتخابات. وأيضا حافظت على كل علاقاتي بالبعثيين الذي أثق بهم، سواء من الذين شاركوا أو لم يشاركوا في الاتحاد القومي. وبما إنني كنت واحدا من عدد قليل جدا من البعثيين الذين لم نقبل عاطفيا بمبدأ حل الحزب، وسرعان ما أدركنا أنه لا بد لنا من عودة التنظيم ... ومع أنني نقلت سكني إلى السويداء في نهاية العام الدراسي ١٩٥٧-١٩٥٨، إلا أنه نادرا ما كان يمر أسبوع واحد دون أن أعود في نهايته إلى دمشق لألتقي مع هذا العدد القليل الذي أخذ يشكل وبالتدريج النواة البعثية الأولى التي عادت لتمارس علاقات تنظيمية فيما بينها أثناء عهد الوحدة. وفي الصيف الأول لقيام الوحدة،

صيف١٩٥٨، بدأت العلاقات بين أعضاء قيادة الحزب وعبد الناصر وأجهزته تسير من سيئ إلى أسوء. ففي أيلول من نفس العام أستقال البعثيون، أكرم الحوراني وصلاح البيطار وعبد الغني قنوت ومصطفى حمدون، من الوزارة دفعة واحدة. وأعتبر عبد الناصر أنهم استقالوا ليس من الحكومة فحسب، وإنما من الوحدة. وكانت عودة الأستاذ صلاح البيطار إلى دمشق فرصة لي ولأمثالي لنلتف حوله ونجد في شخصه القائد الجديد للتنظيم الجديد الذي كنا قد بدأنا ببنائه. ولكن الأستاذ صلاح كان رجل عقلاني عميق الثقافة وواسع الإدراك. لم يسايرنا في اندفاعنا لإعادة التنظيم، وإنما كان يرى أن نزيد من تعارفنا واطلاعنا ووعينا. وألا نقيم تنظيما جديدا إلا على أسس نؤمن بها كلنا وندركها ونقبل السياسات الناتجة عنها قبولا تاما. وبكلام آخر، فإن الأستاذ البيطار كان مع إعادة التنظيم من حيث المبدأ، وإنما كان مصرا أن يكون التنظيم الجديد جديدا فعلا بعقلانية ووعي أعضائه واستعدادهم للعمل في الظروف الشاقة التي تجابهه. وقد حرص بشكل خاص على ألا يقبل في التنظيم الجديد إلا المؤمنين بالوحدة والديموقراطية معا. وبالتالي بناء تنظيم يعارض الديكتاتورية، لكنه يدافع عن الوحدة ويحميها بدمائه إذا لزم الأمر. وهكذا كانت النواة البعثية الجديدة التي تشكلت حول الأستاذ البيطار مكونة من خالد الحكيم ومنصور الأطرش ونسيم السفرجلاني ومني كقيادة لها. وأخذنا نعيد علاقاتنا مع من نعرفهم ونثق بهم من البعثيين السابقين، وأيضا غير البعثيين. وكان الأستاذ أكرم الحوراني بدوره يتعرض لضغوط رفاقه عليه من أجل إعادة التنظيم أيضا. وهكذا أصبح في دمشق مركزان يتجمع حولهما البعثيون السابقون. ولم يطل الأمر كثيرا حتى باشر عدد من البعثيين السابقين محاولة جادة لإعادة تنظيم البعث بشكله القديم، أي على أنه اندماج من العربي الاشتراكي والبعث. وهذا يستلزم أن يتفق الزعيمان البيطار والحوراني على إعادة التنظيم. أما الأستاذ ميشيل ومنذ استقالة الوزراء البعثيين في خريف ١٩٥٨ ترك سورية. واستقر في لبنان ليتابع من هناك نشاط المنظمات البعثية القطرية بوصفه الأمين العام للقيادة القومية. كما أن جمهورا واسعا من البعثيين القدماء كانوا قد انحازوا كليا إلى عبد الناصر وقطعوا صلتهم بالقيادة التاريخية للحزب. وتشكلت منهم، أساسا فيما بعد وخاصة بعد فشل الوحدة، عدة منظمات سياسية أبرزها الإتحاد الاشتراكي بزعامة الدكتور جمال أتاسي، وحركة الوحدويين الاشتراكيين التي توسعت في عهد الانفصال، ثم تلاشت فجأة بعد ١٩٦٣. وقد أثمرت الضغوط المبذولة على الأستاذين البيطار والحوراني ليقبلا فكرة إعادة التنظيم من حيث المبدأ. وعلى أن يسبق ذلك حوار نظري وسياسي شامل يشارك فيه كل القادة الشباب المستعدين للانخراط في تنظيم جديد. وتناول هذا الحوار الأهداف النهائية للعقيدة البعثية.

كما وتناول الأهداف السياسية المرحلية التي يجب أن يناضل من أجلها البعث الجديد. ولم يكن بالأمر السهل أن يجري حوار سياسي معمق بين عشرات من البعثيين السابقين. فمعظمهم كان مراقبا من قبل الأجهزة الأمنية، وحركاتهم كانت محسوبة عليهم. وبعضهم مثلي يجب أن يأتي من خارج دمشق، وأن يجد طريقته الخاصة للتهرب من مراقبة الأمن، وعدم إرشادهم إلى مكان الحوار. كما أن الصدام بين البعثيين السابقين وبين عبد الناصر لم يأت فجأة في أعقاب الاستقالة، ولم يكن البعثيون أول من تعرض لاضطهاد الأجهزة القمعية. حيث أخذ الخوف يزداد في الأوساط الشعبية السورية بالتدريج. وانتشرت القصص التي قد يكون فيها مبالغة عن اضطهاد الشيوعيين في السجون السورية، وعن اضطهاد بقايا القوميين السوريين. وبالرغم من اضطهاد الإخوان المسلمين في مصر، فلم تصطدم الأجهزة الناصرية في سورية بالإخوان المسلمين السوريين. وباختصار فإن جو الكبت والإرهاب كان يقوى ويشتد مع مرور الأيام. وشيئا فشيئا، أخذت الأجهزة الحكومية الناصرية والإتحاد القومي والأجهزة الأمنية تقرب المعروفين بعدائهم للبعث من أوساط الأحزاب السورية السابقة، وأخذت تميّز ضد المعروفين ببعثتهم سواء في حقل الوظيفة أو التعليم أو الجيش أو حتى في الأعمال الحرة. وقد رافق كل ذلك استعانة الحكومة بكثير من الأفراد المصريين في مختلف الأجهزة الحكومية مما قوى الانطباع لدى الناس أن حكم الوحدة يتحول شيئا فشيئا إلى تحكم المصري بالسوري. ولا شك أن المعارضة السياسية لعبد الناصر والتي لم يكن مسموحا لها بالعمل العلني قد أسهمت في إشاعة هذا الجو العام من التشكيك بعبد الناصر وبحكمه، وإلصاق اتهامات كثيرة به. وقد وجدت مع الأسف آذانا صاغية في جو القمع والارهاب السائدين. ومهما يكن الأمر، فقد أسهمت أخيرا الضغوط التي مارسها البعثيون السابقون على الأستاذين الحوراني والبيطار. وعُقد مؤتمر سري أواخر عام 1960في بيت عبد الغني قنوت بدمشق. حضره أكثر من خمسين بعثيا من كل أنحاء سورية واستمر لعدة أيام. وقد حضرت نواتنا المُنظمة بصفة فردية، لأننا لم نكن قد أعلنا من ولادة تنظيمنا الجديد وكنا حريصين على أن تعترف بنا القيادة القومية للحزب التي كانت لا تزال مترددة في استئناف العمل الحزبي المنظم في سورية. وذلك لأن إعادة التنظيم في سورية يخالف الوعد الذي أراده عبد الناصر، والذي كان شرطا لقيام الوحدة. ولأن منظمات البعث خارج ج.ع.م. كانت حليفة لعبد الناصر ولسياساته في كل أرجاء الوطن العربي. ومهما كان رأينا بنظام الحكم الناصري وطابعه غير الديموقراطي في سورية، فإن الجمهورية العربية المتحدة كانت الرمز القومي البارز الذي يحرص عليه كل القوميين. وكان عبد الناصر يقود بجدارة عملية المواجهة بين الأمة العربية وأعدائها التاريخيين، وخاصة

الإسرائيليين والأمريكان. وقد كانت حوارات المؤتمر النظرية والسياسية وثيقة الصلة بالجو السياسي السائد في البلاد. فكان هناك إجماع بين الحضور على صرورة التمسك بالديموقراطية والمطالبة بأن يتخلى عبد الناصر عن حكمه الفردي الإرهابي. وكذلك كان هناك إجماع على تقدير الدور التاريخي الذي يلعبه عبد الناصر في مواجهة الصهيونية والاستعمار، وخاصة في المساعدة على إنجاح الحركات الاستقلالية التي كان يعج بها الوطن العربي في المشرق والمغرب. لقد كان واضحا بأن أكثرية المؤتمرين كانت تريد إحياء التنظيم القديم للحزب. ولكننا نحن بقيادة الأستاذ البيطار كنا نريد أن نتأكد من أن كل الحاضرين لا يزالون فعلا مؤهلين ليكونوا في حزب سابق. أي أننا كنا نرفض أن نسلق النقاش سلقا، وكنا نريد أن نتأكد مما نحن متفقون عليه. لقد أظهر الحوار الجاد والمعمق، والذي استمر على مدى أسبوع كامل وتجاوزت ساعات الحوار الفعلي التسعين ساعة، وجود انقسام حقيقي بين المؤتمرين. لم تستطع اجتهادات المحامين، وكانوا كثيرين في المؤتمر، أن تطمسه. كما لم تستطع براعة السياسيين، وكلنا كنا سياسيين، أن نقيم جسورا عملية بين وجهتي نظر أساسيتين استقطبتا الحاضرين، أو بالأحرى اقتسمتا الحاضرين. وتبين بأن الخلاف بين وجهتي النظر هاتين التي يقود إحداهما الأستاذ أكرم الحوراني ومعه نصف الحاضرين تقريبا من جهة. وكان يقود وجهة النظر الثانية الأستاذ صلاح البيطار ومعه كذلك نصف الحاضرين تقريبا. كان الأستاذ الحوراني يعتبر بأن الديموقراطية هي الأساس النظري والسياسي لتحليله ويتوصل انطلاقا من ذلك إلى أن ضرب الديموقراطية في سورية يرقى إلى مصاف الالتقاء السياسي مع الاستعمار الغربي ومع إسرائيل. وهو يعتبر تبعا لذلك بأن الوحدة بين سورية ومصر كانت غلطة لا بد من تصحيحها بالانفصال ليُعاد بناء الوحدة على أساس الديموقراطية. كما أن عبد الناصر برأيه، إنما يخدم أهداف أمريكا الاستعمارية في المنطقة. ويأتي بالحجج الكثيرة التي تدعم وجهة نظره هذه. وباعتبار أن كل الحاضرين يعرفون الماضي السياسي للأستاذ أكرم، وخاصة تساهله المشهور في المسألة الديموقراطية ودوره المعترف به في تشجيع الانقلابات العسكرية في سورية، اعتبروا أن هذا التطرف في أحكامه إنما هو استمرار لبراعته للمساهمة في التهييج الغوغائي أكثر منه دليلا على كُفره بالوحدة وتنكره لها، واستعداده للمساهمة السياسية في انفصال القطرين. أما الأستاذ البيطار فكان ينطلق من أن الوحدة التي قامت هي الانتصار القومي الأبرز منذ إخراج الصليبيين من فلسطين. وهي لذلك نقطة تحول تاريخي لا يجوز المساس بها لأية اعتبارات سياسية أو عقائدية. ولذلك فإن النضال من أجل الديموقراطية يجب أن يكون في إطار الوحدة، ومع الحرص عليها لا من حيث الإعلان عن النيات فحسب،

وإنما من حيث تجنب أي موقف أو تحالف أو سياسة قد تؤدي إلى تعريض الوحدة للخطر. وهو لا ينكر فردية عبد الناصر وديكتاتورية، لكنه لا يقبل أبدا التشكيك بوطنيه أو بمنطلقاته القومية. إن معرفة الحاضرين، وبينهم الكثير من البارعين سياسيا، بكلا القائدين وبتوجيهاتهما العقائدية وبأنهما يراعيان الاعتبارات السياسية بالضرورة قد أعطى للحوار جوا حادا ومسؤولا ومتهيبا. لقد لمس الجميع بان مبالغات الأستاذ الحوراني، بالرغم من غوغائيته المعروفة، قد تخفي خطة عملية للانفصال يضطلع بها، أو أنها تتم من قبل غيره ويتساهل هو معها. كما أن إصرار البيطار غير العادي على المنطلق الوحدوي في البحث وكأنه يخاطب التاريخ ويحذّر من انفصال وشيك، إنما كان يضع الأساس لقطيعة سياسية نهائية مع الحوراني. وأنه بالتالي من العبث الأمل بعودة تنظيم البعث كما كان قبل قرار الحل. وقد حاول عدد من المفكرين والمحامين من بين الحضور وخاصة الاستاذ عبد البر عيون السود (البعثي السابق) والاستاذ عبد الفتّاح الزلط (الاشتراكي السابق) أن يجدا جسورا معقولة بين وجهتي النظر. وأن يغلّبا الحاجة إلى إعادة التنظيم على كل اعتبار سابق. وشارك معظم الحاضرين معهما في هذه الجهود، ولكنها لم تنته كلها إلى نتيجة عملية ما. وانتهى المؤتمر على وعود متبادلة بأن يعمد كل طرف إلى مزيد من دراسة وجهة نظر الطرف الآخر. وانتهى الواقعيون بين الحاضرين (وكنت منهم) إلى نتيجة لا بد من التسليم بها مهما كانت مؤلمة. وهي أن حل تنظيم البعث في سورية إنما أصبح واقعا قائما لا سبيل إلى القفز فوقه. وإن أي انتظار لعودة المياه إلى مجاريها بعودة التنظيم السابق إلى الحياة، إنما هو انتظار عديم المعنى. وإنه لا بد بالتالي لكل فرد أن يسير مع قناعاته حتى النهاية. وأن التنظيم الذي كنا قد بدأناه هو وحدة الجواب الصحيح على التحدي الذي يجابه بلادنا ويجابه جيلنا والأجيال اللاحقة. وإنه لا بد لنا كنتيجة لكل ذلك في المضي قدما في التنظيم ومتابعة السعي الذي وعد به الأستاذ البيطار حتى تعترف القيادة القومية بتنظيمنا بحق كامتداد للتنظيم البعثي القومي. وبعد مضي وقت غير طويل أخذنا نوسع تنظيمنا وبدأنا نكسب إليه أعضاء جدد من البعثيين السابقين، وحتى من غيرهم. إذا أمكن كما حدث في انضمام النقابي الدمشقي البارز نذير النابلسي.

وفي مطلع صيف ١٩٦١، كانت قيادتنا قد طلبت مني نقل سكني إلى دمشق. ففعلت، وأبقيت عائلتي في السويداء. حيث كنت في حينها قد تزوجت، وولد إبني العربي في شباط ١٩٦٠. وأن بقائي في السويداء ومع كثرة المهمات والمسؤوليات المطلوبة مني في دمشق، جعلني دائم التنقل بين المدينتين ومحط شكوك الأجهزة الأمنية في كليهما. حيث أوقفت دوريات المباحث (جهاز الأمن

الداخلي) حافلة الركاب التي أكون فيها أكثر من مرة على الطريق بين السويداء ودمشق، لتفتيشي أمام كل الركاب. وكنت قد لجأت إلى كل الطرق الممكنة حتى تفشل عمليات التفتيش الشخصي هذه بالعثور على شي يفيدها. أما عن وسيلة كسب العيش، فقد كنت أتسلّم راتبا شهريا من الجامعة كمنحة دراسية بعد أن كنت قد التحقت بدار المعلمين العليا منذ مطلع السنة الدراسية ٥٥ـ٥٦. كما كنت أُعلّم في مدرسة خاصة بالسويداء (ثانوية المزرعة). وكانت زوجتي وداد قد بدأت تعلّم في السويداء بعد أن اجتازت امتحان دار المعلمات في حزيران ١٩٥٩. إذن أتيت لأقيم في دمشق، واستأجرت شقة في باب مصلى. وقبل أن تتمكن زوجتي من اللحاق بي إلى دمشق، ألقت المباحث القبض عليّ. ووُضعت في واحد من المعتقلات التي كانت أخبارها تعم دمشق، وتنشر الذعر بين سكانها. وكان المعتقل عبارة عن قبو تحت الأرض في بناية لم يكتمل بناؤها بعد في شارع حلب. ووجدت نفسي مع ثلاثين أو أربعين معتقلا محشورين في غرفة واحدة نمضي فيها كل ساعات اليوم الأربعة والعشرين. إذ لم يكن المكان معدا ليكون سجنا. وبالتالي، ليس فيه متسع للمشي خارج الغرفة مثلا. ولكن الحياة فيه لم تكن رتيبة تماما. إذ أن طلب الخروج إلى المرحاض الوحيد في ذلك القبو كان يأخذ وقتا طويلا. وكان متقطعا في النهار والليل. كما أن صراخ الذين يأخذهم الجلادون للتعذيب كان يستغرق وقتا طويلا من كل يوم. وكانت طريقة التعذيب السائدة في ذلك القبو هي الفلقة المعروفة. ولم تطل إقامتي في القبو حتى نودي على اسمي، واقتادوني اثنان من المباحث إلى غرفة ثانية في ذلك القبو. وهي مكتب الضابط المسؤول. وكان ذلك الضابط عبد الوهاب الخطيب، وربما كان أصغر مني عمرا. وكان يدّعي الإيمان بالوحدة ويقدس شخص عبد الناصر، ويوالي السراج. ويريد أن يستأصل بالقوة أية معارضة سياسية للنظام الذي يخدمه. أي أنه لم يكن منفذا للأوامر فحسب، وإنما كان يعتبر نفسه مسؤولا فعلا عن حماية الأمن. وكان مؤمنا بالعمل القذر الذي يقوم به. ولم يترك لي مجالا للنقاش معه. ولم يشأ أن يصغي لوجهة نظري، بل أنه كان يريد أن يحصل مني على اعتراف بأنني عضو في تنظيم بعثي معاد للوحدة ولعبد الناصر. وكان عليّ أن أقدّم له كشفا بأسماء كل أعضاء تنظيمنا. وقد أمرني أن أكتب كل ما أعرف، وأبلغني أن رفضي أو ترددي سيعرضني للتعذيب الذي أراه يوميا في هذا المعتقل. وأمر عنصر المباحث أن يضعني في غرفة جانبية، وأن يعطيني ورقة وقلما لأكتب ما طلب مني. وقد سجلت وجهة نظري المتضمنة حرصي على الوحدة وتخطئة الأسلوب المخابراتي في ممارستها. وسلّمت ما كتبت إلى العنصر المكلف بمراقبتي. وفي صبيحة اليوم التالي، نودي عليّ من جديد. وقادني عنصران إلى مكتب عبد الوهاب الخطيب، الذي استقبلني بسيل من الشتائم المقززة تناولت أبي

وأجدادي منذ آدم وأمي وجداتها منذ حواء حتى اليوم. وكان يستخدم لغة من السباب والشتيمة لا أنذل ولا أحط، وأمسك بالورقة التي كنت قد كتبتها (أو هكذا قال هو، لأنني لم أرها تماما) فمزقها ورمى مزقها في سلة المهملات. وطلب إلى عنصري الأمن أن يجهزاني للفلقة. وبالفعل فقد عرّياني من كل ثيابي تقريبا ولم يكن بيدي ما أفعله سوى الصمت. فامتنعت عن الرد على أسئلة الخطيب أو زبانيته، وأدرك الجلاّد أنه يستطيع أن يعذبني حتى الموت دون أن يسمع مني كلمة واحدة، اللهم إلا الأصوات التي ينطق بها الانسان في مثل هذه الظروف غير الانسانية. وربما خطر على بال الجلاد عبد الوهاب الخطيب أسلوب جديد في التعذيب فطلب إلى الزبانية التوقف، وأمرهم بإحضار رفيق لي من بين المعتقلين هو الأخ الصديق عبد الكريم عزي. فأحضروه فورا وعرّوه من ثيابه. فأمسك اثنان منهما بطرفي العصا التي تثبت باطن القدمين إلى الأعلى، وانهال الثالث يضرب باطن القدمين بسوط طويل. وأخذ عبد الكريم يصرخ متألما كل ذلك دون أن يطلب منه عبد الوهاب الخطيب شيئا. وإنما كان الزبانية يعذبون عبد الكريم، والخطيب يطلب مني أن أتكلم مهددا بأنه سيستمر بتعذيبه لصديقي حتى أعترف بكل ما عندي. وكان المشهد مؤلما ومعبرا عن عمق إيمان البعثيين بقضيتهم. فعبد الكريم الذي أدرك سبب تعذيبه أخذ يناشدني بين صيحات ألمه أن أحافظ على صمتي وأنه شخصيا يستطيع أن يتحمل تعذيبهم إياه حتى النهاية. ولا أدري كم استمر هذا المشهد المرعب. وأخيرا قلت للخطيب أن يكف عن ساديته المؤلمة هذه وأنني سأكتب له ما يريد. وفعلا توقف تعذيب عبد الكريم، وسمحوا لي بارتداء ثيابي ونقلوني إلى غرفة جانبية لأكتب، فكررت ما سبق أن كتبته قبل يوم واحد كلمة كلمة تقريبا. مبررا لنفسي بأنني أخادع هؤلاء الأقزام. ولعل شيئا ما يصحو بنفوسهم فيكتشفوا أنهم بافتعالهم هذه المعركة ضد البعثيين، وبلجوئهم إلى هذا الأسلوب الغوغائي البليد في الحكم، إنما يعرّضون الوحدة للخطر والتي يدّعون أنهم يحرصون عليها. ومهما يكن الحال فلم يعد عبد الوهاب الخطيب لتعذيبي في اليوم الذي تلاه، ولا في الأيام اللاحقة. وقد تمكنا أنا ورفاقي من استدراج الحراس لنستعلم منهم عما يجري خارج المعتقل، وقد علمنا منهم أن عبد الناصر قد عين لسوريا حكومة جديدة، وأن المشير عبد الحكيم عامر قد أصبح المسؤول الأول فيها وأن سلطات السراج قد قلّت. ولاحظنا التحسن في معاملة كل المعتقلين، إذ أصبح السجانون يقدمون لنا ثلاث وجبات طعام في اليوم بعد أن كنا ننال رغيف خبز واحد وقطعة من الجبن فقط كل أربع وعشرين ساعة. كما وتوقف التعذيب، وسُمح بشراء السجاير للمدخنين وشراء الأدوية لمن يريدها. وقبل أن ينتصف شهر

أيلول سنة ١٩٦١، أُفرج عني وعن رفاقي الآخرين المعتقلين. وقد خرجنا مزهوين بصمودنا. إذ أننا لم نضعف، ولم تحصل المباحث منا على أية معلومات إطلاقا.

وقد وجدنا أنفسنا مثل كل أبناء شعبنا نترقب ما الذي سيقوم به عبد الحكيم عامر، الذي كان قد انتقل إلى دمشق ليعيد للوحدة حيويتها وللنظام شعبيته. وكانت كل الصحف والإذاعات في سورية ومصر وفي الأقطار العربية الأخرى تراقب بقلق تصرفات المشير الحكيم عامر. وكان الجو مشحوناً بالترقب. فالوحدويون يريدون للمشير أن ينجح وفي أقصر زمن ممكن، وأعداء الوحدة داخل سورية وخارجها يفندون خطوات المشير ويندون بها ويثيرون كل التساؤلات حولها وكأنهم يتخوّفون من النجاح المحتمل. ولم يطل الانتظار كثيرا ففي صباح ٢٩أيلول ١٩٦١، استيقظت سورية على إذاعة البلاغ العسكري رقم 1، والذي أعلن أن ضباط الجيش قد (نجحوا) في اعتقال المشير عبد الحكيم عامر، وأنهم قد استولوا على السلطة، وأنهوا الوحدة وأعادوا لسورية استقلالها. وكان لإذاعة هذا البلاغ أثر صاعق على الناس. فكل أخطاء النظام الناصري، وكل تجاوزات المباحث والسلطات الأمنية، وكل الارتباطات التي حدثت في السنوات الثلاثة الماضية لم تستطع أن تمحو من العقول والقلوب ذكريات الشعور بالعزة والمجد واجتراح المعجزات التي حرّكت الملايين من السوريين ومن كل العرب يوم وصل عبد الناصر إلى دمشق سنة ١٩٥٨. وامتلأت شوارع دمشق (وشوارع كل المدن السورية) بالمتظاهرين الهاتفين للوحدة والمعارضين للانفصال. وكانت هذه المظاهرات تبدأ عفوية وتنطلق فيما أتفق، بعضها يسر باتجاه الأركان العامة، وبعضها باتجاه المجلس النيابي، وبعضها يتوجه إلى ساحة المرجة حيث مجلس الوزراء ووزارة الداخلية. وكان واضحا لأي مراقب أن هذه التظاهرات الصاخبة والكثيرة إنما تشكل رد فعل شعبي عفوي غير منظم وليس له هدف واضح. وقد كان طبيعيا جدا لي ولرفاقي أن ننخرط في هذه المظاهرات. كنا نبدأ بعضها، أو نشارك بها حيثما تواجدنا. ولم يفكر أي بعثي حينئذ بما سبق أن قاساه على أيدي أجهزة الأمن الناصرية. وهكذا عاد البعثيون ليلتقوا في خضم المظاهرات الوحدوية، سواء كانوا من أعضاء تنظيمنا البعثي أو الذين كانوا قد أنظموا للاتحاد القومي الناصري. وحتى القلائل الذين ماشوا قيادة القطريين كانوا يشاركون بالمظاهرات المناوئة للانفصال. كانت المدن السورية تقف كلها يدا واحدة، وقلبا واحدا. تدافع عن الوحدة، وتعارض الانفصال. ولكن هذه الوقفة الشعبية الرائعة لم يكن لها أن تنجح لأنها لم تكن منظمة، ولأن النظام الناصري قد عطّل المنظمات السياسية وحلها. وانحصرت القوة واقعيا بالقوات المسلحة، والتي

كان يسيطر عليها في تلك الأيام الانقلابيون الانفصاليون. وخلال ثلاثة أيام، وبعد صعود وهبوط في حرارة التظاهرات، وفي عواطف الترقب والاستسلام، انتصر الانفصال وأعلن، عبد الناصر أنه يقبل الانفصال ويعترف باستقلال سورية، ويرجو لها الخير والتقدم.

عهد الانفصال

في يوم ١٩٦١/٩/٢٨، بدأ عهد جديد في سورية. وهو العهد الذي عُرف بعهد الانفصال. ولقد تبين منذ الساعات الأولى للانقلاب الذي أتى بهذا العهد الجديد، إنما كان انقلابا على كل القيم والمفاهيم الوطنية والقومية والاجتماعية التي تظافرت لتحقيق معجزه الوحدة. ولقد استطاع الضباط الانفصاليون الذين قاموا بالانقلاب أن يحققوا نجاحا سياسيا كبيرا عندما تمكنوا من جمع معظم السياسيين السوريين الذين لعبوا أدوارا مهمة قبل الوحدة وطلبوا إليهم إبداء رأي جماعي بالانقلاب الذي حدث، وبالوحدة وبمستقبل سورية. ولعب أكرم الحوراني الدور الأكثر خطورة في هذه الاجتماع. إذ تمكن من إقناع الأستاذ صلاح البيطار بالتوقيع على بيان، وأقنع السياسيين غير البعثيين أن يتركوا صياغة البيان للأستاذ البيطار نفسه. وصدر البيان الذي كان من الناحية السياسية وثيقة بانفصال سورية عن مصر. وثيقة تحمل توقيعات ممثلي معظم الاتجاهات الوطنية في البلاد. وكانت خطورة هذه الوثيقة إنها أحدثت انقساما في الشارع الوحدوي. فالجماهير التي تظاهرت عفويا معارضة للانفصال ومناديه بالوحدة كانت بمعظمها جماهير حزب البعث. ولما نشرت وثيقة الانفصال رفضها قسم كبير من هذه الجماهير وممثليها. وفيما بعد تمخض عن القِسم الرافض تنظيمان وحدويان هما الوحدويون الاشتراكيون والاتحاد الاشتراكي. وكانت الكوادر الأساسية والقيادية في هذين التنظيمين من بقايا البعثيين. كما أن طبقة من المثقفين البعثيين السابقين والتي سبق أن مثلها عبد البر عيون السود وعبد الفتاح الزلط أجرت مباحثات في بيت عبد الغني قنوت التي أشرت إليها سابقا، وجدت فرصتها لأن تنتظم في حزب سياسي بعثي دون انتظار الأستاذين البيطار والحوراني. وقد عُرفت هذه الفئة بتنظيم القطريين، ولعبت كوادرها دورا هاما فيما بعد في انقلاب ٢٣شباط ١٩٦٦كما سيأتي لاحقا.

أما تنظيمنا نحن الذي كان يرأسه صلاح البيطار، والذي كان قد بدأ أيام الوحدة كما تقدم، فقد وجد نفسه في موقف مُحرج. وذلك لأننا كنا نرفض وثيقة الانفصال بغض النظر عما ورد فيها من نقاط إيجابية وبالرغم من أن الأستاذ صلاح هو من صاغها. ولكنها في نفس الوقت قد أعطت نوعا

من المشروعية لهذا العهد الجديد، والذي لم يكن في واقع الحال سوى النتيجة العملية لمؤامرة خارجية أمريكية- سعودية لإسقاط الوحدة، والعودة بسورية إلى الحكم الاقطاعي البورجوازي الذي كان قائما إلى سنة ١٩٥٦. وقد اجتهد الاستاذ البيطار وعملنا معه كتنظيم للخروج عن وثيقة الانفصال وإدانتها. ولم يتردد صلاح البيطار في التراجع العلني عنها والتنديد بها. وفضح العهد الانفصالي كمؤامرة استعمارية ضد العروبة والتقدم. إلا أن النتيجة العملية بالنسبة لنا كانت أننا خسرنا كتنظيم الهدف الإستراتيجي الذي وضعناه نصب أعيننا أيام الوحدة. وهو أن يكون تنظيمنا النواة والبداية الحقيقية لعودة تنظيم حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية. صحيح أن الاستاذ ميشيل عفلق الذي عاد إلى سورية بعد حدوث الانفصال بوقت قصير أخذ علما بتنظيمنا وقبل به، وكذلك قبل به أعضاء القيادة القومية، إلا أن هذا القبول لم يأخذ شكلا رسميا. وظلت علاقتنا التنظيمية بالحزب القومي ممثلا بقيادته القومية علاقة مؤجلة، إذا صح التعبير، بانتظار عقد المؤتمر القومي الخامس الذي سيَبُت رسميا في مسألة إعادة تنظيم الحزب في سورية.

عودة النظام الديموقراطي

كان على انقلابي الانفصال أن يقدموا ذريعة ما لتبرير مؤامرتهم ضد الوحدة وارتباطاتهم غير الوطنية. وكان طبيعيا أن يدّعوا أن غايتهم كانت إعادة الديموقراطية إلى سورية. وفعلا، وبعد أقل من ثلاثة أشهر على نجاح انقلابهم، تمت الانتخابات النيابية، والتي أتت بمجلس نيابي مشابه للمجالس التي قامت قبل الوحدة. وبينما نجح الأستاذ أكرم الحوراني بإنجاح قائمة كاملة عن محافظة حماه، أخفق الأستاذ صلاح البيطار في أن يحتل مقعدا نيابيا عن دمشق. والتف حول الحوراني كل النواب الذين كانت أصولهم بعثية واشتراكية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكونوا ممثلين للبعث كحزب منظم. أو للبعثيين كتيار سياسي. ذلك لأن غياب الأستاذ البيطار قد جعل من هذه الكتلة البرلمانية كتلة موالية لشخص الأستاذ الحوراني قبل أي شيء آخر. وانخراطنا بقيادة الاستاذ البيطار في نضال فكري وسياسي لتمييز أنفسنا عن عهد الانفصال وتعميق القطيعة ضده، والدعوة إلى إعادة الوحدة على أسس جديدة لتجنيبها الأخطاء الخطيرة التي أودت بالجمهورية العربية المتحدة وأضعفت التفاف الشعب حولها. وكانت دعوتنا تتركز في إيضاح الارتباط العميق النظري والسياسي بين الوحدة والديموقراطية. ففي الوقت الذي كنا ننتقد فيه النظام الناصري لابتعاده عن ممارسة الديمقراطية إبان الوحدة، كنا نقر بأنه النظام الأكثر مشروعية والأصدق وطنية والأوضح تعبيرا عن طموح أمتنا العربية ووحدتها. وأن الديموقراطية هي الضامن الشعبي المطلوب لترسيخ

الوحدة. وذلك لأن الوحدة برأينا كانت ولا تزال أمل الجماهير العربية بالوصول إلى التحرر من النفوذ الأجنبي ومن التخلف الاقتصادي والاجتماعي. وأن الجماهير العربية هي صاحبة المصلحة الفعلية في قيام الوحدة، وأن هذه الجماهير بالتالي هي القادرة على حمايتها عندما يقوم نظام سياسي ديموقراطي يسمح للمواطن الفرد بالعمل السياسي الحر. وكانت جريدة البعث التي أعدنا إصدارها في دمشق هي المنبر الذي بدأنا نخاطب منه الشعب. ونهيئ عبره لإعادة تنظيم حزب البعث إلى سورية. وقد ساعدنا على ذلك أن امتياز جريدة البعث كان باسم الأستاذ صلاح البيطار. نجحت جريدة البعث نجاحا باهرا. بحيث كان لا يكاد العدد يغادر المطبعة، حتى تتخاطفته الأيدي. وكان يصل سعر العدد الواحد منها في السوق السوداء إلى خمس ليرات سورية. أي عشرين ضعفا لثمنها الرسمي البالغ ربع ليرة سورية. وأصبحت مكاتب الجريدة مركزاً لنشاطنا واجتماعاتنا، والتي كانت تستغرق معظم الوقت. وقد شعرت من الناحية الشخصية بنوع خاص من السعادة كنت قد افتقدته طوال السنوات الثلاثة الماضية. وذلك لأنني عدت إلى عهدي القديم من النشاط الحزبي والذي يتلخص بالنقاش، والكتابة وحضور الاجتماعات، والقيام بالنشاطات الحزبية المطلوبة. وكانت سعادتي في حينها غامرة بالرغم من أنني سُجنت عدة مرات في عهد الانفصال على قصره. فالسجن لم يكن مخيفا كما كان الحال أيام الوحدة، وعهد الانفصال بكامله لم يكن يبعث الخوف أو الاحترام في نفوس الناس. ولهذا كنت أرى أن المعتقلين معي على اختلاف توجهاتهم السياسية كانوا يشتركون في الاستخفاف بعهد الانفصال. وقد تعرفت في السجن على عدد كبير من السياسيين خلال فترات الاعتقال القصيرة هذه، والتي كانت دائما تبدأ بمظاهرة أو بتوزيع منشور ثم تنتهي بحفل يضم الأصدقاء ويجدد السعادة في النفوس. وأذكر مرة في مطلع صيف ١٩٦٢أنني كنت معتقلا في المزة، وأفرج عني قبل الفحص النهائي لدبلوم التربية بيوم واحد، وكان عليّ أن أقدم ذلك الامتحان باعتباره آخر امتحان لي في الجامعة. وقد أراد أصدقائي أن يحتفلوا بالإفراج عني، وكانوا كلهم مثلي طلابا في مراحل جامعية مختلفة. فأمضينا الليل سهرا، وفي الصباح ذهبنا كل إلى امتحانه. ونجحت في امتحاني. بينما لم يوفق أي منهم بالنجاح بامتحانه. فقد أمضيت السنة الدراسية ١٩٦١-١٩٦٢ في دمشق، بينما كانت زوجتي وولديّ الصغيران العربي وليلى في السويداء. وكان معظم وقتي منصرفا للنشاط الحزبي، وأقله للانتهاء من دبلوم التربية الذي كنت سأخوض امتحانه في حزيران ١٩٦٢.

لم يتمكن عهد الانفصال على أية حال أ ن يحافظ على المجلس النيابي باعتباره التجسيد العملي للنظام الديموقراطي. ففي مطلع العام ١٩٦٢ حلّت قيادة الجيش المجلس النيابي، وتسلّمت الحكم مباشرة. وكانت ذريعتهم لذلك حفظ الأمن والنظام في البلاد بعد أن عاد لسورية كل نشاطها الشعبي الذي عرفته منذ مطلع هذا القرن، وبعد أن كثرت الأحزاب بالسياسة وكثرت الصدامات فيما بينها، وتعددت الصحف التي تهاجم الحكومة من جهات متعددة، وبدا وكأن البلاد فعلا غير قابلة لأن تحكم بنظام ديموقراطي. ولم تتحسن الظروف الأمنية، ولم يستقر النظام كما أرادت قيادة الجيش، لأن عهد الانفصال وبكل مؤسساته كان مدانا بأنه جاء نتيجة لمؤامرة أمريكية ضد الوحدة، ولأنه لم يتمكن من فرض احترامه على الشعب، أو فرض هيبته على الأحزاب المتصارعة. وقد زاد من الصعوبات التي واجهها عهد الانفصال الموقف الدعائي الناصري ضده. فمصر لم تتخل عن اسم الجمهورية العربية المتحدة بعد نجاح مؤامرة الانفصال، ولا غيرّ عبد الناصر من توجهاته القومية والاشتراكية، وإنما على عكس ذلك فقد عمّق توجهه القومي بأن نقل تأييده لحركات التحرر خطوة حاسمة إلى الأمام. وذلك بإرسال قواته العسكرية للدفاع عن الجمهورية التي أعلنت في اليمن بعد الإطاحة بنظامها الملكي. وأصبحت اليمن ساحة مواجهة عسكرية بين السعودية التي أخذت تموّل وتدرب قوات الإمام البدر في اليمن وبين الجمهورية العربية المتحدة التي كانت تشارك مع القوات المسلحة اليمنية في المعارك الكثيرة دفاعا عن النظام الجمهوري. كما أن تأييد مصر عبد الناصر لحركات الاستقلال في كل أقطار المغرب العربي، وخاصة في الجزائر، وانخراطها الناشط والفعال في حركة عدم الانحياز، ووقوفها إلى جانب كل القوى المعارضة للاستعمار بشكليه القديم والحديث، جعل من الجمهورية العربية المتحدة قلعة، ولم تؤخذ سورية وشعبها بجريرة الانفصاليين. ولقد كان لذلك أثر قاتل على عهد الانفصال الذي لم يستطع أن يحظى لا بالإحرام ولا بالهيبة التي لا بد منها لأي نظام سياسي كي يستمر. وكان غياب الهيبة والاحترام مشجّعا للنشاط السياسي الشعبي، وباعثا لعودة الروح إلى الحياة السياسية في سورية. وكان على حزب البعث أن يسابق الأيام ليعيد تنظيمه رسميا في سورية في صيف ١٩٦٢. وقد انعقد المؤتمر القومي الخامس في مدينة حمص. ورغم من أن الحزب لم يكن له وجود رسمي، فإن انعقاد المؤتمر القومي في حمص وبشكل شبه علني تقريبا يعطي صورة واقعية تؤكد ما سبق أن شرحته عن استهتار الجميع بما فيهم البعثيين بالانفصال وعهده. ولم أحضر أنا أو أي بعثي من سورية المؤتمر القومي الخامس، ولكننا كنا نتابع نقاشاته ومقرراته وكأننا بداخله. والمهم في موضوع هذا الكتاب هو أن المؤتمر قرر تكليف قيادة قطر العراق بالإشراف على إعادة تنظيم الحزب في سورية،

وانتدبت قيادة قطر العراق عددا من أعضائها للقيام بهذه المهمة. وكانت الخطوة الأولى للأعضاء العراقيين المنتدبين لإعادة تنظيم الحزب في سورية أن شكلوا منهم ومن بعض الأعضاء السوريين قيادة مؤقتة، لم أكن شخصيا بين أعضائها. وبدأت القيادة المؤقتة الجديدة فورا بإعادة بناء هيكل تنظيمي للحزب من الأعلى إلى الأدنى، وعيّنت في قيادة فرع دمشق وعلمت أن قيادات معظم الفروع قد عُينت كذلك. وكان طبيعيا جدا أن يتوجه التنظيم الجديد إلى أعضاء تنظيمنا الذي كان قائما، وأن يأخذ كل أعضاء تنظيمنا كأعضاء في التنظيم الجديد. ولا بد هنا من إبراز ملاحظتين متلازمتين على هذه العملية: الأولى هي أن تنظيمنا أدخل كله إلى التنظيم الجديد كأفراد وليس كتنظيم كامل. وهذا يعني أن القيادة المؤقتة لم تقبل تنظيمنا رسميا كنواة للتنظيم الجديد، وإن كانت لم ترفض أحدا ممن كان منظما معنا. ولم نفاجأ بهذه الصيغة أو نعترض عليها. وذلك لأن احترامنا للتنظيم القومي كان الطابع الأبرز في هويتنا السياسية والفكرية. أما الملاحظة الثانية فهي أن طريقة التنظيم الجديد كانت إقامة الهياكل القيادية والكوادر الفعّالة من الأعلى إلى الأدنى، أي أن الخطوة الأولى كانت تشكيل القيادة القطرية المؤقتة، وتبعها تشكيل قيادات الفروع، ثم الشعب، ثم الفُرق، وإلى أن يكتمل الهيكل التنظيمي على مستوى القطر كله. وعندها ستجرى انتخابات على مستوى القطر كله لتكون القيادات كلها منتخبة. فيعود تنظيم الحزب في القطر السوري إلى أخذ دوره الطبيعي في هياكل الحزب القومية، ويكون بذلك قد انتهت مهمة الأعضاء المنتدبين.

إن قبول كل أعضاء تنظيمنا كأفراد في التنظيم الجديد وطريقة بناء الكوادر القيادية من الأعلى إلى الأدنى، قد جعلت من تنظيمنا عمليا الهيكل الأساسي الذي قام عليه حزب البعث العربي الاشتراكي منذ إعادة تنظيمه في ١٩٦٢. ولم يكن هذا غريبا، فنحن الذين كنا قد باشرنا بإعادة تنظيم حزبنا في زمن الوحدة، ونحن الذين التزمنا بأن يكون تنظيمنا امتدادا للتنظيم القومي، وتابعا له سياسيا وتنظيميا. وكنا بذلك قد تميزنا عن غيرنا من الفئات البعثية من الذين، إما ساروا دون تحفظ مع عبد الناصر وتشكلت منهم فيما بعد كل أطراف الحركة الناصرية في سورية، أو الذين قبلوا منطق الأستاذ أكرم الحوراني وأصبحوا إحدى الدعائم السياسية التي نهض عليها عهد الانفصال. أو من أرادوا بداية تنظيمية تستبعد القيادة التقليدية للحزب (عفلق والحوراني والبيطار معا). فابتعدوا بتنظيمهم عن القيادة القومية، والتي كان ميشيل عفلق لا يزال أمينها العام، وتشكل منهم ما عرف باسم تنظيم القطريين. والذي لعب دورا هاما في انقلاب ٢٣شباط ١٩٦٦، وفي العهد الذي نتج عنه ذلك الانقلاب. ومع ان أفراد تنظيمنا قد شكلوا الهيكل الأساسي لتنظيم البعث

من جديد في سورية، إلا أننا لم نكن وحدنا في هذا التنظيم لأن الأعضاء المنتدبين من العراق لإعادة التنظيم في سورية حاولوا كل جهدهم أن يتصلوا بكافة القياديين السوريين لينضموا إلى التنظيم الجديد وبأسرع زمن ممكن. ولم تكن الاستجابة لهم من الفئات البعثية المختلفة فورية وحماسية مثل استجابتنا نحن، ولأنهم قد قبلوا بكل من استجاب لهم فرديا. ولهذا جاءت القيادات التنظيمية الجديدة غير متجانسة كما ينبغي. وكان لا بد من انتظار الانتخابات الحزبية العامة للوصول إلى الانسجام المطلوب في القيادات الحزبية.

التشابه بين التنظيم الجديد في سورية وتنظيم الحزب في العراق

إن تجربة بناء الحزب في العراق كانت مختلفة عنها في سورية. هناك كانت منافستهم الرئيسية ضد الحزب الشيوعي العراقي، وكان التضيق الأمني على كل الأحزاب السياسية الشعبية أشد كثيرا مما كانت عليه الأحوال في سورية التي لم تعرف حكما ذا هيمنة أمنية خانقة وطاغية إلا لسنوات ثلاثة قصيرة خلال عهد الوحدة. أما في العراق فإن معظم تاريخه الحديث بعد الاستقلال كان قد تميّز بهيمنة أمنية شديدة، ولكنها لم تكن لتصل إلى تلك الهيمنة الطاغية التي طبعت عهد الوحدة. هذا الفارق الواضح بين شكل الممارسة الأمنية في كل من سورية والعراق كان السبب الأهم باعتقادي للخلاف الواضح في الصيغة التنظيمية التي سادت تنظيم الحزب في العراق وتنظيمه في سورية. يضاف إلى أن قيادة الحزب في العراق كانت تحت الأرض منذ إنشائها في أواخر الأربعينات وحتى استلامها الحكم في أوائل ١٩٦٣على خلاف ما كانت عليه الحال في سورية. اذ أن بيوت مؤسسي الحزب كانت مفتوحة ليلا نهارا للنقاش والحوار، والذي كان يُسهم فيه كل من أراد. وكان الحوار السياسي يجري علنا في سورية، في الجامعة وفي المقاهي وفي أي مكان يجتمع فيه الراغبون بالحوار. وكانت النتيجة العملية لكل ذلك أن البعث في العراق تميّز بالصلابة التنظيمية التي تقربه من صيغة الحزب اللينيني. بينما كان البعث في سورية قد تعود على النقاش الحر في جو ديموقراطي اقترب به من طريقة النقاش في الأحزاب البورجوازية الغربية. ولما باشرت اللجنة المنتدبة من القطر العراقي بتنفيذ المهمة التي أوكلها إليها المؤتمر القومي الخامس بإعادة تنظيم الحزب في سورية، كان طبيعيا أن تكون متأثرة بما نشأت عليه في العراق من انضباط تنظيمي صارم. وأن تطلب ممن يقبل بالانضمام للتنظيم الجديد أن يلتزم بمثل هذا الانضباط. وباعتبار أننا كنا الفئة البعثية الوحيدة التي بدأت تنظيما حزبيا في عهد الوحدة ذي الهيمنة الأمنية الطاغية، لم نجد مطلب الانضباط التنظيمي مطلبا مستهجنا قد يشكل حاجزا أمامنا

للعودة إلى صفوف الحزب. ولذا فقد كانت استجابتنا أسرع من غيرنا، وكانت النتيجة بأن أصبح التنظيم الجديد يقوم إلى حد كبير على سواعدنا نحن، مع وجود غيرنا من الأفراد من الذين تمكنت لجنة إعادة التنظيم من اقناعهم.

لم نتوقف طويلا أو نجادل بين قبول الانضباط التنظيمي الصارم، أنا اعتبرته إزعاجا لابد منه لعودة التنظيم، كما ظننت بأنه سيكون مرحلة مؤقتة تنتهي بانتهاء اللجنة المؤقتة وبصعود قيادات منتخبة. هذا إذا حرصنا أن تتطابق نتائج الانتخابات مع تطلعاتنا. وبين فترات اعتقال قصيرة وحضور بعض المحاضرات الجامعية، كان كل وقتي تقريبا مكرسا للنشاط الحزبي، وكنت مصمما على أن أجعل الأخوة العراقيين يرون الواقع الحزبي في سورية كما هو. فيتركون فكرة التعامل مع كل الفئات البعثية على قدم المساواة، وفكرة وضع الرفيق الذي يستجيب لهم في أول مركز حزبي يجدونه مفتوحا له. وكان إيماني راسخا بأن النشاط السياسي والتعامل مع الناس والصدق والجدية مع تحمل المسؤولية وتنفيذ المهمات هي مزيا التحرك التي ستفرض نفسها واقعيا، وأن الانتخابات الحزبية ستكرس شرعية أن يقود الحزب أكفأ عناصره. وهكذا فلم أدخل في نقاش شخصي معهم أو مع غيرهم من أعضاء القيادة المؤقتة. وركزت كل انتباهي ونشاطي على نشر التنظيم الحزبي، وضرب المثل الحي من خلال التصرفات الشخصية في التفاني والنجاح. وإذا كان لي أن أدّعي فلسفة شخصية معينة في تلك الفترة، فإنها كانت إنهاء الشرخ المصطنع في تاريخ الحزب بين ما هو عقائدي وما هو سياسي. وتقديم البرهان الحسي على أن السياسة ليست حقا فقط لكل مواطن، ولكنها الواجب الذي يعطى المواطنة قيمتها. وهكذا فقد تعاملت مع أعضاء القيادة المؤقتة تعاملا يقوم على احترامهم واحترام الذات في الوقت نفسه. فلم يحدث أن تركت مستوى النقاش مع أي منهم ينحدر إلى مماحكة شخصية، كما لم يحدث أن سلمت لأي منهم باقتراح لا أقبله أو بوجهة نظر لست قانعا بها. كنت واعيا تماما لما أريده من تعاملي معهم ومع زملائي في قيادة فرع دمشق، ومع الرفاق الكثيرين الذين كنت أُنتدب للحديث معهم في دمشق وحولها وفي غيرها من المدن السورية. ولم يمنعني انشغالي بالعمل الحزبي القيادي من القيام بمهمات تنفيذية تحتاج لشجاعة شخصية أكثر من حاجتها لطاقات ذهنية، مثل طباعة منشور أو توزيعه أو القيام بمهمة قد تعرضني لخطر جسماني (حدثت مثل هذه المهمة وهي أنني نقلت مطبعة إلى داخل العراق في الوقت الذي كان فيه النظام السوري والنظام العراقي يحصيان على الناشطين من البعثيين كل تحركاتهم).

وقبيل انتهاء صيف ١٩٦٢، أصبحت القيادة المؤقتة مقتنعة بضرورة انتقالي إلى السويداء لأنقل من هناك المواجهة مع عهد الانفصال نقلة نوعية، باعتبار أن محافظة السويداء مؤهلة لذلك. وبعد أن طلبت مني القيادة التهيؤ للانتقال إلى السويداء قمت ببعض الاتصالات الخاصة مع بعض الأصدقاء من أساتذتي في الجامعة. وبهذا تقرر تعييني مدرسا في السويداء بعد أن كان مقررا أن أعين في دمشق. وهكذا فقد انتقلت في صيف ١٩٦٢ إلى السويداء. وكانت زوجتي وولديّ يعيشون فيها كذلك. إذ أن زوجتي كانت معلمة في السويداء، ولم ترافقني إلى دمشق في السنة المدرسية ٦١-٦٢.

في السويداء عُينت عضواً في قيادة فرع الحزب. إذ أن القيادة القطرية المؤقتة كانت قد اختارت لأمانة الفرع ولعضوية قيادة الفرع عددا من الحزبيين ليسوا جميعهم من أعضاء تنظيمنا السابق، ولكن مجيئي إلى السويداء غيّر صورة العمل الحزبي فيها، وأنتقل الحزب من تنظيم سرّي إلى قائد لمواجهة شعبية ضد عهد الانفصال. وأتت مناسبة لهذه المواجهة لم تكن من تخطيطنا، ولكنا أحسنا استثمارها أيما استثمار. وذلك عندما عيّن محافظا جديدا للسويداء، وقرر هذا المحافظ أن يدعو النخبة السياسية في المحافظة (وهم الموظفون في دوائر الدولة، وخاصة المعلمين) إلى اجتماع في مكان عام (قاعة السينما الوحيدة آنذاك) ليشرح لهم ميزات عهد الانفصال ويقنعهم بأن يلتزموا الهدوء لأن قيادة الجيش تعد بأن تعيد الديموقراطية للبلاد. وقد علمنا في قيادة الفرع بالاجتماع الذي دعا إليه المحافظ قبل يوم واحد من تاريخه انعقاده. وقد تمكنت من إقناع أعضاء القيادة بالموافقة على خطة بسيطة للغاية وهي أن نطلب إلى كل أعضاء الحزب وأصدقائهم أن يتواجدوا في قاعة السينما، وأن يحتلوا كل مقاعدها، إذا أمكن. ثم أن ينسحبوا من القاعة عندما أطلب منهم شخصيا أن ينسحبوا مع حرص الجميع على إبقاء نيتنا بالانسحاب سرا لا يطلع عليه أحد خارج أعضاء القيادة. وقد اجتهدت في أن تمتلئ القاعة في وقت مبكر بحيث يضطر عدد كبير من الناس للبقاء واقفين بعد إحلال كل المقاعد المتاحة. وطلبت من أصدقائي على كثرتهم، وسواء كانوا منظمين في ذلك الوقت أو لازالوا ينتظرون دورهم، أن يتواجدوا في قاعة السينما حسب خطة قيادة الفرع. وقد تكلم عريف الاحتفال، وأصغينا له باحترام مصطنع. وتكلم أول خطيب، وكانت مهمته التعريف بالمحافظ وتقديمه لأبناء المحافظة. وأيضا أصغينا له باحترام مصطنع. ثم قام المحافظ من مقعده في الصف الأمامي، واعتلى منصة الخطابة، وفتح ورقته ليقرأ خطابه

منها. ومع أو كلمة تفوه بها قمت من مكاني الذي كان في واجهة منصة الخطابة تماما، وقلت بصوت يسمعه من في القاعة أنني لست مستعدا لأستمع إلى محافظ عهد الانفصال. وتركت مقعدي وتوجهت نحو باب الخروج دون أن ألتفت إلى الوراء. وحسب خطتنا فقد بدأت الصفوف الأولى من المقاعد تخلو من الناس. وخلال أقل من خمسة دقائق، وقبل أن يستوعب المحافظ وقادة الأمن الحاضرون ما يجري أمامهم، كانت القاعة قد خلت تقريبا من الحضور. ولم يبق سوى عدد قليل لا يصل إلى عشرين شخصا جالسين في أماكنهم وهم الموظفون الكبار، والذين كان يمكن أن يلتحقوا بنا لولا مراكزهم الرسمية. وقبل أن تتمكن قوى الأمن من بداية مطاردتنا، كنا قد ابتعدنا عن دار السينما وسرنا مع غيرنا من الناس في اتجاهات متعددة. وبدا لمن لا يعرف ماذا جرى أن قوات الأمن تريد القبض على من تستطيع لتعيدهم إلى دار السينما حتى يستمعوا لخطبة المحافظ. وكنا نحن بالطبع وراء نشر هذه الاشاعة، والتي أصبحت القصة الساخرة التي تداولها أهل محافظة الجبل. وانتقلت بشكل طبيعي خارج الجبل مؤكدة للجميع أن عهد الانفصال يفتقر إلى الهيبة والاحترام اللازمين لأية حكومة.

وقد تبين هزال العهد وغياب قدرته عن التفكير السليم بالطريقة التي عوملت بها أنا ومن تمكنت قوات الأمن من اعتقالهم. فقد ألقي عليّ القبض مع حوالي عشرين إلى ثلاثين شابا، ووضعنا في شاحنة عسكرية نقلتنا إلى قلعة الحميدية في دمشق. وقبل أن نتوزع على المهاجع في سجن القلعة، عادت بنا سيارة نقل عسكرية ثانية إلى السويداء حيث وصلناها قبيل الفجر وأودعنا في سجن المحافظة. كل ذلك دون أن تأخذ قوات الأمن أسماء معظمنا، ودون أن يقدم لنا شيء نأكله. وظللنا على هذه الحال حتى قبيل غياب الشمس حيث أطلق سراحنا، ووجدنا استقبالا شعبيا حافلا ينتظرنا خارج بوابة السجن. ثم علمنا في اليوم التالي بأن المسؤول الأمني في المحافظة قد نُقل، وقبل مضي أسبوعين نُقل المحافظ الذي كان جديدا كذلك. وتداولت كل المحافل حيرة السلطة وفقدانها لزمام السيطرة في مواجهة خطتنا الجديدة. فلم يستطع المدعي العام أن يحيلنا إلى القضاء. وما هو الجرم الذي كان سينسب لنا؟ فهل رفض الإنسان سماع خطابا يلقيه محافظ جريمة يعاقب عليها القانون؟ ولم تستطع السلطات أن تعلل السبب الذي من أجله اعتقلنا ثم نقلنا إلى دمشق، ثم أُعدنا في نفس الليلة إلى السويداء، ويبدو أن الفوضى كانت عامة داخل أجهزة السلطة وقياداتها، بحيث أرادت هذه الأجهزة ضحية تفسر سبب ارتباكها الذي تحول إلى فضيحة. فكان نقل مسؤول الأمن

في المحافظة أولا، ثم أعقبه نقل المحافظ. ولم تحقق هاتان المحاولتان سوى المزيد من الاحتقار لعهد الانفصال وفقدان أي احترام له أو خوف منه.

رغم الانضباط الحزبي الذي أخذ يطبع تنظيم الحزب على يد القيادة القطرية المؤقتة، كان كل أعضاء الحزب في محافظة السويداء قد علموا أنني كنت شخصيا صاحب خطة الانسحاب من محاضرة المحافظ. كما وأن دوري في وضع خطة الانسحاب من محاضرة المحافظ وتنفيذها انتشر بين أهل الجبل. وأصبحتُ، على حداثة سني، ينظر أليّ قائدا شعبيا مقبولا بعد أن كان دوري القيادي معروفا فقط للخاصة والمتتبعين للأحداث السياسية. وأيضا نجاحنا الشعبي ودوري فيه هذا كان قد عُرف على صعيد التنظيم الحزبي في القطر كله. وغني عن القول إن أجهزة الأمن وجدت فيّ عدوا جديدا ستسعى لاصطياده وتحطيمه. وقد وجدت مع بداية ممارستي لمهنة التعليم في ثانوية السويداء أن شعبية السياسة تساعد كثيرا في كسب احترام زملائي وطلابي، وتجعل أدائي لعملي الوظيفي سهلا نسبيا. وكان الحزب بعد تنظيمه الجديد قد عاد لممارسة توزيع المنشورات كوسيلة ناجعة للتثقيف السياسي، وتربية أعضائه على مواجهة الخطر والدخول في حوار مع الناس يتركز حول الموضوع الذي يعالجه المنشور. وقد طلب الحزب إلى فرع السويداء كغيره من الفروع توزيع منشور بمناسبة ذكرى تقسيم فلسطين (٢٩ تشرين الثاني)، وكان يترتب على قيادة الفرع أن تستعد للمواجهة المحتملة في أعقاب توزيع المنشور. وأثناء دراستنا في قيادة الفرع لخطتنا لتوزيع المنشور وتوّقعاتنا لما سيحدث بعده، اقترحت على رفاقي في القيادة أن نوزع المنشور بشكل شبه علني، بحيث يتم التوزيع في وضح النهار، وتقوم عدة مجموعات تتألف كل منها من ثلاثة رفاق بتسليم المنشور إلى المارة وإلى أصحاب المتاجر في الشوارع التجارية أو إلى أصحاب البيوت في الأحياء السكنية. وإذا اعتقلت قوات الأمن الشخص الذي يوزع المنشور يتابع من بقي من أعضاء المجموعة عملية التوزيع هذه. كما وأمرنا كل حزبي يعتقل بأن يقول لدى سؤاله أثناء التحقيق معه بأنه قد تسلّم المنشور من حمود الشوفي شخصيا. وأنه لا يعرف شيئا آخر. وقد أقنعت قيادة الفرع بأن حصر المسؤولية بشخص واحد قد تخفف الأذى عن الحزب الذي لا يزال غير شرعي من وجهة نظر القانون. كما أنه يُجنب رفاقنا سجنا طويلا أو عقوبات أخرى متوقعة. وفعلا قام الحزب بتوزيع المنشور في وقت واحد في السويداء وصلخد وشهبا واعتقلت قوات الأمن أكثر من عشرين شابا، أفادوا جميعهم أثناء التحقيق معهم بأنهم قد تسلّموا المنشور مني شخصيا. ولما أخذ المحقق إفادتي اعترفت بأنني أنا كتبت المنشور وطبعته ووزعته

وأنني وحدي أتحمل المسؤولية القانونية المترتبة على ذلك. وأمام هذا الاعتراف الصريح، لم يتمكن المدعي العام من لفلفة القضية ولم يكن أمامه سوى أن يحيلني ويحيل من أُعتقل معي إلى المحاكمة. وكان هذا هو ما أردناه بالضبط. لأن تقديرنا كان أن محاكمتنا أمام القضاء في السويداء سيكون فضيحة حقيقية للنظام وكسب شعبية كبيرة لنا. وقبل أن نمثل فعلا أمام القضاء، أصدرت وزارة المعارف قرارها بطردي من وظيفتي كمدرس. ويبدو أن السلطة الحاكمة أرادت معاقبتي شخصيا لدوري في تحديها سواء بالانسحاب من خطبة المحافظ، أو بتوزيع المنشور. وكنت بالمقابل سعيدا جدا بقرار الطرد هذا. بل أنني كنت آمل أن يحدث. ومع أنني لم أخبر زملائي في قيادة الفرع بهذا الأمل، إلا أن توقعه كان واضحا جدا لي. وكان الحل الأمثل لمشكلتي الشخصية، والتي كانت تتلخص من وجهة نظري في أنني لا أريد امتهان التعليم، وإنما أريد أن أكرس كل طاقتي ووقتي للعمل السياسي. إلا أن دراستي الجامعية كانت قد تمت بمنحة حكومية مشروطة. وذلك كان عليّ أ أدرّس ثلاثة أضعاف المدة التي أمضيتها كطالب، أو أن أدفع غرامة مالية كبيرة. ولكن طردي بقرار من وزارة المعارف خلصني من شرط العمل كمدرس وبرأ ذمتي المالية من أية التزامات كانت يمكن أن تترتب عليّ. وبهذا فقد جاءت العقوبة التي نظرت إليها وزارة المعارف كانتقام يؤلمني حلا سعيدا للمشكلة التي طالما أقلقتني. ولم أصدق بأنني قادر على تحقيقها، إلا عندما سمعت بقرار الطرد وأنا في السجن. فكان ذلك عيدا حقيقيا لي. ثم وأعقب ذلك مثولنا أمام القضاء، وقد وجدنا أن عدد المحامين الذين تطوعوا للدفاع عنّا يفوق عددنا. وأدركت السلطات عندئذ أننا نحن الذين قد خططنا لهذه المحاكمة، وأن السير فيها إلى نهايتها لا يعني إلا لنسخر من السلطة، ونستخدمها لزيادة شعبيتنا، ولتعرية هذه السلطات وإفقادها أي احترام قد يكون باقيا لها. وقبل أن يبدأ المحامون مرافعاتهم، والتي كانت كلها معدة كخطب سياسية تندد بعهد الانفصال، تدخل المدعي العام وطلب إسقاط الدعوى التي أقامها ضدنا. ومع أن محامينا سارعوا للاعتراض على هذا الطلب الغريب، فإن القاضي الرئيسي المسؤول عن المحاكمة لم يستطع إلا أن يستجيب لطلب الادعاء العام وأخلي سبيلنا بمنع المحاكمة. ذلك مما مكننا من تصوير العملية كلها على الصعيد الشعبي كنصر للبعث وللآمال الوحدوية، وكهزيمة في الوقت نفسه للانفصال ولكل ما يمثله من تآمر على الوحدة وغدر بها. ومع أن السلطة قد أرادت إيذائي بطردي من الوظيفة وحرماني من الدخل، إلا أن قرارها بالحقيقة قد ساعدني حتى على صعيد الدخل المادي. ذلك لأن نقابة المعلمين، والتي كانت العضوية فيها آلية بالنسبة لكل المعلمين والمدرسين، عقدت قيادتها اجتماعا طارئا نددت فيه بطردي من الوظيفة وطلبت إلى وزارة التربية بأقسى عبارات

ممكنة التراجع عن قرارها الظالم. وقررت في الوقت نفسه أن تسلّفني راتبا شهريا يساوي ما كنت أتقاضاه قبل الطرد على أن يستمر ذلك إلى أن تتراجع الوزارة عن قرارها. وفعلا قد تسلمت سلفا شهريا من نقابة المعلمين، استمرت إلى أن تراجعت الوزارة عن قرارها بعد ثلاثة أشهر أو أربعة. وبالطبع لم أعد إلى وظيفتي كمدرس، لكنني أعدت هذه السلف إلى النقابة فيما بعد.

الشهور الثلاثة الأخيرة لسنة 1962 والشهور الثلاثة الأولى لسنة 1963

إن تسريحي من مهنة التعليم قد حرر كل وقتي الذي كرّسته للعمل الحزبي. ومع أن الفترة الديموقراطية في عهد الانفصال كانت قد انتهت منذ أوائل ١٩٦٢ وأصبح الحكم رسميا بيد قيادة الجيش، إلا أن الحكم العسكري الانفصالي كان فاقد الهيبة والاحترام كما تقدم. ومع حرصنا في التنظيم الجديد على الانضباط الدقيق في التعامل فيما بيننا كأفراد وفيما بين المنظمات الأدنى أو الأعلى، إلا أن الجو الشعبي في الجبل المتعاطف مع الوحدة إلى أقصى حد قد هيأ لنا فرصة حقيقية لننشط بشكل علني تقريبا ونقوم بالزيارات الجماعية في السويداء وخارجها. ومن التقاليد العريقة في الجبل أن تخصص كل دار تقريباً غرفة كبيرة فيها لتكون "مضافة" تظل مفتوحة طوال الوقت إذا أمكن يستقبل فيها صاحب الدار ضيوفه وزواره. وتدور فيها دائما أحاديث عامة تتعلق عادة بالقرية ومشاكلها البسيطة. فقد حولنا، وككل الناشطين سياسيا من قبلنا، مضافات الجبل إلى ندوات للحوار وللتنديد بالانفصال وعهده وللنقاش السياسي القومي والوطني. وكما كان يحدث في فترات صعود القضايا الوطنية ومرورها بنقلة حاسمة مثل الثورة العربية والثورة السورية، الخ.. كان طابع الجبل العام في الفترة التي أعقبت استقلال سورية لا يزال طابعا عشائريا. وكانت الانقسامات الاجتماعية فيه تأخذ شكل تكتلات عائلية. وقد اتضح هذا الطابع العشائري في الحركة الشعبية ١٩٤٧، والتي حركتها دوافع ظلم حقيقي أحست به الأكثرية الساحقة من أهل الجبل. إذ أن الوجهاء الذي سبق أن تعاونوا مع سلطات الاحتلال الفرنسي كانوا هم أنفسهم الذين أصبحوا ركائز عهد الاستقلال الجديد. فمنهم كان المحافظ ورؤساء الدوائر وممثلو الحكومة المركزية بشكل عام. وقد استغلوا مراكزهم الاجتماعية المتميزة لكي تستمر زعامتهم في العهد الوطني كما كانت عليه في عهد الانتداب، ودون أن يمس مصالحهم أي أذى. وكان هذا الوضع غير مقبول بالنسبة للأقلية المثقفة من الشباب في الجبل وللأكثرية التي انخرطت في صفوف الحركة الوطنية ونشطت ضد الاحتلال الفرنسي. ولكن هيبة الوجهاء (الوطنيين الجدد) كانت من القوة بحيث لم يكن أمام الأكثرية إلا الصبر واقتناص الفرص المواتية. وقد أحست قيادة الحركة الوطنية في دمشق بأن أمامها

فرصة فريدة لترسخ المفاهيم الوطنية الحديثة في الجبل، ولتقتصّ من زعمائه التقليديين الذين سبق أن تعاونوا مع سلطات الانتداب وقبلوا بفكرة (استقلال دولة جبل الدروز) أيام الانتداب الفرنسي، والتي انتهت سنة ١٩٣٦ مع توقيع المعاهدة الفرنسية السورية الواعدة بالاستقلال حينذاك. فشجعت السلطة المركزية (الوطنية) في دمشق الشباب المثقف وعددا من الزعماء المحليين المعروفين بعدائهم للزعامات التقليدية. فنشأت الحركة الشعبية في الجبل والتي كان مركز قوتها في قضاء صلخد، وكان الوجيه الأكثر نفوذا فيها عمي حسين الشوفي. ومع أن الحركة الشعبية رفعت مطالب عادلة جدا في ذاك الوقت مثل تساوي الفرص بين الناس وتسليم الإدارات الحكومية للأكفاء من الموظفين، إلا أن وجود الانقسام العائلي على صعيد الجبل هو الذي أعطاها قوتها الشعبية وأبرز فيها الحماس الهائل لتحقيق هذه المطالب العادلة. ومع إنها انتهت بهزيمة عسكرية للحركة الشعبية حيث خسرت فيها أكثر من خمسة عشر قتيلا وإضعاف هذا العدد من الجرحى، إلا أنها حققت كثيرا من المطالب التي رفعتها والتي تلخصت بتحديث الإدارة الحكومية وتمكين الحكومة المركزية من اختيار الموظفين حسب كفاءتهم وخلافا لما كان عليه الحال قبل الحركة الشعبية. إذ كانت الحكومة المركزية مضطرة لإعطاء المراكز الحكومية لبعض الأفراد، وكأنها حق وراثة أكثر منها خدمة عامة.

ومع أن حزب البعث الذي بدأ ينتشر بين المتعلمين من الشباب منذ أوائل الخمسينات كان قد نجح في استقطاب كل المثقفين تقريبا من أبناء الجبل حتى إن جميع من كانوا أعضاء في عصبة العمل القومي قد نقلوا ولاءهم الحزبي إلى البعث، إلا أنه كحزب سياسي قومي لم يتمكن طوال الخمسينيات من الوصول إلى أكثرية أبناء الجبل. وظل طابعة العام على أنه حزب المتعلمين. ولا شك أن تركيز الحزب على محاربة الولاءات العائلية وتجاوزها وتبشيره بالعلمانية لمحاربة الطائفية، قد حدّ من قدرته على تعميق نفوذه الشعبي وتوسيعه. وعندما خاض الحزب في الجبل معركة الانتخابات النيابية التي أعقبت سقوط الشيشكلي، اعتمد على المكانة العائلية لمرشحيه أكثر من اعتماده على نفوذ الحزب كحزب.

وبعد افتضاح المؤامرة العراقية لإسقاط الحكم الوطني في سورية سنة ١٩٥٦ التي كان عدد من الزعماء السوريين بينهم بعض نواب الجبل قد تورطوا فيها، فقد جرت انتخابات تكميلية نتج عنها أن أصبح كل نواب الجبل الأربعة بعثيين، إلا أن العامل الحاسم في نجاحهم كان لا يزال مكانتهم العائلية.

وقد حاول النظام الناصري أن يطور هذا الوضع باتجاه اختيار ممثلي الجبل في مجلس الأمة من عناصر لم تكن محسوبة على الوجاهات العائلية والاقطاعية التقليدية، إلا أن الأسلوب الديكتاتوري المتسلط قد أضعف الآثار الإيجابية للاختيارات الناصرية ولوّن كل الإجراءات التي تمت في عهد الوحدة بلون القسر والإكراه. وذلك مما حدد من أثرها في عملية التطور التي كان لابد للجبل أن يمر بها، عملية التطور في بنيانه السياسي من مجتمع عشائري وعائلي وطائفي إلى مجتمع حديث متمدن يقترب مما كانت عليه التركيبة السياسية في دمشق وغيرها من المدن السورية على الأقل. وعندما أصبحت مُنخرطا في عملية إعادة تنظيم الحزب في الجبل، ومن مركزي كعضو في قيادة الفرع، كنت مصمما أن تأتي إعادة التنظيم هذه المرة بحزب جديد في أسلوب عمله بين الناس من اعتباره حزبا سياسيا وليس جمعية للمثقفين. وكان وضعي الحزبي يساعد كثيرا على إنجاز هذه المهمة التي حددتها لنفسي وللحزب معا. فقبيل حل الحزب كنت قد انتخبت أمينا لشعبة الطلاب، والتي كانت من حيث العدد تتجاوز أربعة أضعاف كل أعضاء الحزب في المحافظة. وكانت قد مرت أربعة سنين تقريبا على ذلك، فكان طلاب الأمس قد أصبحوا أكثرية الطبقة المتعلمة في الجبل. وكان منهم غالبية المعلمين والموظفين وأصحاب المهن الصغيرة في كل المحافظة. ولم تكن السنوات الأربعة التي مضت تكفي لتقطع صلات الصداقة والزمالة التي نمت وتعمقت بيننا أثناء فترة الدراسة، والتي حافظنا عليه بقدر الإمكان، خاصة أن الجو الاجتماعي في المحافظة كان يساعد على ذلك. ولو نظرنا إلى الطابع السياسي العام الذي كان يطبع الجبل في أوائل الستينيات، لوجدنا أن أهل الجبل كانوا قد وجدوا في الوحدة حلا حقيقيا لنوع من الانفصام في الشخصية السياسية للجبل. فالجبل ساهم تاريخيا في مقاومة العهد العثماني ومحاربة الانتداب الفرنسي مساهمة تفوق حجمه السكاني. ولم يجد خلال العهد الوطني اعترافا له بمساهمته المتميزة، وظلت معظم المرافق العامة في الجبل دون تطوير كما كانت أيام الانتداب. لكن عهد الوحدة كان قد بدأ يطور المرافق العامة من طرق وتنوير وتصنيع حتى بالرغم من تعاقب الجفاف في سنوات الوحدة الثلاث. وهكذا فقد كان للجبل حنين خاص إلى عهد الوحدة، يشترك فيه مع كل سورية بتطلعها التاريخي لإعادة الوحدة العربية حضاريا وسياسيا، وبتميز فيه يختلف عن المناطق السورية الأخرى. وذلك بكون عهد الوحدة قد بدأ يبني في الجبل مرافق حديثة تجعله مساويا لغيره من المناطق السورية. ومع أن عهد الانفصال في نصفه الثاني، وبعد أن حكم الجيش حكما مباشرا، كان قد جعل من ابن الجبل الجنرال عبد الكريم زهر الدين رئيسا للدولة من الناحية الرسمية. إلا أن هذا التعيين لم يستطع أن يغيّر شيئا من نظرة أهل الجبل إلى عهد الانفصال واحتقارهم له، أو

أن يقلل من حنينهم للوحدة مع مصر. وتأتي هنا الفرصة التاريخية للحزب ليبني نفسه كحزب سياسي في هذا الجو المواتي، والذي كنت شخصيا أعيه ربما أكثر من أي بعثي آخر في الجبل. ومع إخلاء سبيلي وطردي من وظيفتي كمدرس (أواخر تشرين الثاني ١٩٦٢)، أصبحت من الناحية الواقعية الوجه السياسي لحزب البعث في الجبل، لأنني وحدي كنت قادرا على تكريس كل الوقت للنشاط الشعبي والحزبي. وذلك ما مكننا في الجبل أن نجعل من المحافظة معقلا للبعث في وقت قصير جدا. ثم أن نستفيد من قرب المحافظة من دمشق لنوظف شعبيتنا في الجبل في إبراز الطابع الشعبي للحزب أثناء المواجهات اللاحقة بيننا وبين الناصريين في دمشق بعد انقلاب آذار ١٩٦٣ كما سيأتي.

في الشهور القليلة التي أمضيتها عضوا في قيادة فرع السويداء، كان الحزب يقترب فيها بسرعة فائقة من بلوغه الحد الأدنى من الهيكل التنظيمي الذي يحتّم إجراء انتخابات حزبية فيه. إذ أن النظام الداخلي للحزب كان يشترط أن يتكون (الفرع) من ثلاثة شعب على الأقل، وأن تتكون كل شعبة من ثلاثة (فرق)، والفرقة من ثلاث حلقات. ولا يجوز أن ينقص عدد أعضاء الحلقة عن عشرة أعضاء، وعندما يقترب العدد من العشرين تنقسم إلى حلقتين، وهكذا. ولكن النظام لم يضع حدا للحد الأعلى لتنظيم الفرع إذا أن الفروع تتبع تنظيميا التقسيم الإداري للبلاد. ومع انتهاء العام ١٩٦٢، أكمل فرع الجبل الحد الأدنى المطلوب (وبالطبع لم يتوقف نموه عند حدّه الأدنى). وطلبنا من القيادة أن تسمح لنا بإجراء انتخابات حزبية أصولية حسب النظام الداخلي. وكُلّفت بنقل هذا الطلب شخصيا إلى القيادة المؤقتة في دمشق. وكان جواب القيادة أنه علينا الانتظار بعض الوقت حتى تجري الانتخابات الحزبية على مستوى تنظيم القطر كله في وقت واحد. ولم يكن الجواب مقنعا لي، فسعيت لمعرفة الأسباب الحقيقية عن طريق صلات الصداقة الشخصية التي كانت قد تعمقت بيني وبين الرفاق العراقيين الذين كانت القيادة القومية قد أوكلت إليهم الإشراف على تنظيم الحزب في سورية وهم حمدي عبد المجيد وهاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي. أما العضو الرابع فهو علي صالح السعدي، الذي كان قد عاد سرا إلى العراق. وقد علمت من هؤلاء الرفاق أنهم ينتظرون حدثا كبيرا في العراق، ولا يعني هذا إلا ثورة يقودها الحزب، وأن شكل القيادة المؤقتة للتنظيم في القطر السوري لا بد أن يطرأ عليه تعديل أساسي على ضوء ما سيحدث في العراق. وقد أراد هؤلاء الرفاق بالمقابل معرفة كل التفاصيل المتعلقة بنشاطنا في الجبل، والتي جعلت منا واقعيا قوة سياسية شعبية وحزبا علنيا في الجبل، بل الحزب الوحيد تقريبا الذي يتمتع بوجود شعبي حقيقي. فاقترحت عليهم أن يقوموا هم كمجموعة أو كأفراد بزيارة السويداء، وأن

يجتمعوا إلى أعضاء الحزب وعلى كل المستويات التي يرتؤونها. وكانت مناسبة حقيقية لنعمق النقاش حول طبيعة العمل الحزبي ومستوى الانضباط فيه. وقد أخذوا من حيث النتيجة بضرورة مراعاة الانفتاح السياسي الذي ميّز الحزب في سورية فيما مضى واقتنعوا بعدم جدوى ممارسة الانضباط الصارم الذي تسبب على المدى الطويل ضيقا في الأفق السياسي، وتزمتا في الممارسة يتناقض مع الطبيعة الديموقراطية والالتزام الطوعي اللذان يشكلان الأساس في نمو الحزب وكسبه لأعضائه الجدد. وقد عدت إلى السويداء بصحبة الرفيق هاني الفكيكي، الذي اجتمع، كمندوب عن القيادة، بكل أعضاء التنظيم الحزبي في المحافظة، وكانت زيارته هذه فرصة له ليشكل عددا من الصداقات مع حزبيي المحافظة وليكوّن تصورا عمليا عن الإمكانات الهائلة المتاحة لنمو الحزب من حيث العدد ومن حيث الكفاءات العالية. وأصبح لآراء هاني الفكيكي قيمة عملية بعد عودته لدمشق. إذ أخذت القيادة المؤقتة بوجهة نظره، وجعلت من نجاحنا الشعبي في الجبل نموذجا طلبت لكل تنظيمات الحزب في دمشق وباقي المحافظات أن تقتدي به. كما وطلبت القيادة المؤقتة (بناء على إلحاح الرفاق العراقيين كما أظن) أن أستعد للانتقال إلى دمشق والتفرغ النهائي للعمل الحزبي في العاصمة. وقد كنت سعيدا لهذا الطلب، ولم أتردد في المجيء إلى دمشق. وتركت أسرتي في السويداء لبعض الوقت. وقد شعرت بغصة لم أكن أدر ما هو سببها في حينه. وقد تبين لي مع مرور السنين أن تلك الشهور الأخيرة من سنة ١٩٦٢ كانت آخر فسحة لي من الوقت أعيشها في الجبل حيث ترعرعت، وحيث تكونت قيمتي ومبادئي وشخصيتي. وحيث نمت وتطورت معظم الصداقات التي ستعيش معي العمر كله. وفي دمشق، عدت لأقيم بشكل مؤقت في مكتب للحزب كنا قد استأجرناه منذ مطلع ١٩٦٣. وفي الشهر اللاحق، شباط ١٩٦٣، حدثت ثورة الحزب في العراق. فأعطت تنظيمنا في سورية مدّا شعبيا حقيقيا في كل المحافظات، وخاصة في دمشق. وتم الانتقال بالنشاط الحزبي إلى نشاط شعبي علني، وبشكل طبيعي دون أن تحاول السلطات عمل شيء ضدنا. وقد أصبحنا وبشكل طبيعي تقريبا القوة السياسية التي ينظر إليها من الشعب ومن المراقبين السياسيين كبديل منطقي وحتمي للوضع السياسي القائم. وكان الإحساس العام بعد نجاح ثورة الحزب في العراق (٨ شباط ١٩٦٣) أن عهد الانفصال في سورية قد انتهى. وأن البعث، بعد نجاحه في العراق، سيكون حتما القوة الأساسية للتغيير في سورية. وأن أي تغيير منتظر سيكون انتصارا لعبد الناصر وللبعث معا. ومع تنامي هذا الإحساس العام يوما بعد يوم، كانت تتسرب إلى البعث معلومات خاصة تتعلق بنشاط يقوم به العسكريون البعثيون والناصريون في الجيش، والذين كان يطلق عليهم معا اسم الضباط الوحدويين. وربما كان الضابط الأكثر نشاطا

وتحركا بين جميع هؤلاء الضباط الوحدويين العقيد محمد عمران والذي كان قد سُرّح من الجيش مع عدد كبير من الضباط البعثيين بعد قيام الانفصال. وكان قد نُقل إلى مصر قبل ذلك. وعندما كان عمران في مصر أيام الوحدة عمل على تنظيم الضباط البعثيين المتواجدين في مصر، وتألفت منهم القيادة العسكرية التي لعبت الدور الأساسي في قيام انقلاب (٨ آذار ١٩٦٣) في سورية. والتي سميت ب اللجنة العسكرية، وتكونت من (مع حفظ الألقاب) محمد عمران، صلاح جديد، موسى الزعبي، سليم حاطوم، حافظ الأسد، بدر جمعة، عبد الكريم الجندي، محمد رباح الطويل، وناجي جميل. واتفق أعضاء اللجنة فيما بينهم على اعتبار العميد محمد أمين الحافظ رئيسا لتنظيمهم رغم أنه كان غائبا عنهم في مهمات عسكرية خارج الجمهورية العربية المتحدة، ثم خارج سورية أثناء عهد الانفصال. وذلك لما كان يتمتع به من سمعة عالية ولما كان يحظى به من تأييد عسكري شامل على مستوى كل الجيش السوري. ولما وقع الانفصال وعاد كل الضباط السوريين إلى سورية، استمرت اللجنة العسكرية بعملها التنظيمي السري وأسهمت بالتحرك العسكري الذي حدث في شهر نيسان ١٩٦٢، والذي أدى إلى حل البرلمان واستلام الجيش مقاليد الحكم مباشرة. إلا أن الحكم العسكري عندئذ تنبّه للخطر الذي يمثله الضباط البعثيون وتعمد إلى تسريح عدد كبير منهم من الجيش. وكان المسرّحون عناصر اللجنة العسكرية، وهم محمد عمران وصلاح جديد وعبد الكريم الجندي (وحافظ الأسد؟). ولم يؤثر التسريح على نشاطهم ولا على صلاتهم التنظيمية مع الضباط الآخرين الذين ظلوا في الجيش والذين كان من أبرزهم بدر جمعة وسليم حاطوم ومحمد رباح الطويل وموسى الزعبي وعلي مصطفى. إن القائد الفعلي للجنة العسكرية العقيد عمران كان سياسيا فذّا، وخاصة في براعته التكتيكية الفائقة. وقد أعطاه تسريحه من الجيش فرصة لإقامة علاقات سياسية واسعة بكل الأحزاب السياسية المعارضة لعهد الانفصال. وقد عرفت أنا أسلوبه لأنني كنت بين السياسيين الشباب الذين تعرّف عليهم عمران ودخل معهم في حوارات سياسية وعقائدية غنية ومتنوعة. لقد كان يترك انطباعا قويا بأن يُخفي أكثر مما يظهر من المعلومات المتعلقة بالتنظيم والاستعداد للقيا م بانقلاب عسكري. ولكنه في الوقت ذاته، كان يطلب الصراحة المطلقة فيما يتعلق بوجهات النظر السياسية والحزبية المفصلة لدى الذين يتصل بهم. ويمكنني القول على ضوء المعرفة اللاحقة بكل أعضاء اللجنة العسكرية بأن محمد عمران كان أكثرهم وعيا وأشدهم تصميما على ممارسة السلطة. ولم يكن يهتم اهتماما حقيقيا بالعقائد السياسية المتواجدة في الساحة السياسية إلا بمقدار ما تساعده من الناحية العملية على انتزاع السلطة وممارستها. وإن كان لا بد من تحديد هوية سياسية له وبشكل عام فهي أنه كان

وحدويا استجابة لنزوع الشعب في سورية بشكل طبيعي للوحدة. ولكنه لم يكن ناصريا بمعنى أنه لم يكن مستعدا لإنهاء عهد الانفصال من أجل إعادة الوحدة مع مصر والتسليم لعبد الناصر بالقيادة المطلقة كما فعل الضباط السوريون سنة ١٩٥٧ والتي تبين بأن عمران كان يعارضها حتى في تلك السن المبكرة. كما أنه كان منفتحا على أية أفكار تتعلق بالاقتصاد والإدارة سواء سميت اشتراكية أو لم تسمّ. هذه الصفات التي جعلت من عمران القائد الحقيقي للتنظيم العسكري، خلقت له في الوقت نفسه متاعب كثيرة وخاصة بين أعضاء اللجنة العسكرية الذين رأوا في تحركاته واتساع صلاته ومرونته الفائقة ما أخافهم منه، وجعل أكثريتهم فيما بعد تفقد ثقتها به مما كان له آثار مدمرة على عهد ٨ آذار بكامله. وأعتقد أن الخلل الأساسي في علاقة عمران بالضباط الوحدويين، بعثيين وناصريين، أنه لم يكن يحترمهم. وكان يبدو أنه يائس من إمكانية تثقيفهم، وأنه يكتفي منهم بالطاعة التي يتربى عليها العسكريون. ولذا فإنه قد وقع في تناقض قاتل أطاح بهذه العلاقة. فهو يدعو الضباط إلى القيام بانقلاب عسكري، أي إلى القيام بعمل حر، والذي هو النقيض المطلق للطاعة والانضباط العسكريين. ومع هذا فبدلا من أن يحاول جادا لتثقيف هؤلاء الذين ينظمهم سياسيا وعقائديا، كان ينتظر منهم مجرد الطاعة التامة. ولما نجح تخطيطه بقيام انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ وأصبحت الحاجة ماسة للتوسع وجذب أكبر أعداد ممكنة للتنظيم. فقد قلّد قياديو الصف الثاني من العسكريين، حافظ أسد ومحمد رباح الطويل وسليم حاطوم وعبد الكريم الجندي أسلوب عمران في اجتذاب أعداد جديدة للتنظيم دون أية توعية سياسية مع الحرص على الطاعة والانضباط العسكريين. الأمر الذي قاد، وغالبا دون وعي، إلى سعي كل واحد منهم لتوسيع التنظيم بين الضباط المنحدرين من طائفته هو، حيث توفر الخلفية الطائفية المشتركة رصيدا جاهزا من التعلق الشخصي بالضابط الذي نجح وأصبح واحدا من الحكام. ويتوفر عندئذ شرط الطاعة ذات المظهر العسكري والمحتوى الطائفي. وشيئا فشيئا، وتقريبا دون أن يعي أحد لما يحدث، فقد أخذ الحكم الجديد الذي يرفع شعارات البعث العربي الاشتراكي وهي الأهداف الكفيلة بالوصول بالأمة العربية إلى العلمانية، أخذ هذا الحكم يتحول بنظر الأكثرية من المواطنين إلى حكم الأقليات الطائفية. وبالطبع فقد أسهمت عوامل كثيرة أخرى في دفع سورية في هذا الاتجاه الخطير على الحاضر والمستقبل السوري والقومي نظرا للدور التاريخي الخاص الذي لعبته سورية في عملية الوعي القومي العربي. وتجدر الإشارة إلى أن هناك قطعا عوامل أخرى أسهمت في دفع سورية إلى هذا التدهور وربما كان أهمها:

١ـ صلاح جديد والذي تعمدت إغفال اسمه بين قادة الصف الثاني لأنه كان قطعا أوعاهم جميعا. وقد تميز بصفات نادرة تؤهله لقيادة عمل سرّي كبير، أو لقيادة بيروقراطية أكبر حجما من البيروقراطية السورية العسكرية والمدنية معا. كان يجيد الإصغاء، ونادرا ما يتكلم، ويحسب بدقة حساب الكلمة أو الفعل الذي يباشره. وحتى إذا تكلم فقد كان يحرص على أن يأتي كلامه وكأنه يبوح لمن يكلمه بسرّ خطير يجعله يهمس به همسا. وخلافا لمعظم قادة الصف الثاني، فقد كانت حياته الشخصية تتميز بالعفة والطهارة الظاهرين. فهو خلافا لهم كان لا يقترب من الكحول أو السهرات الصاخبة، ولا يجالس أحدا في المقاهي أو البارات أو الملاهي، ولا يستقبل زواره إلا في مكتبه أو بيته. وكان باختصار ذا سمعة شخصية نزيهة ونظيفة، ويحرص جدا ألاّ يطلب من غيره عيش الحياة الزاهدة القنوعة التي يحييها هو. وإذا ناقشه أحد في العقائديات، فكان دائما يجد طريقة ما ليبدو مقتنعا بما يعتقده مُحدّثه. ذلك مما يترك انطباعا عند معظم معارفه ومحاوريه بأنه يؤمن بما يؤمن به كل واحد منهم. هذه الصفات مجتمعة خلقت له هالة من الاحترام عند كل معارفه، ووصلت إلى شيء من التقدير عند معضهم. وقد جعلت منه المنافس الطبيعي لمحمد عمران، وبالتالي الحليف الطبيعي لكل من كان يخشى عمران ويشكك في نواياه، وينتقد انفتاحه السياسي الكبير على غير البعثيين من السياسيين والمثقفين ومن كل العناصر المؤهلة لتلعب دورا قياديا في أي مجال من مجالات الحياة العامة. ويبدو من نظرة شخصية وموضوعية إلى تلك الشهور الأولى التي أعقبت ٨ أذار ١٩٦٣، أن صلاح جديد قد لعب دورا بارزا في إضفاء الصيغة الطائفية على النظام. وكانت مسؤوليته واضحة على الأقل في حقيقة أنه تساهل مع الضباط من أبناء طائفته وممن كان ينظر إليه على أنه القائد الحقيقي لثورة ٨ أذار. وحتى عندما أصبحت الطائفية والتوجه الطائفي قضية سياسية لابد من مواجهتها، اختار صلاح جديد كسب الشعبية عبر الطريق الطائفي السهل والرخيص.

٢ـ ضعف حزب البعث نسبيا في المدن بالمقارنة مع قوته في الأرياف. وقد كان لهذه الظاهرة أسبابها التاريخية فالمدن مأهولة بالسكان الميسورين نسبيا (كان التجار والموظفون هم أبرز الشرائح الاجتماعية في المدن)، وغالبية سكان المدن ينتمون دينيا إلى السنة بينما يستقر السكان المنتمون للطوائف الاسلامية في المناطق الجبلية والنائية. وقد نجح حزب البعث أولا بين المثقفين. وعندما انتقل هؤلاء المثقفون إلى مناطقهم الخاصة، وجد مثقفو الأرياف أمامهم فرصا لنشر مبادئ الحزب في مناطقهم أكبر من تلك الفرص التي وجدها مثقفو المدن من البعثيين لنشر مبادئهم في

المدن، وخاصة في العاصمة دمشق التي كانت تتجمع فيها كل الأحزاب السياسية العاملة، ويعيش فيها السياسيون القادمون من الأرياف كذلك. وبكلام آخر، فإن المدن كانت تمتلئ بالأحزاب وبالسياسيين، بينما كان الريف يعاني فراغا واضحا من السياسيين المهتمين بالقضايا الوطنية العامة. وتمكن البعثيون لذلك من ملئ الفراغ في الأربعينيات وفي الخمسينيات، وأصبحت قوة الحزب خارج المدن أكبر نسبيا مما هي عليه داخلها. ولما تفرد حزب البعث بالحكم في ٨ أذار كما سيأتي بيانه لاحقا، كان أسهل نقد يوجهه أهل المدن إلى أنه حزب الفلاحين أبناء الطوائف، ولم يكن هذا النقد بعيدا عن الواقع الموضوعي.

٣ـ قام بالانقلاب العسكري في ٨ أذار ١٩٦٣ ثلاث تنظيمات عسكرية والمتمثلة باللجنة العسكرية المؤلفة من بعثيين سابقين، والضباط الوحدويين وهم عدة كتل يجمعها الولاء لعبد الناصر، وكتلة الحمويين وتتألف من مجموعة يقودها زياد الحريري ومع أنها تضم ضباطا من غير حماة إلا أن أكثرية عناصرها تنحدر من حماة. ومع أن اللجنة العسكرية (البعثيون) لعبت الدور الأكثر نشاطا واضطلعت من الناحية العملية بالتحضير للانقلاب والتنفيذ العملي، إلا أنه ما كان لها أن تنجح وحدها، وكان لا بد لها من الاستعانة بالكتلتين المتقدم ذكرهما، خاصة أن معظم أعضاء قيادة اللجنة العسكرية كانوا مُسرّحين من الجيش مثل محمد عمران وصلاح جديد وعبد الكريم الجندي. فكان لا بد من قيام هذا التحالف العسكري الثلاثي وكان واضحا بعد ٨ آذار أنه لا بد لهذا التحالف أن ينفرط عقده لخلوه من الانسجام الفكري، ولأن قياديه يرى كل منهم نفسه أنه الأكفأ والأخص. وباعتبار أن كتلة البعثيين السابقين وجدت لها غطاء قوميا وسياسيا ضخما في العراق البعثي الجديد وفي حزب البعث على صعيد سورية وعلى الصعيد القومي، وأن الكتلة الوحدوية وجدت غطاء سياسيا هائلا في شخص عبد الناصر وفي ذكريات الجمهورية العربية المتحدة، فقد بدأ التنافس بين الوحدويين والبعثيين من العسكريين ومن اليوم الأول تقريبا لنجاح ٨ أذار. وقد حاولت قيادة حزب البعث، وخاصة الاستاذ صلاح البيطار، والذي اتفقت الكتل العسكرية الثلاثة على تكليفه بمهمة تشكيل أول وزارة بعد ٨ أذار. لقد حاولت قيادة البعث ومعها الاستاذ البيطار الإبقاء على هذا التحالف العسكري الثلاثي وبكل وسائل الضغوط والإقناع، لكن جميع هذه المحاولات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية. حيث كان التناقض واضحا بين نظرة حزب البعث ونظرة اللجنة العسكرية لهذا التحالف العسكري. فالبعث كان يعتقد أن بقاء التنافس بين الكتل العسكرية الثلاثة قد يقلل من نفوذها معا على العهد الجديد، ويبتعد بحركة ٨ أذار شيئا فشيئا عن كونها انقلابا عسكريا ليكون

فاتحة لعهد جديد يعود بالصحوة القومية العربية إلى تألقها وتأثيرها السياسي الرائع على الصعيد العربي كله بعد أن وجه الانفصال طعنة غادرة ورهيبة لهذه الصحوة. كما كانت قيادة البعث تأمل في أن تقوم الجمهورية العربية من جديد بعد أن يتم التفاهم مع عبد الناصر على شكل الدولة الجديدة وشكل مؤسساتها الدستورية التي تضمن عدم تكرار الأخطاء القاتلة التي وقعت بها حكومة الوحدة والتي مكّنت لجريمة الانفصال أن تنجح. ولم تكن قيادة البعث تشعر بأن البعثيين العسكريين مرتبطون جديا بها رغم اعترافهم هم بهذا الارتباط. وذلك لأنهم قاموا وحدهم بالتحضير للانقلاب وتنظيمه دون العودة للقيادة. وكما كانت قيادة البعث تعلم أن نجاح الحزب بقيام ثورة ٨ شباط في العراق هو الذي جعل الكتل العسكرية الثلاثة تلجأ لحزب البعث أولا، ولشخص الأستاذ صلاح البيطار ليتولى قيادة حكومة العهد الجديد. ولكن هذا التحالف العسكري قد حافظ على مسافة كافية بينه وبين البعث. فلم يقبل إلا أن يكون المركز الأول في الدولة (رئاسة الدولة) لضابط عسكري. وقد كان حرص التحالف العسكري على أن يحتل عسكري مركز رئاسة الدولة، وتسليم حزب البعث وغيره من السياسيين الذين تعاونوا مع العهد الجديد للعسكريين بهذا المطلب أحد الأسباب الخطيرة التي أججّت الصراع بين الكتلتين العسكريتين البعثية والوحدوية، وجعلتهما تقبلان بضابط حيادي من خارج تنظيمها ليحتل منصب رئاسة الدولة باعتباره صاحب أعلى رتبة عسكرية. وبشخص ثان من خارج تنظيمهما كذلك ليحتل منصب رئاسة أركان الجيش فأصبح بعد ٨ أذار الفريق لؤي أتاسي رئيسا للدولة واللواء زياد الحريري رئيسا للأركان. وتوزع التنظيمان البعثي والوحدوي على المراكز العسكرية التي ظن كل منهما أنه يستطيع أن يستخدمها للتغلب على الطرف الآخر. وقد بادرت الكتلة الناصرية بتفجير الصراع بين العسكريين في ١٨تموز ١٩٦٣، إذ حاولت القيام بانقلاب عسكري وتحرك شعبي في آن واحد، بعد أن كانت قد جرّبت المواجهة الشعبية ضد البعثيين في عدة مناسبات سبقت ١٨تموز. وكان أبرزها تلك المواجهة الصاخبة أثناء زيارة أحمد بن بلاّ إلى دمشق في صيف ١٩٦٣. ولكن وكما فشلت المواجهات الشعبية السابقة، فشلت محاولة انقلاب ١٨تموز. وكانت الفرصة التي تنتظرها الكتلة العسكرية لتضرب ضربتها وتقصي كل الضباط الناصريين من الجيش (باستثناء الذين ينتمون للطائفة العلوية). وبعد وقت قصير أثناء زيارة حكومية رسمية للجزائر، ضربت الكتلة البعثية ضربتها الثانية وأقصت اللواء زياد الحريري والضباط البارزين المحسوبين عليه من الجيش، فأصبحت الكتلة العسكرية البعثية وحدها المسيطرة على الجيش. ورافق ذلك استقالة أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة من الناصريين واستقالة الوزراء الناصريين والمتعاطفين مع زياد

الحريري. ولم يبق على الساحة السياسية الشعبية سوى البعث العربي الاشتراكي. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار بأن الأكثرية الساحقة للكتلة الناصرية العسكرية وكل الكتلة الحموية كانوا تقريبا جميعهم من المسلمين السنة، تتضح الأسباب التي جعلت أكثرية الناس في سورية قابلة للاعتقاد بأن الصراع الذي شهدته الشهور الستة التي أعقبت ٨ آذار إنما كان صراعا طائفيا تغلبت فيه قوى الأقليات الطائفية، التي استبدت وحدها بالحكم وأقصت الأكثرية السنية عن الجيش والحكم معا. وساد بعدها توقع طبيعي أنه لا بد أن تصطدم هذه القوى الطائفية بعضها بالبعض الآخر لتخلو الساحة أخيرا لواحدة منها وقد أتت الأحداث اللاحقة لتعطي مع الأسف مصداقية لهذا التوقع. ولكن الأمر المثير للاستغراب هو أن قيادة حزب البعث لم تنظر إلى هذا التدهور والانحدار نحو الطائفية في وقت مبكر، وعندما كانت قادرة أن تنقذ حزب البعث على الأقل من الوقوع في فخ الطائفية السياسية، حتى وإن كانت ظروفها وظروف انقلاب ٨ آذار قد وضعتها في موقف كان فيه إنقاذ سورية من الانحدار الطائفي يبدو صعبا، ويقترب من الاستحالة. إلا أن الصعوبة، وحتى الاستحالة، ما كان لها أن تمنع قيادة البعث من المحاولة في وقت مبكر. وعندما حاولت لاحقا، كانت إمكانيات النجاح قد تبخرت تقريبا، وكما سيأتي بحثه فيما بعد.

لقد تجاوزت الرواية المتسلسلة تاريخيا لوضعي ووضع الحزب بعد أ ن انتقلت إلى دمشق، ليتبيّن للقارئ كيف أن التفاصيل التي سأسعى إلى روايتها بالدقة والأمانة المطلوبتين قد أدت بشكل يكاد يكون حتمي ودون وعي الأشخاص المشاركين بها إلى تلك النتائج المأساوية على الصعيدين الوطني والقومي، أعني انحدار عهد ٨ آذار الذي شارك به حزب البعث لبعض الوقت إلى نظام يعتمد على الطائفية أساسا وحيدا للعصبية التي لا بد منها لحماية النظام، ولأثر ذلك على العمل القومي العربي كما سيأتي بحثه فيما بعد.

عودة لرواية الوقائع عندما انتقلت إلى دمشق في مطلع ١٩٦٣

كما أسلفت بقيت عائلتي في السويداء، وأصبح كل وقتي وكل جهدي مكرسا للعمل الحزبي والذي كان هدفه بقرار واع من القيادة القطرية المؤقتة بأن نصل بالتنظيم الحزبي في دمشق إلى مستوى الفرع، وبأقصر زمن ممكن حتى تتم الانتخابات الحزبية ويختار الحزب قيادة قطرية له. ومع أنني لم أعين عضوا في القيادة القطرية المؤقتة وإنما عضوا في قيادة فرع دمشق، فإنني لم أكن بعيدا عن أجوائها وذلك بحكم صلتي الوثيقة بالرفاق العراقيين وبالأستاذ صلاح البيطار الذين كانوا

أبرز أعضاء القيادة المؤقتة. وقد علمت منهم أن السرعة المطلوبة في الوصول بالتنظيم الحزبي في دمشق إلى مستوى فرع كبير هو الحدث السياسي المتوقع قيامه في العراق والآثار السياسية المترتبة عليه في سورية، وعلى الوضع الشعبي للحزب كذلك. وفور انضمامي إلى قيادة فرع دمشق، شرحت لرفاقي في قيادة الفرع النجاح الذي حققناه في السويداء وأننا يجب أن نقوم بعمل مشابه له في دمشق أي أن نربط النمو العددي للحزب بالعمل السياسي الشعبي المباشر لأنه وإن كانت تنقصنا في دمشق القاعدة الشعبية المتوفرة لنا في السويداء فإن وجود الجامعة السورية هنا يعطينا فرصة سياسية حقيقية لنضخم دورنا الشعبي ولنسهل بذلك مهمتنا الحزبية باكتساب أعداد جديدة للحزب بين أوساط دمشقية شعبية. وكان يقتضي نجاح هذه الخطة أن يقوم الرفاق الدمشقيون بالمهمات العلنية وشبه العلنية لكي يرسخ في الأذهان أن حزب البعث العربي الاشتراكي في عاصمة البلاد ليس حزبا مستوردا من خارج العاصمة. وقد أخذت قيادة الفرع وبشكل طبيعي بهذا التوجه. ولكن عملية التنفيذ لم تتم بالسهولة النسبية التي تحدثنا عنها في السويداء. ذلك لأن عدد الأفراد المؤهلين لقيادات سياسية في دمشق كان محدودا، فالأستاذ صلاح البيطار قائد حزبي وسياسي على الصعيد القومي كله، ولا نستطيع أن ننتظر منه القيام بالأعمال التنفيذية والتحضيرية التي لابد منها لتوسيع الحزب من حيث عدد الأعضاء، ومن حيث اكتساب الشعبية. والرفيق نسيم السفرجلاني، زميلي في الدراسة الجامعية وفي قيادة فرع دمشق، كان عند بدء التنظيم الجديد سنة ١٩٦٢ قد بدأ خدمته العسكرية الإلزامية. ولم يبق من أمثال هؤلاء إلا القائد النقابي خالد الحكيم، والذي لم يكن دمشقيا تماما. فهو بالأساس من دوما ونشاطه الحزبي كان مركزا على توسيع الحزب في محافظة دمشق، أي في المحافظة المحيطة بالعاصمة، والتي سمّي فرع الحزب فيها فيما بعد فرع الأطراف. كما أن الحقل الأساسي والطبيعي لخالد الحكيم كان العمل النقابي، إذ أنه كان رئيسا لاتحاد العمال في سورية منذ أيام الوحدة، وكان له الدور القيادي المعروف في قيام اتحاد العمال العرب. وكانت مهماته النقابية لذلك تأخذ معظم وقته، وكانت القيادة القطرية المؤقتة تطلب من خالد استمرار النجاح في الحقل النقابي، حتى ولو تم ذلك على حساب المهمات الحزبية الأخرى. ولم يكن قد انضم للتنظيم الحزبي بعض القياديين السابقين الذين كان يمكن لهم أن يعطوا للحزب الوجه الشعبي المطلوب، أمثال الأستاذ رياض المالكي وعبد الرحمن المارديني وبشير صادق. ولهذه الأسباب فقد تعثر نمو الحزب شعبيا وسياسيا في دمشق بالرغم من الجهد البطولي الذي بذله كل أعضاء قيادة الفرع، وكل الأعضاء الذين انضموا في حينها للتنظيم. إذ أنه ظلت الأكثرية الساحقة في التنظيم الدمشقي حزبين غير دمشقيين. ويمكن القول إن نجاحنا الشعبي كان

ملحوظا فقط في الجامعة السورية. حيث كان الرفيق طارق أبو الحسن يقود العمل الحزبي بالتوجه الذي أرادته قيادة الفرع، والذي حقق فيه نجاحا هائلا قطف الحزب ثماره بعد قيام انقلاب ٨ آذار. ولم أكن وحدي الذي انصرفت للعمل الحزبي والسياسي بكل طاقتي في تلك الشهور الحاسمة الأولى من سنة ١٩٦٣، بل إن كل الأعضاء الذين انضموا للتنظيم كانوا من العناصر القيادية قبل حل الحزب في ١٩٥٨، والذين قبلوا العودة للتنظيم تحركهم آمال عريضة في أن ينهض الحزب من كبوة حله. وأن يستعيد ما كان له من زخم وبريق كفيلين بتحريك طاقات الأمة كلها لتحقق الأهداف القومية التي يؤمن الجميع بها. ولا نستطيع أن ننسى أن الحزب بعد حله قد توزع أعضاؤه من الناحية العملية على ثلاث اتجاهات كما تقدم ذكره ناصرية، وقطرية، وقومية، وأن المجال المفتوح أمام التنظيم كان يبدأ بالاتجاه القومي، ويخوض في الوقت نفسه صراعا سياسيا ضد الاتجاهين الناصري والقطري. وبينما كان الاتجاه الناصري يؤسس تنظيمات سياسية جديدة لا علاقة لها بالبعث، كان الاتجاه القطري قد بدأ تنظيما سياسيا أعطاه اسم البعث، وأرادت قيادة القطريين أن تستعيد حزب البعث القديم بعد التخلص من القيادة التاريخية (ميشيل عفلق وأكرم الحوراني وصلاح البيطار) مع احتفاظها بود واحترام خاصين بأكرم الحوراني. إذ أنها في مجال النظرة القومية، وخاصة إزاء هدف الوحدة وشخص عبد الناصر وفي مجال السياسة الداخلية، كانت تتبنى سياسته بالمطلق. أي أنها كانت تؤيد الانفصال من حيث المبدأ وتركز على هدف الاشتراكية وحده من أهداف البعث، ولا تقيم وزنا للتوجه القومي أو لدور سورية الريادي في المضمار العربي. وكانت من الناحية السياسية أقرب للحزب الشيوعي السوري منها لحزب البعث العربي الاشتراكي. إذن كان على تنظيمنا أن ينمو عدديا وسياسيا في أجواء صراع صاخبة وشبه عنيفة أحيانا، وكنت دائما أعتقد بأن الصراع السياسي لا بد منه لنمو الحزب واشتداد عوده، وقد خضنا هذا الصراع بجرأة وإقدام. وعندما كنا نشعر أن عدونا قليل كنا لا نتردد في استقدام أعضائنا وأنصارنا ومؤيدينا من المحافظات الأخرى، وخاصة من السويداء. كنا نريد أن نؤكد أن هذا التنظيم البعثي، تنظيمنا، هو الوحيد الممثل لمبادئ الحزب، وهو الأكثر اجتذابا لشعبنا وأكثر التصاقا به. وأن البرهان الحي الملموس على ذلك هو قدرتنا في السيطرة على الشارع السياسي، واغتنام أية مناسبة لنؤكد برهاننا بالتكرار، وكثيرا ما حدث أن استعننا بأعضاء حزبنا ومؤيديه من خارج دمشق لنقود مظاهرات شعبية ضخمة مؤيدة للشعارات التي ترفعها القيادة القطرية المؤقتة، أو لإحياء ذكرى قومية ما. ولم يطل الأمر حتى لجأت التنظيمات السياسية المعارضة لنا، وخاصة التنظيمات الناصرية، لنفس الأسلوب، وأخذت تفعل كما نفعل وتستقدم أنصارها ومؤيديها

للاشتراك في هذه المظاهرات. وهكذا فقد أصبحت المظاهرات المتكررة في دمشق نوعا من الاستفتاء الشعبي على مستوى القطر كله لاختبار أي من الأحزاب السياسية القائمة يحظى بأكبر تأييد شعبي. وقد تمكنا بين ٨آذار و١٨تموز ١٩٦٣، أي خلال خمسة أشهر فقط، أن نتغلب في الشارع السياسي على كل التنظيمات المعارضة لنا، وأن نعيد لسورية تلك الحيوية السياسية العذبة التي طبعت حياتها السياسية في الخمسينيات، وجعلت منها بحق قلب العروبة النابض على حد تعبير الرئيس جمال عبد الناصر. ولم يكن الصراع السياسي في هذه الشهور الخمسة مقتصرا على المظاهرات الشعبية، وإنما كانت عشرات الصحف اليومية والأسبوعية والتي عادت كلها إلى الصدور تخوض هذا الصراع كذلك. وكانت المقاهي والنوادي وأي مكان عام يلتقي فيه الناس ميدانا للنقاش، والذي تركز كله تقريبا حول علاقة سورية بالوحدة. ولم يعد ممكنا من وجهة نظرنا أن تقتصر الخطوة الوحدوية المطلوبة على إعادة الوحدة بين سورية ومصر والاكتفاء بمجرد عودة سورية دستوريا إلى الجمهورية العربية المتحدة، الاسم الذي احتفظت به مصر. وظل له دلالة واضحة على أن نظام عبد الناصر لا يزال، بالرغم من اعترافه الر سمي باستقلال سورية بعد الانفصال في أيلول ١٩٦١، يعتبر الجمهورية العربية المتحدة قائمة بإقليميها الشمالي والجنوبي. وكان لم يعد ممكنا باعتقادنا الاقتصار على وحدة سورية ومصر فحسب، بعد أن قامت ثورة البعث في العراق وجعلت قيام وحدة ثلاثية أمرا ممكنا. وربما كان بزوغ هذا الأمل الواضح بإمكان توحيد مصر وسورية والعراق في دولة واحدة هو الذي أعطى لحزب البعث القومي كل هذا التأييد الشعبي على صعيد سورية، وربما على صعيد الوطن العربي كله. ذلك لأن واقع العرب الذي كان قائما آنذاك لم يكن مقبولا، وكانت أكثرية المثقفين العرب تعتبر التجزئة القائمة امتدادا لفترة الاستعمار الغربي، أي امتداد للإذلال والقهر والظلم الذي تعرضت له أمتنا بصورة أبشع مما تعرضت له أية أمة في كل العالم من تلك الأمم التي أصيبت بذل الاستعمار الغربي. أما إذا تجاوزنا الطبقة المثقفة وأصغينا إلى حس الجماهير الشعبية، فإن التطلع للوحدة العربية كان كاسحا وشاملا لكل طبقاتها. ولم يحدث في أي بلد عربي بعد استقلاله أن نشأت لدول التجزئة التي خلفّها الاستعمار وراءه أية عصبية وطنية. وقد تُستثنى مصر من هذه القاعدة العامة، وذلك بالنظر لحجمها السكاني ولأنها خضعت للاستعمار البريطاني لفترة أطول تاريخيا. وأتى وجودها كدولة مستقلة فعليا سابقا لسقوط الإمبراطورية العثمانية. ولكن وما كادت ثورة ١٩٥٢بقيادة جمال عبد الناصر تعلن عن توجهها العربي، حتى تلقفت مصر-الشعب كلها هذا التوجه العربي. حتى وأصبحت، وبشكل عفوي، مركزا لهذا التوجه القومي، وأصبح عبد الناصر، وخاصة بعد حرب

١٩٥٦، رمزا لصمود الأمة وقائدا لتطلعها الوحدوي كما تقدم. وقد أخذ الصراع السياسي في الفترة التي نعالجها هنا (آذار – تموز ١٩٦٣) طابعا جديدا، ولكنه مفعم بالحيوية والأمل. وكان السؤال الذي يطرح نفسه على أذهان كل العاملين في السياسة هو: لماذا الاكتفاء بعودة سورية إلى ج.ع.م إذا كان ممكنا قيام وحدة ثلاثية تضم مصر وسورية والعراق في آن واحد؟ كان الحلم الجديد يبدو ساطعا يغشى العيون وتنفتح له القلوب والعقول. ولم يكن أحد قادرا على الوقوف صراحة ضده، لا من حيث المبدأ ولا من الناحية العملية المحضة.

انتقلت نهائيا إلى دمشق في الشهور الأخيرة من سنة ١٩٦٢، وظل بيتي في السويداء، ولكن بشكل مؤقت (في دار جميل شيّا). وأصبحت عضوا في قيادة فرع دمشق وكانت المهمة الأولى المطلوبة مني أن انقل تجربة العمل الشعبي الناجحة جدا إلى دمشق كما شرحت ذلك فيما تقدم. ولكن وما أن وقع حدث ٨شباط في العراق، تعاظمت التوقعات الشعبية بأن نهاية الانفصال أصبحت وشيكة. ولم يكن أحد يتوقع أن يأتي سقوط الانفصال على غير يد حزب البعث. ولم يمض سوى شهر واحد حتى تحققت توقعات الناس، وأصبح البعث شريكا أساسيا في السلطة كما تقدم. وكانت الحاجة الملحة لمسابقة الزمن لإعادة بناء الحزب، وفي فترة قصيرة. ولو كانت عملية بناء الحزب تتم بمؤتمر شعبي أو بتجمع للعناصر القيادية السابقة، لكان الأمر سهلا. ولكن عملية بناء الحزب كان لا بد وأن تتم وفقا لقرارات المؤتمر الخامس، وبإشراف قيادة القطر العراقي. ووفقا لتجربة نمو الحزب في العراق وبما تميزت من دقة في مراعاة التماسك التنظيمي وحرص شديد على السرية والانضباط. الأمر الذي كان يزيد من الضغوط على الأعضاء الذين انتظموا في الحزب من جديد، خاصة وأن الأجواء السياسية السائدة في سورية كانت تتسم بالانفتاح والحوار وبكل ما يناقض السرية والانضباط. وقد أعطانا النجاح الهائل لتنظيم فرع السويداء من خلال الانغماس بالنشاط السياسي المباشر برهانا عمليا يقضي بأن يعاد بناء كل التنظيم الحزبي في سورية من خلال النشاط الشعبي المباشر. وكان انتقالي النهائي إلى دمشق جزءا من المحاولة التي باشرت بها القيادة القطرية المؤقتة لتعميم أسلوبنا الناجح في الجبل على كل محافظات القطر. ولكن الزمن المتاح للحزب ليعيد بناء تنظيمه على مستوى القطر ككل كان زمنا قصيرا ومتبسرا. ولما وقع انقلاب ٨ آذار كان الحزب في تنظيمه الجديد لا يزال حزبا وليدا لم يصل تنظيمه إلى مستوى الفرع في كل المحافظات السورية. ولذلك وقبل نهاية آذار ١٩٦٣، شكلت القيادة القومية هيئة قيادية جديدة للحزب في سورية أسمتها القيادة القطرية الموسعة، والتي تشكلت من أعضاء القيادة القطرية

المؤقتة وعدد من الأعضاء الجدد وكنت واحدا منهم، وأصبحت هذه الهيئة الجديدة كما يلي: الأستاذة ميشيل عفلق وصلاح البيطار، شبلي العيسمي، خالد الحكيم، الوليد طالب، سامي الجندي، طارق أبو الحسن، راتب النشواتي، أسعد أسطواني، محمد بصل، وأنا (ولربما كان غياب اسم منصور الأطرش عن هذه القيادة، لأنه سمّي عضوا في قيادة القطرين). وكانت المهمة العاجلة المطلوبة من القيادة الجديدة أن تستكمل بناء التنظيم الحزبي في سورية على مستوى القطر كله وبأسرع وقت ممكن. ثم كلفت القيادة الموسعة لجنة برئاستي لتقوم بجولة على كل محافظات القطر لاستكمال التنظيم. رافقني محمد بصل، وأعتقد بأنه أيضا كان معنا راتب النشواتي. وزرنا حمص وحماه واللاذقية وحلب، والرقة، ودير الزور، والجزيرة. ولم تكن مهمتنا سهلة إذ كان لا بد علينا أن نأخذ بالاعتبار إلى جانب السرعة المطلوبة التاريخ الشخصي للبعثيين السابقين الذين ندعوهم للعودة إلى التنظيم، وأن نستعد للإقبال المشابه للطوفان الذي صادفناه أينما توجهنا. إذا كان لا بد من استبعاد العناصر المعروفة بانتهازيها في عهدي الوحدة والانفصال. وأيضا العناصر التي تحمسّت للتنظيم القطري، والتي أصبح ولاؤها للفكر القومي مشكوكا به. ومع هذا فقد نجحنا بأن شكلنا التنظيم في كل محافظة زرناها بحده الأدنى على الأقل ليصبح فرعا. وكانت أصعب المناطق علينا المناطق التي يقوى فيها القطريون، خاصة دير الزور واللاذقية وحماة. ولذلك فقد نجحنا في أن نؤجل قبول القادة البارزين من هذه المحافظات أمثال عبد البر عيون السود من حمص، وهيب الغانم، سليمان الخش، ومنير العبد لله وغيرهم من اللاذقية. كما واستبعدت العناصر التي انحازت لعبد الناصر مثل أبو النور طيارة، زهير العقاد، وكل القيادات القطرية. وذلك حتى لا يأتي التنظيم الجديد مطبوعا بطابعهم (القطري أو الناصري)، وليسود في الحزب الاتجاه القومي وحده. ثم توجهت الأنظار إلى عقد مؤتمر قطري للحزب يسبق انعقاد المؤتمر القومي السادس الذي كان مقررا أن ينعقد في شهر أيلول ١٩٦٣. وأصبحنا في سباق مع الزمن لإنجاز بناء الحزب تنظيميا وترسيخ أقدامه شعبيا وتحديد العلاقة بينه وبين التنظيم العسكري الذي قام بانقلاب ٨ آذار وأصبح بعد ١٨ تموز يسيطر وحده على السلطة في البلد. وكان الحزب متمثلا منذ ٨ آذار في المجلس الوطني لقيادة الثورة بميشيل عفلق وصلاح البيطار وشبلي العيسمي ومنصور الأطرش. كما كان في المجلس الوطني بعثيون سمتهم اللجنة العسكرية. وهم سامي الجندي ونور الدين الأتاسي والدكتور عبد الخالق النقشبندي، وكلهم ظلوا في المجلس بعد استقالة العناصر الناصرية قبيل ١٨ تموز. وقبيل ١٨ تموز كذلك، دعاني الحزب للانضمام إلى عضوية المجلس الوطني بدلا من منصور الأطرش وبقيت عضوا فيه إلى أن استقلت منه في نيسان ١٩٦٤.

كان الحزب الذي أعيد تنظيمه بين انتهاء المؤتمر القومي الخامس في أيلول ١٩٦٢ وانعقاد المؤتمر القومي السادس في أيلول ١٩٦٣ حزبا قليل العدد دون شك. ولكن هؤلاء الذين أعيد تنظيمهم فيه كانوا كلهم عناصر قيادية مناضلة ومعروفة على مستوى شعبي واسع. كان الأعضاء كلهم من الذين تألموا لمحنة حل الحزب وللملاحقات التي كثيرا ما وصلت حد الاضطهاد لهم أيام الوحدة ثم أيام الانفصال. والذين كانوا بتقديري من أفضل العناصر الطليعية المناضلة التي ربّاها حزب البعث، فارتبطت حياتها كلها بمبادئه وأفكاره. وكان معظم هؤلاء الأعضاء قد تعرضوا فيما بعد، وفي العهد الذي قام على أكتافهم، إلى الملاحقة والاضطهاد والتعذيب الجسدي أحيانا والإعدام أو النفي في أحيان أخرى. هذا وفي الوقت الذي كان معظمهم في العشرينيات من عمرهم يملأ قلوبهم حماس الشباب وتصميم المناضلين على العمل والعطاء وحب الوطن. هذا ولم يخل الأمر من بعض الانتهازيين في بعض الأوقات.

صحيح أن التنظيم الجديد الذي نشأ في أعقاب المؤتمر القومي الخامس كان قليل العدد نسبيا، ولكنه كان يتمتع من الناحية الواقعية بعدة عناصر قوية تجعل منه أقوى حزب سياسي في سورية. وعناصر القوة هذه كانت تتمثل بما يلي:

١- صلابة أعضائه المنظمة فيه كما تقدم، وتوفر الخبرة السياسية والنضالية لديهم لأن معظمهم كانوا أعضاء في الحزب قبل حلّه سنة ١٩٥٨، وكانوا بأكثريتهم الساحقة عناصر قيادية فيه.

٢- كان الحزب يتمتع بتأييد عدد كبير من المثقفين من أساتذة جامعيين وكتاب وصحافيين ومحامين، ووجوه نقابية شعبية. وهؤلاء المثقفون ما كان ينتظر منهم بطبيعة الحال أن يكونوا عناصر منضبطة في تنظيم صارم كالذي توقعه المؤتمر القومي الخامس عندما أوكل تنظيم القطر العراقي بالأشراف على إعادة تنظيم الحزب في سورية، لكنهم ظلّوا على ولائهم السياسي للحزب. ولم يبخلوا بوقتهم أو جهدهم عندما كان يطلب منهم القيام بأية مهمة ثقافية أو إعلانية، أو حتى سياسية. وكان بينهم أسماء لامعة ومعروفة مثل الدكتور جمال الأتاسي والأستاذ عبد الكريم زهور (نائب سابق)، والأساتذة شاكر مصطفى وحافظ الجمالي وعبد الله عبد الدائم، والدكتور سامي الجندي (الذي كان سفيرنا في القاهرة). هؤلاء جميعهم وآخرون أعطوا للحزب ثقلا واضحا بين الطبقة المثقفة السورية.

٣- الأعضاء البارزون من القطريين لم يتخذوا موقفا سلبيا من التنظيم الجديد بعد نجاح ٨ آذار، بل غيّر أكثرهم مواقفه وأرادوا الانضمام إلى عضوية التنظيم الجديد، لكنهم أرادوا تحقيق أمرين معا: الأول أن يعودوا للحزب مجتمعين، أي أن تكون عودتهم عملية اندماج شامل دون تدقيق بالأفراد كأفراد. والثاني ألا يكون للأستاذين ميشيل عفلق وصلاح البيطار مكان خاص في الحزب الجديد، ولعلهم كانوا يسمعون من العسكريين ما يطمئنهم إلى أن مكانهم محفوظ في الحزب وإن عليهم الانتظار بعض الوقت حتى يترسخ النظام ويأخذ شكله النهائي. وأقول هذا بدليل ما تطورت إليه الأمور بعد أن تركنا الحزب، وخاصة بعد انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦.

4- النفوذ التقليدي لحزب البعث والذي كان قد بلغ أوّجه سنة ١٩٥٨ عندما لعب أبرز دور في قيام الوحدة، وكان الحزب قد برهن عمليا عن تمسكه بالمبدأ الديموقراطي. وبدليل أن الضباط البعثيين الذين نجحوا في الانقلاب على أديب الشيشكلي سنة ١٩٥٤ سلّموا الحكم للسلطات الدستورية المدنية التي كانت قائمة قبل انقلاب الشيشكلي. ولم يسع هؤلاء الضباط إلى ممارسة السلطة مباشرة أو تسليمها لحزب البعث وحده. وبتعبير آخر فإن انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣لم يترك للوهلة الأولى تخوفا عند الطبقة السياسية السورية وعند الجماهير الشعبية من أنه انقلابا عسكريا كغيره من الانقلابات التي عرفتها البلاد. وبهذا فإن وجود البعث في قيادته العلنية منذ اللحظة الأولى لنجاحه حمى الانقلاب من وصمه بالديكتاتورية، وخلق حوله آمالا حقيقية من أن يعيد دولة الوحدة التي كانت ذكرياتها لا تزال حية في القلوب والأذهان. وأن يعيد النظام الديمقراطي كما فعل بعد أن أطاح بعهد أديب الشيشكلي سنة ١٩٥٤.

مهام القيادة الحزبية الموسعة

بعد أن تشكلت القيادة الموسعة، كان أمامها ثلاث مهمات أساسية: الإشراف على استكمال بناء التنظيم، العمل على دمج التنظيمين العسكري والمدني، والمشاركة في وضع سياسة العهد الجديد. لقد كانت القيادة الموسعة تناقش سياسة العهد الجديد بخطوطها العامة فقط، ولم تدخل في التفاصيل لا من حيث وضع هذه السياسة ولا من حيث تنفيذها. وما كان يمكن لها أن تفصل في القضايا العالقة في الحزب، خاصة وأن حزب البعث بكامله لم يكن سوى طرف بين عدة أطراف متصارعة. ولم يكن الشق العسكري البعثي بعثيا بالفعل والممارسة، وإنما بالاسم والإيحاء. وقد تمت مناقشات كثيرة بين القيادة الموسعة وقيادة التنظيم العسكري. حيث مثل العسكريين في هذه

النقاشات أمين الحافظ ومحمد عمران وصلاح جديد. وتم التوصل إلى صيغة خلاصتها أن تشارك قيادة اللجنة العسكرية في المؤتمر القطري الذي سينتخبه التنظيم المدني، ثم أن ينتخب المؤتمر القطري خمسة من أعضاء القيادة القطرية ينضم إليهم ثلاثة من العسكريين الذين ينتخبهم مؤتمرهم الخاص بهم ليصبح عدد أعضاء القيادة القطرية ثمانية طبقا للنظام الداخلي للحزب، وبناءً على هذا الاتفاق تم ما يلي:

١- أُعطيَ للعسكريين دورا خاصا يزيد عن دور رفاقهم المدنيين. فهم يشاركون في انتخاب الأعضاء المدنيين في القيادة دون أن يشارك الأعضاء المدنيون في المؤتمر في انتخابات ممثلي الأعضاء العسكريين في القيادة. وكان الأمر كذلك بسبب براعة العسكريين وخاصة أبو ناجح (محمد عمران). والميزة الأخرى تتمثل بالأساس بكون العسكريين هم من قاموا بانقلاب 8 أذار. وبذلك كانوا يعتبرون نفسهم أولياء السلطة. وبالرغم من المجاملات الكلامية، فإن العسكريين لم يعتبروا الحزب شريكا فعليا لهم في الحكم في عهد ٨ آذار.

٢- إذا ما استثنينا ميشيل عفلق وصلاح البيطار، فإن أعضاء اللجنة الموسعة ما كانوا، فرادى أو مجتمعين، قادرين على ادعاء تمثيل الحزب. ولم يكن النقاش مع العسكريين في القيادة الموسعة نقاشا أكاديميا أو حوارا مفتوحا للإقناع، وإنما كان عبارة عن تفاوض سياسي سعى فيه كل طرف إلى زيادة حصته في الاتفاق النهائي. الجناح المدني أخذ خمسة أعضاء من أصل ثمانية والجناح العسكري تجنب وضع تنظيمه تحت الإشراف الطليعي لقيادة الحزب، أي أنه استبقى مزيّة أن يمارس السلطة دون أ ن يخضع لمساءلة، وأن يتقبل حزب البعث العربي الاشتراكي منه هذا الوضع غير الديموقراطي في أبسط تعبير.

٣- بالرغم من كل هذا، فقد كنت آمل كغيري من أعضاء القيادة الموسعة أن تأتي القيادة القطرية الجديدة التي أنتخبها المؤتمر القطري ممثله فعلا للحزب بجناحيه المدني والعسكري، وأن تكون هي القائد الفعلي للعهد الجديد، تتخذ قرارتها بالأكثرية بعد نقاش كاف، ثم تكون مسؤولة عن هذه القرارات أمام مؤتمرها اللاحق. ولكن الذي حدث أن اللجنة العسكرية لم تبعث بأعضائها القياديين الثلاثة (أمين الحافظ، محمد عمران، وصلاح جديد) كممثلين لها داخل القيادة القطرية، وإنما اختارت حافظ الأسد ومحمد رباح الطويل وحمد عبيد كممثلين لها، ولم يكن حقيقة وضعهم سرا

على أحد، فلم يكن هؤلاء الثلاثة هم القادة الفعليين للجنة العسكرية، وإنما أتوا ممثلين لانتماءاتهم الطائفية قبل أي شيء آخر.

ورغم أن تسميتهم لعضوية القيادة القطرية بعد انتخاب الأعضاء المدنيين كانت صدمة لنا، إلا أنه لا أنا ولا غيري من قياديي الحزب سجل اعتراضا رسميا على هذا الاختيار. لقد قبلنا الأمر واقعيا، رغم أننا قبلناه على مضض. وكان أملنا هذا يقوم على وهم برهنت عليه الأيام اللاحقة. وهم يتمثل بأن عضوية الحزب بحد ذاتها تجعل المساواة حقيقية بين أعضائها، وأن الالتزام بالحزب والولاء له يستطيع أن يتغلب على المصلحة الشخصية وعلى أي ولاء آخر بالنسبة لكل أعضاء القيادة الموسعة ولكل الأعضاء المنتخبين في القيادة القطرية الجديدة، وأنه على كل عضو في الحزب التسليم بأسبقية الولاء الحزبي على أي ولاء آخر. وهذه قضية بديهية سبق أن تم البرهان الواقعي عليها عندما ينضم الشخص للحزب. إذ كان الانضمام للحزب قبل ٨ آذار١٩٦٣يعني أن ينسلخ البعثي عمليا عن كل القيم الاجتماعية والسياسية السائدة. والتي إنما كان انتماؤه للبعث تعبيرا عن رفضها واستعداده لمجابهتها، وتحمل كل عواقب هذه المجابهة، التي غالبا ما كانت سجنا وتعذيبا وتشريدا. وقد وصلت أحيانا إلى حد الاستشهاد. كما وتميزت سياسة العهد الجديد بما يلي:

١- لم ينجرف الحزب مع الدعوة الناصرية إلى عودة سورية الفورية إلى ج.ع.م. وقد ردّ على ذلك بأن الظروف الواقعية أصبحت تجعل من الممكن قيام وحدة ثلاثية بين مصر وسورية والعراق.

٢- كانت ذكريات ثورة ١٤ تموز العراقية لا تزال حية في الأذهان، كما كانت لا تزال حية في الذاكرة الشعبية وقائع التآمر الدولي الرهيب الذي شاركت فيه القوى الدولية المسيطرة يومذاك، الغرب والاتحاد السوفيتي معا، والذي أدى عمليا إلى انجراف عبد الكريم قاسم، وإلى التنكيل بالبعثيين وبكل قادة وجماهير التيار القومي العربي في العراق. ولم يقتصر التآمر الأجنبي على عزل العراق ومنعه من الانضمام إلى ج.ع.م في أواخر الخمسينيات، وإنما واصل التآمر عمله حتى انفرط عقد الوحدة وقام الانفصال في أوائل الستينات.

٣- إذن فقد كان شعار قيام وحدة ثلاثية جديدة شعارا أخاذا استقطب تأييدا شعبيا جارفا كما برهنت عليه الصراعات المستعرة في الشارع السوري بين ٨ آذار و١٨ تموز ١٩٥٨.

٤- الحزب القومي طرح شعار الوحدة. وكانت الاستجابة فورية من القطر العراقي الذي أصبح يقوده حزب البعث. تماما كما كانت الاستجابة حارة وسريعة من الحكم السوري الذي كنا (حزب البعث) جزءا منه.

٥- لم يكن عبد الناصر ليستطيع الوقوف بوجه هذا التيار القومي الجارف، فاستجاب هو له كذلك. وبدأت مباحثات الوحدة الثلاثية. ولم يستغرق التفاوض وقتا طويلا. إذ وقعت الحكومات الثلاثة على ميثاق ١٧ نيسان ١٩٦٣ الذي وضع هدفا عمليا لقيام وحدة دستورية بين مصر وسورية والعراق قبل نهاية ذلك العام.

٦- إن مباحثات الوحدة الثلاثية والتي تمت في القاهرة أبرزت إلى العلن الصراع الدائر بين البعث وعبد الناصر. ولم يكن هناك خلاف على شخص عبد الناصر. إذ أنه، مهما كانت الانتقادات، فإنه الزعيم القومي دون منازع. لكن البعث كان يرى أنه لا بد للوحدة الجديدة أن تأخذ بنظام حكم جديد يختلف عن حكم الوحدة القديمة. كان يريد حكما منفتحا يسمح بالتعددية السياسية ضمن حدود معقولة. وما كان عبد الناصر بموقع يمكنه من فرض رأيه القديم بحل الأحزاب السياسية الذي فرضه سنة ١٩٥٨، خاصة بعد أن أصبح الاتحاد القومي حزبا لعبد الناصر. كما أن حرصه على التنظيمات الناصرية في سورية كان واضحا. وقد توصل أطراف الوحدة الثلاثية إلى نوع من التفاهم خلاصته أن مصر يحكمها الناصريون دون شريك، ويحكم البعث العراق دون شريك. ولكن سورية لا بد أن يكون حكمها مشتركا بين عبد الناصر والبعث. هذا التفاهم لم يكن يعني في واقع الحال بالواقع السياسي الذي كان قائما. لكن قبول الأمر الواقع ما كان له أن يعني بالنسبة لأصحاب القرار قبولا نهائيا به.

7- وإذا كانت سورية خلال شهر نيسان 1963 محكومة بائتلاف بين البعث والناصريين فإن أيا منهما ما كان يأمل أن يتغلب في هذا الائتلاف على شريكه. وإن التوقيع على ميثاق الوحدة لم يلغ الصراع في الشارع السياسي السوري، وإنما زاد من حدته كما سبق عرضه.

لا شك بأن وعي عبد الناصر للظروف الدولية كان قطعا أعمق من وعي الآخرين. ولذلك فإنه ما كان له أن يسارع إلى إعادة الوحدة دون أن يتأكد من قدرته العملية بالدفاع عنها. وهذا ربما يفسر تمسكه بأن تكون الأرجحية في سورية للناصريين. إن العودة إلى الوراء والاستفادة من معرفة المستقبل الذي أصبح الآن ماضيا، تجعلني أظن أن عبد الناصر لم يتخيل أن الوحدة الثلاثية كانت ستقوم فعلا، وأنه قبل بالتفاوض والاتفاق مع البعث استجابة لوجود تيار وحدوي عارم من جهة، ولكي يُعطي لنفسه فسحة من الوقت ليتعرف على أوضاع العراق من الداخل، ويتشكل لديه تصور عن معالجة الأوضاع العراقية ذات الحساسية الخاصة لوجود أكراد كأقلية قومية كبيرة من جهة، ولوجود الرغبة العراقية الواضحة باستعادة الكويت من جهة ثانية.

ولربما كان الأستاذين ميشيل عفلق والبيطار الوحيدين من حزب البعث اللذين يعيا خطورة الوحدة والمخاطرة الكاملة بها وقبولها دون تحفظ، خاصة وأن وضعهما الخاص تجاه التنظيم العسكري السوري، ووضع الحزب الذي كانت قوته الشعبية ستترسخ بحيث يصبح الوصول إلى تطبيق القاعدة المشهورة في أنظمة الحزب الواحد واقعية، أي خضوع الجيش للقيادة السياسية. أما الرفاق العراقيون كانوا حديثي العهد بالسلطة، ولم تتكون لديهم بعد مصالح خاصة. وكان همهم الأساسي تصفية خصومهم الداخليين (الشيوعيين) قبل أي شيء آخر. وليس هناك من يطالبهم أن يشاركوا طرف ثان في حكم العراق. ولو تمت الوحدة الثلاثية في وقتها لأصبح وضعهم راسخا بشكل نهائي.

لربما كان أعضاء اللجنة العسكرية بشكل عام مع قيام الوحدة بشكل عام، لكن أحاديثهم الخاصة في تلك الأيام كانت تنم عن قلق عميق، وكأنهم جُروا للوحدة جرا. فهل كانت المطامح الطائفية قائمة يومذاك؟ لست أدري بالضبط، ولكن الرغبة بالحكم، وخاصة الرغبة بالتفرد بالجيش، لم تكن خافية. ولعلّي لا أظلم أحدا إذا قلت إن الأساسيين منهم كانوا بوضع يرحبون فيه بقيام الوحدة الثلاثية. كما أنهم لم يكونوا بوضع قادرين فيه على رفضها. وبالتالي كان القبول بها تأكيدا مؤقتا، ربما أعطاهم الفرصة لتصفية خصومهم في الجيش.

ويبقى السؤال هل كان يعلم عبد الناصر بانقلاب ١٨ تموز، وإلى أي حد أشرف شخصيا على التحضير له؟ إن الهجوم الشخصي على ميشيل عفلق وصلاح البيطار استهدف الحزب كله. وقد

رفض عبد الناصر بعد ١٨ تموز أن يقبل بالأمر الواقع، وأن يقيم علاقات طبيعية مع سورية. ولم تبدأ العلاقات الإيجابية مع سورية إلا بعد نجاح انقلاب ٢٣ شباط عام 1966، والذي كان انقلابا على حزب البعث بالرغم من أنه تذرع بخلاف ذلك. لا استبعد أبدا بأن عبد الناصر كان على إطلاع تام بحقيقة الأوضاع داخل حزب البعث، وعلى بينة من الخلافات بين أجنحته، وخاصة عدم ارتياحه للأستاذين ميشيل عفلق وصلاح البيطار. كل هذا لا يفسّر محاولة ١٨ تموز ١٩٦٣ إلا أذا كانت المعلومات المتوفرة لدى عبد الناصر غير دقيقة ومغلوطة تماما. فحتى لو نجحت المحاولة ما كان ليستطيع أن يتخلص من الحزب في العراق على الأقل. والبعث في العراق كان حليفه الطبيعي، سواء كانت سورية بعثية أو ناصرية.

هذا الصراع على سورية خلق هذا الشرخ الكبير في الحركة القومية العربية، والذي لم نستطع حتى الآن أن نتجاوزه بالرغم من كل الظروف والمعطيات التي تقضي بضرورة تجاوزه.

نحن اتخذنا موقفا انتقاديا من حكم ٨ آذار بعد التحالف المعادي لنا بين مصر والعسكريين، ولكننا لم نتخذ موقفا متميزا بخصوص الوحدة الثلاثية، ولعلنا بذلك لم نكن نختلف عن باقي الأطراف البعثية! *

**كان هذا كل ما كتبه الأستاذ حمود الشوفي من مذكرات والتي تركناها على سجيتها كما تركها هو كمسودة، ماعدا إحداث التبويب وبعض التصحيحات التي كان لا بد منها لتحقيق انسيابية المواضيع المطروحة وترابطها. لكن الكثير من الموضوعات والأفكار التي لم يتسن له كتابتها في هذه المذكرات كان قد تعرض لها في مقابلته مع مجلة الوطن العربي عام 1988، والتي نضعها خلف المذكرات في مباشرة باب أعمال مختارة أملاً في إكمال ما يمكن إكماله من الأفكار وتغطية أكبر عدد ممكن من الأحداث التي عايشها وشارك بها. ولهذا وضعنا أيضا في باب مختارات كلمته في تأبين صديقة ورفيق نضاله الأستاذ نسيم السفرجلاني عام 1994. وأيضا وضعنا مقالته "احتمالات التغيير في سورية" التي نشرتها صحيفة القدس العربي في عام 2006.*

ملاحق

- نص المقابلة التي أجرها الصحفي تمام البرازي مع الأستاذ حمود الشوفي لمجلة الوطن العربي 13-18/ 1988

. الحلقة الأولي بتاريخ 5/13/ 1988

. الحلقة الثانية بتاريخ 1988/5/18

- نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ حمود الشوفي في بغداد في حفل تأبين الأستاذ المرحوم نسيم السفرجلاني بتاريخ 6/19/ 1994

- نص مقالة الأستاذ حمود الشوفي "سورية واحتمالات التغيير" التي نشرتها صحيفة القدس العربي بتاريخ 2//25 2006

نص المقابلة التي أجرها الصحفي تمام البرازي مع الأستاذ حمود الشوفي لمجلة الوطن العربي 13-18/5/ 1988

الملف

لأول مـرة في الصـحافـة العـربيَّـة

ملـفات المعارضة الس

حمود الشوفي:

حافظ الأسد رجل أمن لا رجل دولة

قال لي: الناس فئتان.. افراد يريدون العيش ويبقى ٢٠٠ سياسي لأجلهم بنيت السجون!

هذا الملف الكبير يطرح في الصحافة العربية لأول مرة. المعارضة السورية في الداخل والخارج لم تعد وهماً أو سراباً. وهي معارضة وطنية تضم مختلف الاتجاهات والطوائف، وقد أقامت بينها تحالفاً اطلقت عليه اسم «التحالف الوطني لتحرير سوريا». ويقوم هذا التحالف على دعامتين: اسقاط النظام القائم واحلال نظام ديمقراطي محله يعتمد التعددية الحزبية.

«الوطن العربي» أمضت عدة أسابيع في اعداد هذا الملف، واجرت حوارات ساخنة مع أقطاب هذه المعارضة السورية من مختلف الاتجاهات: البعث والاشتراكيين والقوميين العرب والناصريين والشيوعيين والاخوان المسلمين بأجنحتهم المتعددة. وأعادت هذه الحوارات نبش الملفات القديمة والجديدة منذ قيام الوحدة بين سوريا ومصر، الى الوحدة الثلاثية، الى مرحلة الانقلابات السورية، الى مجيء حافظ الأسد الى السلطة، الى قيام جبهة التحالف.

الحلقة الأولى هي جزء من الحوار المتعمق الذي أجرته «الوطن العربي» مع حمود الشوفي سفير سوريا السابق في الأمم المتحدة وأحد قدماء زملاء حافظ الأسد، وأحد أقطاب المعارضة السورية اليوم في الخارج.

الوطن العربي تفتح ملف المعارضة السورية

نص المقابلة التي أجراها الصحفي تمام البرازي مع الأستاذ حمود الشوفي لمجلة الوطن العربي عام ١٩٨٨، ونشرت على حلقتين: الحلقة الأولى بتاريخ ١٩٨٨/٥/١٣والحلقة الثانية بتاريخ ١٩٨٨/٥/١٨ من القرن الماضي.

الحلقة الأولى:

واشنطن- تمام البرازي: أقطاب المعارضة العربية ليس لها عنوان حتى يتم الاتصال بهم، ولكن عندما يأتي الأمر إلى المعارضة السورية فإنها من أصعب المعارضات العربية وكذلك الوصول إليها. وحتى إذا وصل المرء إليها فأن أفرادها يترددون في إعطاء الأحاديث الصحفية، وكما فتحت" الوطن العربي" ملفات المعارضة الليبية فهي تفتح الآن ملف المعارضة السورية. ونبدأ هذه الخطوة المحفوفة بالمصاعب والمحاذير بلقاء مطول مع حمود الشوفي ممثل سوريا الدائم في الأمم المتحدة سابقا والذي استقال من منصبه في ٢٧ كانون الأول من عام ١٩٧٩. وحمود الشوفي ولد في عام ١٩٣٥م في مدينة صلخد في محافظة السويداء السورية. ودرس في هذه المحافظة وعاش أجواء النضال السوري في الخمسينات في جبل العرب الشامخ. ثم انتقل إلى دمشق ليتخرج من جامعتها بإجازة في الآداب. ومارس العمل الحزبي في حزب البعث العربي الاشتراكي داخل الجامعة وخارجها، وبعد أن تخرج ليمارس مهنة التدريس في محافظة السويداء. لم يسمح له بذلك إلا لثلاثة أشهر لأن القانون آنذاك كان يحرم على الموظف الحكومي ممارسة النشاط الحزبي وأدى ذلك إلى اعتقاله. وفي فرصة نادرة وأثناء أسفاره العديدة وتنقلاته في الأقطار العربية والدول الغربية التقت" الوطن العربي" في واشنطن حمود الشوفي الذي أصدر نظام حافظ الأسد حكما بالإعدام عليه في عام ١٩٧٩، وصادر أملاك زوجته في سوريا لأن الشوفي ليست لديه ممتلكات سوى عمقه الفكري السياسي وتفانيه في خوض غمار التنظيم الدؤوب للتوصل إلى قيام نظام سوري ديموقراطي حقيقي في سوريا وفيما يلي الحوار الذي امتد لأربع ساعات ونيف.

الوطن العربي: من هو حمود الشوفي؟

حمود الشوفي: بدأت حياتي العامة في حزب البعث منذ أن كنت طالبا في الثانوية وبعد التخرج انصرفت كليا للعمل الحزبي وتخرجت ببكالوريوس لغة عربية. ولما قامت ثورة ٨ آذار انتخبت أمينا قطريا للحزب في سوريا وعضوا في القيادة القومية، وبقيت كذلك حتى شباط ١٩٦٤. وحدث

وقتها خلاف داخل الحزب واستقلت من عضوية المجلس الوطني لقيادة الثورة ومن الحزب طبعا. في بلادنا كما تعرف الإنسان له طريق واحد. مع أنني تركت تنظيم الحزب، إلا أنني اعتبر نفسي بعثيا وهذا وسطي ومجال نشاطي بمعنى قومي عربي مؤمن بالديموقراطية وحزب البعث بالأساس هو حزب ديموقراطي وقومي عربي قبل أي شيء آخر. في أواخر ١٩٦٥طُلب مني الذهاب إلى أندونيسيتا كسفير وبقيت خمس سنوات هناك، ثم سنتين في الهند. وآخر منصب شغلته في وزارة الخارجية السورية هو المندوب الدائم لسوريا في الأمم المتحدة حتى استقلت في أواخر سنة ١٩٧٩. وانضممت للمعارضة السورية وكنت أعمل مع المرحوم الأستاذ صلاح الدين البيطار حتى اغتيل في باريس عام ١٩٨٠. ولا نزال نسعى لتغيير النظام وإقامة نظام ديموقراطي في سوريا.

- بعد عودتك كسفير من الهند إلى دمشق ماذا حدث ولماذا عدت مع أن السياسي الذي كان يمثل خطرا يبعث سفيرا؟

* لقد طلب مني حافظ الأسد أن أعود لأنه في عام ١٩٧٠ تفرد الأسد بالسلطة في سوريا والخصومة القديمة في حزب البعث كانت بيننا وبين مجموعة صلاح جديد. وعندما تسلم حافظ الأسد السلطة كانت عنده رغبة في أن أتعاون معه. لكن لم يكن ذلك وارد بعد أن تبين لي وله أننا على طرفي نقيض في نظرتنا لنظام الحكم والسياسية العربية والسياسة الخارجية وكل نواحي الحياة السياسية. ولم يكن ممكنا أن نتفق على أي شيء. ولذلك بقيت في الخارجية السورية منذ ١٩٧٢وحتى ١٩٧٨ كمدير إدارة أميركا.

- هل اجتمعت مع الأسد؟

*اجتمعت معه في عام ١٩٧١ قبل نقلي من الهند إلى دمشق.

- كم استمر الحوار بينكما وما تتذكر منه؟

* الحوار كان طويلا واستمر أكثر من أربع ساعات وكان شاملا. إن نظرة الأسد للأمور لم تكن نظرة رجل دولة، بل كانت نظرة رجل أمن. إن الأسد يفتخر بأنه تمكن من حكم سوريا والتفرد بالسلطة. وكان مقتنعا بأن الناس بأكثريتها الساحقة تؤيده كما لم تؤيد زعيما من قبل. وهو يعتبر أن التأييد الشعبي الذي قوبل به عندما قام بانقلابه أو بحركته التصحيحية ضد صلاح جديد ومجموعته أعطاه شرعية مطلقة ليحكم البلد كما يريد وبشكل فردي. كنت أرى شخصيا أنه يجب أن يستثمر هذا التأييد الذي قوبل به لبناء مؤسسات دستورية ليعود بالنظام إلى الديموقراطية.

وحجتي الرئيسية التي طرحتها عليه هي أن الناس أيدته ليس محبة بشخصه بقدر ما كانت الناس تكره النظام الفردي الذي سبقه. فإذا أراد أن يكرر الصيغة ذاتها فسيكون مصيره نفس مصير من سبقه.

ـ ماذا كان رد فقل الأسد على هذه المقولة؟

* قال لي بصراحة إن قضية الحكم في بلادنا هي قضية سهلة للغاية. وتعليله أننا يجب أن نأخذ الناس كأفراد ونتساءل عندئذ ما هي مطالب الناس، وبرأي الأسد أن الناس لهم مطالب اقتصادية بالدرجة الأولى. فمن لا يملك بيتا يريد أن يملك واحدا، والذي لا يملك سيارة يريد سيارة، والذي لديه سيارة يريد سيارتين وهكذا. وهو يعتقد ان هذا النوع من المطالب يستطيع أن يحققها بشكل أو بآخر. وبعد تحقيق هذه المطالب ماذا يظل لدينا؟ على حد تعبيره يبقى مئة أو مئتين بالكثير. وهؤلاء برأيه يشتغلون جديا بالسياسة وهم كما قال سيكونون ضده مهما فعل، وسجن المزة أصلا مبني من أجل هؤلاء. إذن فلسفة الأسد للأمور أو نظرته إلى الحكم أنه قسم مجموع الشعب إلى قسمين: المعنيون بالسياسة والجادون من الناس، وهؤلاء مصيرهم السجن. والأكثرية المطلقة برأيه ليست لهم إلا المطالب الاقتصادية ومتطلبات العيش.

ـ بماذا جابهت الأسد إزاء هذا الطرح؟

* قلت له إنه إذا كنت تعتبر نفسك جديا فإن مصيرك هو نفس مصير المئة أو المائتين الذين تتكلم عنهم لأنه لا يمكن إقامة نوعين من النظام في بلد واحد، جزيرة صغيرة فيها كل الحرية دون اي مسؤولية. أي حكمك أنت وجزيرتك أنت. والناس كلها موضوعة في سجن كبير، وهذا السجن في الأخير سيلف الجميع. وفي واقع الحال لو نظرت لحافظ الأسد أو لأي حاكم فردي من هذا النوع فإنه في سجن مثل باقي الأفراد، ولكنه لا يتعذب مثل باقي الناس.

ـ كيف تقبل الأسد كلامك القوي؟

* كانت العلاقة الشخصية بيننا تسمح بحوار صريح لهذه الدرجة، وهي علاقة قديمة من أيام الحزب.

ـ بعد هذه المجابهة لماذا قرر إبقاءك في الخارجية السورية؟

* ربما كان يعتقد أن وجودي في دمشق من وجهة نظره الأمنية أخف أذى من وجودي في الخارج.

ـ إذن لماذا أوفدك إلى الأمم المتحدة؟

* لأنه اطمأن أثر ست سنوات من بقائي في دمشق.

اغتيال البيطار

ـ ما هو العامل الحاسم في استقالتك كممثل دائم لسوريا في الأمم المتحدة؟

* في الحقيقة لم يكن قراري بمفردي، بل كان قرار المجموعة التي كنت أعمل معها وعلى رأسها الأستاذ صلاح الدين البيطار رحمه الله. في عام ١٩٧٩ حصل مد شعبي في سوريا وخيل لنا أن الوقت مناسب لإبراز معارضة وطنية قوية تستجيب فعلا لمطالب أكثرية الناس، وبخاصة بعد أن بدأت عمليات قام بها الإخوان المسلمين وكانت تهدد بفتنة طائفية داخل البلد، والأثر السياسي لهذه الفئة أن كل طائفة تتخندق في موقعها الخاص. أما بروز معارضة وطنية على رأسها المرحوم صلاح الدين البيطار فقد كان كفيلا في اعتقادنا أن يجمع فعلا كل القوى الفاعلة في ساحة العمل العام. ولسنا نحن الذين قدرنا ذلك فحسب، ولكن النظام نفسه توقع مثل هذه النتيجة، وهذا ما يفسر اغتيال صلاح الدين البيطار.

ـ لكن بالإضافة إلى هذا العامل هل كانت هناك عوامل فلسطينية ايضا؟

* العامل المباشر هو تقديرنا أنه آن الأوان لتبرز معارضة وطنية علنية على السطح وتعبّر عن رأي الناس في الداخل والخارج، ضمن الاتجاه القومي العربي الديمقراطي الوطني. وأفضل رمز لهذا التوجه كان شخص صلاح الدين البيطار الذي كان يصدر مجلة "الإحياء العربي" في باريس، وأخذ يعمق ويبشر في هذا الخط الديموقراطي الوطني في سوريا.

ـ ما هو السبب الرئيسي لاغتيال صلاح الدين البيطار ولماذا اغتيل هو وليس غيره من الزعماء في المعارضة السورية مع العلم أن الوصول إليهم لم يكن أمرا صعبا؟

* حافظ الأسد بنى قوته الداخلية على تمزيق الناس إلى طوائف، ولجعل كل أبناء الطائفة العلوية مضطرين للتمسك بهذا النظام، وهذا ممكن أن نشرحه في أحداث حماه. لكن أخشى ما يخشاه حافظ الأسد هو أن يستجيب قسم كبير من أبناء الطائفة العلوية لداعي الحق والواجب الوطني، وينضموا للمعارضة الوطنية هذا الأمر بالنسبة له يشكل خطرا قاتلا. اما لماذا تم اختيار صلاح الدين البيطار دون سواه من المعارضة السورية لاغتياله فلأنه صاحب تاريخ وطني معروف. وهو ثاني مؤسس لحزب البعث بعد الاستاذ ميشال عفلق. وفي المقابل كان حافظ الأسد مضطرا للتستر باسم البعث لأنه لا يستطيع القول إنه يحكم باسم عائلة الأسد أو باسم الطائفة. وحتى داخل الحزب في سوريا لم يكن الجميع كأفراد وكأعضاء راضين عن النظام، ومع ذلك لا يستطيعون التخلي

عنه للإخوان المسلمين أو الناصريين أو لأي تيار آخر. ثم أن وجود شخصية مثل البيطار كان كفيلا باقتطاع قسم كبير من الحزب ومن الطائفة العلوية إلى صفوف المعارضة الوطنية. لهذا السبب كان اغتيال صلاح الدين البيطار من وجهة نظر النظام ضرورة أمنية. وأريد أن أذكرك بأن البيطار لم يكن هو الشخص الوحيد الذي اغتيل لهذا السبب. فقد سبقه محمد عمران رحمه الله، ومحمد الفاضل. وكلا الرجلين مثل صلاح الدين البيطار كان الواحد منهم يشكل تهديدا ينذر بانفراط القاعدة الصلبة التي يستند إليها النظام داخل سوريا وهي الطائفة العلوية.

ـ لكن عندما اغتيل عمران في ١٩٧١ في طرابلس لم يكن الأسد قد كشف عن نواياه.

* محمد عمران كان من الجيش ومن الحزب، والرجل الأول في حركة ٨ آذار وفي التنظيم العسكري. وكان رئيسا لحافظ الأسد، وهو الذي أسس التنظيم العسكري الذي قام بحركة ٨ آذار. وصحيح أن محمد عمران كان في لبنان. ولكن كان له نفوذ على القاعدة العسكرية الطائفية التي يستند إليها حافظ الأسد، لذلك سارع باغتياله قبل أن يتمكن محمد عمران من ترتيب شيء.

ـ لقد عشت حتى عام ١٩٧٨ في سوريا اذن قضيت ١٥ سنة في ظل النظام هل يمكن أن تشرح لنا كيف يتم التخطيط للاغتيالات؟

* مع الأسف أصبح النظام بارعا في هذا التكتيك لدرجة مخيفة. ولم يتم اغتيال هؤلاء فقط. ففي لبنان اغتيل من الصحافيين سليم اللوزي ورياض طه، ومن السياسيين الزعيم كمال جنبلاط. وفي تقديري أن قرار الاغتيال لا يجرؤ أحد في سوريا أدنى من حافظ الأسد على اتخاذه. يعني أن اغتيال شخصية مثل صلاح الدين البيطار لا يمكن أن يتم على مستوى رئيس المخابرات أو مستوى شرطي، هذا غير ممكن. الشخصيات من هذا الوزن أو محاولة اغتيال ريمون إده مرتين أو ثلاثة في بيروت تحتاج إلى قرار من المسؤول الأول.

ـ لماذا لم نر نتيجة محاكمة قتلة صلاح الدين البيطار في فرنسا. ولماذا لم يتم كشف المسؤول الأول عن الاغتيالات؟ ولماذا يكتنف الغموض هذه القضايا؟

* كان الفرنسيون دائما حريصين على أن تكون علاقتهم مع النظام السوري جيدة. وقد حافظوا على هذه العلاقة الجيدة حتى بعد أن قطعت بريطانيا علاقاتها مع دمشق واتهمتها علنا بأنها تقف وراء بعض العمليات الارهابية. وألمانيا الغربية وجهت التهمة نفسها إلى دمشق. إن فرنسا دولة

لها دائما خصوصيتها. وأرى توجيه هذا السؤال إلى المسؤولين الفرنسيين: لماذا لم يجر تحقيق أو محاكمة المسؤولين عن عملية الاغتيال وهم معروفون لديهم، خصوصا وأن العملية تمت في قلب باريس. ولدى مسؤولي الأمن الفرنسيين - في تقديري- معلومات تفصيلية ودقيقة وقد سمعنا بعضها منهم.

- ألم يكن يدرك صلاح الدين البيطار أن حياته في خطر؟

* أنا وإخواني كنا نخاف عليه أكثر من خشيته على نفسه. كان متأثرا جدا بما يحدث في سوريا، وآخر مقال كتبه كان عنوانه "عفوك شعب سوريا العظيم". لقد طلب العفو من الشعب لأنه كان يعتبر أن كل السياسيين السوريين قصروا في أداء الواجب المطلوب إزاء التضحيات التي بذلها الشعب السوري. ورغم إحساسه بالمأزق السوري إحساسا طاغيا، فإنه حاول بعد ضغط منا بالدرجة الأولى أن يأخذ بعض الاحتياطات الأمنية لم تكن بحجم الخطر الذي يتهدده.

المعارضة السورية

- هل أنت مهدد أيضا؟ أرى أنك لم تأخذ احتياطات أمنية....

* قد أكون مهددا (يضحك) ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

- هناك ملاحظة خطيرة وهي أن السياسيين السوريين لم يتركوا مذكراتهم وراءهم فكيف يكتب تاريخ سوريا الحديث؟

*هذا التقصير ليس له أي مبرر وكان الأستاذ البيطار قد بدأ يكتب مذكراته عندما كان يقيم في لبنان حتى دخول قوات الردع السورية إليه. فغادر على ظهر قارب شحن إلى قبرص ولم يتمكن من أخذ أوراقه معه. أستقر في فرنسا وبدأ يكتب من جديد. واعتقد أن قسما كبيرا من مذكراته لم ينشر ولعله ينشر في وقت قريب.

- المعارضة السورية منقسمة منها فريق تحول إلى جمع المال وفريق اختار العزلة لأن الواقع صدم ميثالياته، وفريق الرعيل التقدمي من بعثيين واشتراكيين وناصريين لم يقم بحركة جديدة منذ عام ١٩٧٠وإلى عام ١٩٨٢وخلال ١٢ سنة لم تقم جبهة موحدة واحدة للمعارضة السورية. لماذا؟

* الجبهة شيء ومعارضة النظام شيء أخر. ولم يمض يوم طوال هذه السنين دون أن يدخل إلى سجون سوريا اناس اضطهدوا وعذبوا. والأكثرية الساحقة من هؤلاء ليست من السياسيين القدامى وإنما من الطلاب الثانويين أو الجامعيين أو من العمال والفلاحين. السجون السورية هي القطاع الوحيد الذي شهد "حركة ازدهار" في ظل النظام الحالي. وعندما ضاقت السجون القديمة بسكانها، وقبل بناء ستة سجون جديدة حولوا العديد من المدارس إلى سجون كما حدث في حلب. أكثرية الناس في سوريا ضد النظام من مختلف الطوائف بما في ذلك الطائفة العلوية. ولم يكن من السهل بروز معارضة من الداخل. ورغم القتل والبطش والتنكيل والإرهاب الشديد المفروض على الناس، فقد قامت سنة ١٩٨١نقابات الأطباء والمحامين والمهندسين بحركة احتجاج عنيفة، ونُفذ اضراب ومقاطعة، وقدمت مطالب مهنية وسياسية بينها المطالبة بالديمقراطية. ورد النظام بحل النقابات واعتقال أعضائها، وعدد كبير منهم ما يزال معتقلا إلى اليوم. المعارضة في الداخل ليست بالمسألة السهلة. ومن يريد أن يعارض يجب أن يعرف أن الموت هو الثمن الطبيعي للمعارضة. ومع هذا أقول إن الشعب في سوريا لم يتردد، ولكن لكي نسمع صوت المعارضة لا بد من وجود تنظيمات وأفراد في الخارج حتى يمكن الحديث عن المستقبل والنظام السياسي البديل. ومثل هذا لا يمكن أن يحدث من الداخل.

- لماذا تصدر الاتجاه الاسلامي المعارضة العنيفة ضد النظام ولم تفعل ذلك أحزاب المعارضة الأخرى؟

* طوال عهد حافظ الأسد وقبله صلاح جديد كان الضغط منصبا على المعارضة العلمانية من البعث والناصريين والاشتراكيين العرب منذ عام ١٩٦٦وإلى عام ١٩٧٩ على الأقل. والتيار الاسلامي في تلك الفترة لم يتعرض للإرهاب والضغوط، وكان أمامه مجال التحرك مفتوحا. وفي أواخر السبعينات، ولأن التيار الاسلامي هو جزء من مشاعر الشعب السوري، نشأت حركة داخل تنظيم الإخوان المسلمين أتت بقيادة جديدة غير القيادة التاريخية وغير قيادة عصام العطار الذي لا تزال شقيقته وزيرة في حكومة حافظ الأسد.

- هل تعني القيادة الجديدة التي قادها مروان حديد؟

* نعم أعني ذلك. وقد تكون هذه القيادة قد اندفعت بتأثير الحماسة أو نتيجة قصر نظر سياسي، ولجأت إلى أسلوب الاغتيال الذي أعتبره مرفوضا، ونرفضه بالتخصيص لأنه استهدف أبناء الطائفة العلوية. وكثير من الناس المسحوقين ظنوا لفترة أن الفرج قد يأتي عن طريق هذه الحركة،

حتى لو كان الطريق خاطئا. وانتشرت لهذا التيار شعبية في سوريا التي تعرفها بسوريا الوطنية التي تلتحم بوطنيتها بعروبتها. ولا يمكن أن تسير في طريق يؤدي إلى تمزيق الوحدة الوطنية، لذلك كانت تلك الحركة فورة وانتهت في وقتها.

ـ لماذا تركز الضغط السياسي على حماه؟

* قبل مجزرة حماة جرت عمليات تمشيط عديدة قام بها النظام بحجة التفتيش عن العناصر المطلوبة من الإخوان المسلمين. وفي كل عملية تمشيط كان النظام يستبيح المدينة. ورجال النظام كانوا يدخلون البيوت ويتلفون أثاثها، وحدثت اعتداءات على النسوة، ومرة جرّوا النساء إلى المحافظة تحت السياط علنا وأمام الناس. وفي تقديري أن النظام نصب فخا لمدينة حماه وأراد أن يضربها ضربة تحقق هدفين: الأول أن تكون هذه المدينة درسا لبقية المدن السورية بشكل عام، ولدمشق بصفة خاصة. والثاني أن يضع في رقبة كل علوي ثارا دمويا، فيشعر بأنه إذا تغير النظام فإن الأذى سيطاله شخصيا، وأنت تعرف تقاليد الثأر في حماة. النظام نصب هذا الفخ في حماة وساعد على ذلك وجود أشخاص من جماعة مروان حديد، وهم متحمسون كثيرا ولا يخافون الموت، وقاموا بعمليات ضد النظام في حماة، واستغل النظام الفرصة وضرب المدينة كلها. وكان في استطاعة النظام المحافظة على الأمن دون تخريب المدينة.

ـ لماذا لم تتجاوب دمشق وحلب مع انتفاضة حماة؟

* لأن أي عمل، أو انتفاضة، أو ثورة، أو تحرك واسع يحتاج إلى التنظيم في الدرجة الأولى.

ـ إين إذن قواعدكم الشعبية في المحافظات السورية؟

* هذه القواعد مثل غالبية الناس لا يمكن أن تمشي وراء عمليات اغتيال فردية.

ـ بعض أبناء حماة الذين فروا إلى الخارج يتهمون الآخرين بخيانتهم.

* هذا مفهوم ومشروع. لكن لا تتوقع حدوث حركة على مستوى سوريا دون أن يكون تنظيم أو تنظيمات متفاهمة على قيام هذه الحركة في الداخل. كيف تتحرك الناس العزلاء وتواجه الدبابات إذا لم تكن هناك ضمانة بأن هذه الحركة قد تؤدي إلى نتيجة، وليس التضحية لمجرد التضحية، وإلا سيكون ذلك عملا غير مسؤول إذا لم يكن مرتبطا بعملية سياسية متكاملة.

- بعض المؤرخين يقول إن حماة شهدت سبع انتفاضات وليس انتفاضة عام ١٩٨٢ فقط لماذا تتفرد حماة بذلك؟

*حماة لها تاريخ عريق من أيام الثورة السورية، وهي معروفة بالنخوة والدفاع في القضايا الوطنية. ثم إن البنية الاجتماعية في حماه لا تزال بنية تقليدية بحيث أن الناس تمون على بعضها بعضا. وهم مرتبطون بزعامات معروفة ويمكن أن يتحركوا إذا تحركت هذه الزعامات. والعنصر الديني يلعب دوره نسبيا كذلك في حماه. ولعل هذا يفسر لماذا طلع مروان حديد من حماه وليس من مدينة أخرى. وقد يكون لقرب المدينة من منطقة العلويين هو عنصر آخر للتحريض، خصوصا وأن عمليات العمران والتطوير تجاوزت حماه إلى غيرها من المناطق. وهذه العوامل تفسر لماذا تحملت حماه نسبيا حزءاً كبيرا من أثقال مقاومة هذا النظام أكثر من سواها.

جبهة المعارضة

- تسلم الأسد السلطة عام ١٩٧٠ وانتفاضة حماة حدثت عام ١٩٨٢ وفي هذه السنة أعلن أيضا تحالف المعارضة السورية لماذا انتظرت المعارضة ١٢ سنة حتى تتحرك؟

* كل الأحزاب المعروفة في سوريا كان لها تاريخ من الصراعات مع بعضها بعضا، من البعث إلى الناصريين إلى الاشتراكيين إلى الإخوان المسلمين إلى أخره... وجرت محاولات كثيرة لإقامة جبهة وطنية، وكانت تصطدم دوما بعقبة أساسية وهي أن طرفا أو أكثر كان يرفض التعاون مع طرف آخر. الإخوان المسلمين مثلا، عندما برزوا على الساحة كانوا يرفضون التعاون مع أي حزب آخر. وكانت نظرتهم في الوقت تتجه نحو إقامة جمهورية إسلامية في سوريا. وكانوا يرفضون اللقاء مع من يعتبرونهم خارج هذا التوجه، من البعث، أو الشيوعيين، أو الناصريين، أو الاشتراكيين. أما الأطراف الأُخرى، ولنسمها اصطلاحا الأطراف العلمانية، فقد أدركت في وقت مبكر أن أي جبهة وطنية جديرة بهذا الاسم يجب أن تحتوي التيار الاسلامي لأنه موجود ويمثل جزءاً أساسيا من الناس، وقد حمل وحده عبء مواجهة النظام. وقبل قيام التحالف جرت حوارات طويلة مع التيار الاسلامي ووافق بعضه على الانضمام للتحالف الوطني لتحرير سوريا، ورفض بعضه الآخر الفكرة من أساسها ولا يزال. عدنان عقلة مثلا رفض التحالف واحتمى بإيران التي صالحته مع النظام السوري وهو الآن موجود في سوريا، وهو من قادة الاخوان في الداخل. وأما الذين وافقوا على الانضمام للتحالف من "الاخوان" فقد كانوا يدركون أن هذا القرار سيوجد

انشقاقا داخل الجماعة، الأمر الذي حدث فعلا. إذن فالتوصل إلى إقامة تحالف وطني يضم التيارين الوطني والإسلامي لم يكن عملية سهلة. منطقيا قد يكون أمرا بديهيا لكن في الممارسة العملية يختلف الوضع تماما.

- ما هي العوامل التي دفعت بكل فصيل إلى الانضمام للتحالف؟

* الحوارات التي نتج عنها التحالف جرت في أثناء أحداث حماة، في شباط وآذار (فبراير ومارس) من عام ١٩٨٢ وطبعا كان لوجود حدث حي، والأخبار التي تصل كل الأطراف من أن حماة تدمر والنساء تنتهك أعراضها، تأثيره في كسر الحواجز العاطفية بين مختلف فصائل المعارضة، وفي تشكيل عامل ضغط معنويا على كل الأطراف من أنه آن الأوان للتطلع إلى المستقبل بنظرة جديدة وعقل مفتوح وأمل.

- من كان البادئ في الدعوة إلى الجبهة تحديدا؟

* كل الأطراف التي قبلت بالتحالف كانت تدعو إليه. ولا أريد المبالغة بتفضيل فريق على فريق. كان هذا الشعار يتردد على السنة العاملين في الحقل الوطني السوري بشكل منفرد. وجرت حتى محاولات لإقامة تحالف بين الأحزاب داخل سوريا يضم الاتحاد الاشتراكي وحزب العمال الثوري والاشتراكيين العرب (أكرم الحوراني) وجماعة صلاح جديد والحزب الشيوعي المكتب السياسي (الترك). بعض الأطراف طرح الفكرة عندما كنت في سوريا وقام اعتراض على وجود جماعة صلاح جديد على أساس" أن هذا الغيم جلب هذا المطر"، وأن عهد حافظ الأسد هو امتداد لعهد صلاح جديد، هذا في الداخل. أما في الخارج فكان الجميع ينادي بالفكرة وفي أواخر السبعينات (٧٧،٧٨) برز الإخوان المسلمين بعد أن قاموا بعمليات الاغتيال في الداخل فتحول ضمهم إلى أي تحالف قضية أساسية من أجل عقلنة سياستهم وتجنيبهم الانجرار إلى لعبة النظام بتقسيم البلد على أساس طائفي. وفي الأساس كان وجودهم مطلوبا نظريا، وبعد عملياتهم صار وجودهم مطلوبا أكثر لعقلنة نضالهم. وعندما نضجت العملية بعد أحداث حماه ووافقت القيادات الرئيسية للإخوان على الانضمام للتحالف عن اقتناع، في حين رفض المتطرفين منهم الفكرة ولا يزالون.

- من هي الشخصيات التي وقعت على التحالف في باريس عام ١٩٨٢؟

* حزب البعث ومثله شبلي العيسمي والاشتراكيون العرب (أكرم الحوراني) والاتحاد الاشتراكي. (محمد الجراح وجاسم علوان) والإخوان المسلمين (عدنان سعد الدين) والجبهة الاسلامية (الشيخ عبد الفتاح أبوغدة) والمستقلون من أمثال خالد الحكيم ونسيم سفرجلاتي وآخرون في الداخل والخارج.

- بصرف النظر عن الحساسيات من كان العنصر الفعال في إقامة التحالف؟

* أجيب عن نفسي وأقول إنني كنت من أشد المتحمسين لقيام التحالف وكنت أدرك أنا وغيري أنه لا تحالف دون وجود طرفين رئيسيين.. فهناك الأحزاب القومية الثلاثة (البعث والاشتراكي العربي والناصريون). وهناك الطرف الاسلامي المتمثل في الإخوان المسلمين والجبهة الاسلامية. وفي تقديري وتقدير الآخرين أنه حتى نستطيع القول إنه قامت جبهة وطنية، كان لا بد للحزبيين الرئيسيين من أن يتحاوروا ويقبلوا بمبدأ التحالف وهما: حزب البعث والإخوان المسلمين في التيار الإسلامي فإن الإخوان هم الحزب المنظم وفي التيار القومي فإن حزب البعث هو القوة الرئيسية. وبدون هاتين القوتين الرئيسيتين لا تحالف ولا قدرة على التفرد في سوريا. وبصراحة إذا كان هناك ميل للتفرد فإن هذا لن يكون عند المجموعات الصغيرة، بل عند المجموعات الكبيرة، وهم على الساحة السورية واقعيا، حزب البعث من جهة والإخوان المسلمين من جهة أخرى. وبدون أن يلتزما علنا ويتفقا على أساس أن طموحهم لمستقبل سوريا هو نظام متعدد الأحزاب، فلم يكن بالإمكان قيام التحالف. ولا يكفي أن يأتي ولو مئة مستقل ويخلقوا تحالفا لأن القوة الرئيسية هي التي يجب أن تقبل مبدأ التعدد.

- الآن وبعد ست سنوات على قيام التحالف لماذا لم تنضم الأحزاب والفئات الأخرى؟

*هناك فئات أخرى ممكن أن تدخل. في الفترة الأولى كان من الصعب مثلا دعوة الحزب الشيوعي (المكتب السياسي) ويجب تفهم الصعوبة، فمثلا، لعضو من الاخوان يمكن أن يقبل بصعوبة بحزب البعث، ولكن أن يقبل الشيوعيين فهذا كان صعبا جدا. والآن وبعد مضي هذه السنوات فإن دخول الشيوعيين أصبح مقبولا من حيث المبدأ. والامر نفسه ينطبق على الشيوعيين لأنه لم يكن بالأمر السهل تجاوز تاريخ عمر الحزب الشيوعي لنصف قرن. والمشكلة أن الأحزاب العقائدية، التزامها العقائدي يحاصرها أحيانا لمواقع يصعب عليها تجاوزها. على الاقل إلى أن تتمكن القيادات من تثقيف قواعدها على قبول هذه الضرورة. وليس هذا بالمسألة السهلة أن تجمع حزبا إسلاميا وحزبا شيوعيا.

- لكن قيادة الحزب الشيوعي التاريخية بزعامة خالد بكداش متواطئة مع النظام ...

*إن الحزب الشيوعي الذي آمل أن ينضم للتحالف هو الحزب الشيوعي (المكتب السياسي)، وهو أيضا قيادة تاريخية مثل رياض الترك وأحمد محفل. ومنذ تكوين الحزب الشيوعي هما بقيادته.

ولما حدث الانشقاق داخل الحزب الشيوعي فإن الأكثرية في الحقيقة هي المكتب السياسي وليس خالد بكداش.

- هل حاولت المعارضة اقناع خالد بكداش بالتخلي عن دعم نظام الأسد؟

* أن خالد بكداش كل تاريخه السياسي في سوريا. وهو من نوع القادة الشيوعيين الذين صاروا قطعا نادرة هذه الأيام من السياسيين القدامى الذين يعتبرون أن سياسة الاتحاد السوفياتي مقدسة، بمعنى كيف يتجه الاتحاد السوفياتي فإنهم بدون تردد يتجهون. للاتحاد السوفياتي اعتبارات دولية تتجاوز سوريا ونظامها. ولكن خالد بكداش إذا كان عنده أولويات في عقله فالأولوية الأولى هي أن يكون صدى لسياسة موسكو أكثر من أن يكون صدى لرأي قواعد حزبية وجماهير الحزب. بدليل أن الانقسام الذي حدث ضد خالد بكداش لم يتوقف عند خروج أكثرية المكتب السياسي من الحزب وتكوينهم لحزب جديد، بل بعد ذلك حدث انشقاقان أخران داخل حزب خالد بكداش وكل هذه الانشقاقات اعتراض على تعاون خالد بكداش مع النظام السوري.

التعدد.. والوحدة

- الآن هل سينضم الحزب الشيوعي (المكتب السياسي) إلى التحالف؟

* نعم هناك محاولات تجري لتوسيع التحالف حتى يضم شخصيات تمثل قوى حية في داخل سوريا، ولكنني لست بوضع يسمح لي بذكر الأسماء في هذه الفترة.

- ولكن هل هي تمثل اتجاهات، أم أحزابا، أم ماذا؟

* لنقل تمثل اتجاهات.. مثلا الأحزاب القديمة مثل حزب الشعب وبقايا الحزب الوطني. فإن التحالف الوطني لتحرير سوريا أجرى معها حوارات، ولم يبق منهم عناصر فاعلة ومعنية في السياسية السورية كما يجب. هناك اتجاهات لنسميها اتجاهات ديموقراطية داخل سوريا وهي موجودة ولا حاجز بينها وبين المعارضة. بمعنى أن المعارضة الوطنية مثل ما أفهمها، وكما هي حاليا في واقع الحال، لا تتوقف إطلاقا عند أي حدود عقائدية للدعوة التي أطلقها التحالف، والتي لا تزال قائمة إلى الآن، وهي أن أي حزب، أو تنظيم شعبي، أو نقابي، أو سياسي، أو أي شخص مستقل مطلوب منها لموافقة على أمرين: إسقاط هذا النظام وإقامة نظام ديموقراطي متعدد الأحزاب، وأي حزب أو شخص يلتزم علنا بهذين المبدأين له مكان في التحالف.

- هناك من يفكر بأن تعدد الأحزاب قاد إلى المزيد من المشاكل في سوريا، وأن تجربة تعدد الأحزاب مع محدوديتها لم تساعد على إيجاد حزبين أو ثلاثة ليسيطروا على الساحة السورية، بل قادت إلى التشرذم الأكبر فلماذا تعتقد الآن بتعددية الأحزاب، خصوصا وأن البعث هو الذي طرح فكرة الحزب القائد في العالم العربي؟ وهل العودة إلى الكلام عن الحكومات الائتلافية هي عودة إلى الوراء أم تطور في الفكر السياسي للمعارضة السورية؟

* دعنا نأخذ تاريخ سوريا الحديث. أعتقد أن أهم المكتسبات الوطنية التي تمت في سوريا تحققت في ظل تعدد الأحزاب وليس في ظل الحزب الواحد ونظام الفرد لا في عهد عبد الناصر ولا في عهد ٨ آذار وما عقبه. إن سوريا قاومت الأحلاف العسكرية في الخمسينات وتغلبت عليها.

- لقد تغلبت على الأحلاف بالوحدة العربية ....

* إن الوحدة مع مصر هي أهم انجاز تاريخي في هذا العصر. إن الثورة الحقيقية هي تجاوز هذه الكيانات والتطلع إلى إقامة الوحدة العربية التي بدونها أصلا فإن العرب ليس لهم مكن تحت الشمس كما يقال. سوريا بنظامها الديموقراطي وصلت بالإجماع تقريبا (ولم يشذ إلا خالد بكداش والحزب الشيوعي وقتئذ) وقبلت بالوحدة مع مصر. وبتقديري أن هذه الوحدة بالرغم من أنها فشلت وجرى التآمر عليها إلا أنه من الناحية التاريخية هي أكبر إنجاز تحقق ليس على صعيد سوريا، بل على صعيد الوطن العربي كله، وهذه الوحدة تحققت في ظل نظام ديموقراطي متعدد الأحزاب في سوريا. إن الحياة الديموقراطية لم تستقر فترة كافية في سوريا حتى يصبح هناك تقاليد ديموقراطية عميقة. لكن الفترات الديموقراطية على قصرها إذا نظرنا إليها الآن فإننا نشاهد أنها بأي مقياس أنظف من فترات الديكتاتورية. فمثلا الفساد متواجد في أي بلد نام أو متقدم. ولكن في النظام الديموقراطي كان الفساد يكتب عنه وتتم محاسبه المسؤولين. أما الفساد الآن الذي يحدث في سوريا بالمقارنة مع ما كان يتم في الخمسينات لا يمكن مقارنته وهو شعرة من جمل كما يقال. وحول اختيار البعث فكرة الحزب القائد، فإن هذا الطرح لم يحدث عندما كان حزب البعث هو حزب البعث عندما كانت القيادة التاريخية موجودة في السلطة في سورية. لقد حدث هذا بعد عام ١٩٦٦ وبعد انقلاب عسكر شباط ٦٦ ضد القيادة التاريخية لحزب البعث. والآن ممثل القيادة التاريخية

ميشيل عفلق محكوم عليه بالإعدام من قبل النظام الذي يقول إنه حزب البعث، وصلاح البيطار اغتيل من قبل النظام الذي يقول إنه حزب البعث. إن كل جيلنا نحن من البعثيين لا أحد منهم داخل الحزب الحاكم في سوريا الآن، وكلهم أما تركوا الحزب أو أعدموا أو سجنوا. وهناك من سجن منذ عام ١٩٦٩ حتى الآن اعتراضا على هذه الفكرة أي أن يتحول حزب البعث من حزب ديموقراطي إلى حزب ديكتاتوري يحتكر السلطة. وإنني لا أعتبر أبدا أن الحزب القائم الآن في سوريا هو حزب البعث. إن هذا الحزب لا أعرفه، وحزب البعث الذي يحكم على ميشيل عفلق بالإعدام ما هي علاقته بحزب البعث؟

ـ ما أسأل عنه لماذا تخلت القاعدة الشعبية لحزب البعث عن واجبها تجاه الحزب كفكرة وتركته فريسة العسكر من أمثال حافظ الأسد؟

* الآن حزب البعث لديه طبعا تنظيم في سورية. وهو من أكبر التنظيمات الموجودة في الداخل، لكنه تحت الأرض وليس علنيا ولا يمكن أن يكون علنيا. ما حدث أن حركة ٨ آذار قامت بها مجموعة من الضباط الذين كانوا موجودين أيام الوحدة في القاهرة وعلى رأسهم محمد عمران وصلاح جديد وحافظ الأسد وسليم حاطوم وبدر جمعة، وهؤلاء من البارزين. وفي عهد الانفصال سنة ١٩٦٢ وبداية ١٩٦٣ كان الوضع مهلهلا كثيرا، وحتى الميزة الرئيسية التي طرحها، وهي الديموقراطية، ألغاها التدخل العسكري في أواخر عام ٦٢ عندما حل الجيش البرلمان واستلم ادارة الحكم (حيدر الكزبري كان المسؤول الرئيسي في هذه الفترة).

وحدثت ثورة ٨ شباط في العراق عام ١٩٦٣ والتي قلبت حكم عبد الكريم قاسم وحملت حزب البعث إلى الحكم. وهذا تاريخ آخر منفصل، ولكن نجاح البعث في العراق أعطى حزب البعث في سوريا دفعة معنوية كبيرة جدا. ومجموعة العسكريين الذين قاموا بانقلاب ٨ آذار أرادوا أن يعطوا صورة لحكمهم فوجدوا من الطبيعي أن يلجؤوا لحزب البعث من جديد والناصريين من جهة أخرى. لكن البعث لم يأت على أساس أنه هو الذي قام ب ٨ آذار، وهو الذي يحكم بالتالي. بل جاء كشريك فيه لهم أصول بعثية لأن أي ضابط عندما يدخل الكلية الحربية تنقطع صلته التنظيمية مع الحزب، ولكن قسم منهم كانوا بعثيين عندما كانوا طلابا في الثانوية. وفي عام ٦٣حتى ٦٦ حاول حزب البعث عمليا، بالتفاهم والاقناع وكل الوسائل الممكنة، أن يدفع الأمور ويحول النظام إلى

نظام ديموقراطي. وفي هذه السنوات الثلاث كان هناك أناس مستعجلين أكثر من سواهم، وكنت أنا من أول من استعجل في عملية التحويل هذه، وتركنا الحزب في وقت مبكر.

وسنة ١٩٦٦فإن العسكر بزعامة صلاح جديد قاموا بانقلاب ضد حزب البعث باسم الحزب. وكان في هذه السنة حزب البعث في العراق قد سقط من الحكم فخسر الحزب هذه الهالة المعنوية التي كانت تشكل مثل حماية له في سوريا، وبالتالي تمكنت مجموعة ٢٣ شباط أن تسيطر. ولا يعني أنه لم يحدث احتجاج من حزب البعث ضدهم، فحزب البعث أعلنت قيادته التاريخية فورا أن هؤلاء ليس لهم علاقة بحزب البعث، وجمهورهم داخل سوريا هو الذي تحمل اضطهاد عبد الكريم الجندي الذي كان رئيس المخابرات العسكرية، وعمليا فإنه وضع كل البعثيين في السجن وقالوا إننا حزب البعث، أي أنه سجن البعثيين وإدعى أنه هو حزب البعث (أقصد صلاح جديد). هذه العملية حتى بين العسكريين أنفسهم لم تمر بدون اعتراض عليها، وأول من اعترض عليها محمد عمران وأمين الحافظ. فسجنا ثم أطلق سراحهما أثناء حرب ١٩٦٧. وسليم حاطوم وبدر جمعة تم اعدامهما.

أحداث ١٩٦٦

ـ ما هي الملابسات التاريخية لقصة سليم حاطوم وهروبه إلى الأردن وعودته؟

* إن سليم حاطوم قام بمحاولة بالتفاهم مع القيادة القومية، وأحب أن يعود للبعث. وكان للقيادة القومية تنظيم عسكري، وحاولوا إعادة الأمور إلى نصابها ففشلت المحاولة وهرب إلى الأردن. ولما وقعت حرب ٦٧ عاد هو مع الكثير من السوريين الذين كانوا في الخارج من أجل أن يقوموا بواجبهم بالدفاع عن البلد. وهؤلاء كان حظهم سيئا، خاصة بدر جمعة وسليم حاطوم، اللذين قتلوهما تحت التعذيب.

ـ لنستمر في التحليل الهادئ لأحداث عام ١٩٦٦.

* داخل الجيش السوري كان هناك عدد كبير من الضباط ذوي الأصول البعثية من أمثال بدر جمعة وسليم حاطوم. وعندما أعلنت القيادة القومية أنها بريئة من حكم ٢٣ شباط وليس لها علاقة بحكام سوريا الجدد، توجه الضباط الذين عندهم حنين للبعث إلى القيادة القومية ووضعوا أنفسهم بتصرفها من أجل التخلص من عهد ٢٣ شباط. وكان سليم حاطوم هو رأس الحربة في انقلاب

٢٣ شباط لكن يبدو أنه من الأشخاص الذين أعادوا النظر بما قاموا به. وأنشأ تعاونا مع القيادة القومية. وللأسف لم ينجح هذا المشروع وسجن قسم كبير من الضباط وأعدموا.

- ولكن لماذا خلت الساحة السورية ما بين أعوام١٩٦٦- ١٩٧٠ من القواعد البعثية وأصبح ثنائي الأسد- جديد يسيطر على الساحة؟

* حدثت عمليات تصفيات واسعة داخل الجيش وسرح مئات من الضباط الكبار والصغار والتسريحات تناولت البعثيين ومن يمكن أن يقف على رجليه ... أي أفرغ الجيش تماما. وبدأت منذ ذلك الوقت المبكر مع الأسف عملية التمييز الطائفي داخل البلد، واتجه بالدرجة الأولى للجيش. الآن ترى التمييز الطائفي موجود في كل ناحية من نواحي الحياة في سوريا، لكن في بدايته كان مقتصرا على الجيش الذي استبدلوه عمليا بجيش آخر. الأكثرية الساحقة في الجيش كانت من المجندين وتشكيلاته الرئيسية من العناصر المحترفة. وقد جرى استبدال هؤلاء بالكامل. لقد كان الصراع بين حافظ الأسد وصلاح جديد صراعا داخل المؤسسة العسكرية.

- كيف تحلل هذا الصراع؟

* أراد صلاح جديد أن يعطي تبريرا لتفرده في الحكم فاتجه نحو اليسار المتطرف جدا مما أكسبه دعم الاتحاد السوفياتي والاعتراف به كنظام بعثي اشتراكي تقدمي... لكن المبالغة اليسارية أوجدت في الداخل أزمة اقتصادية طالت جميع الناس وخصوصا طبقة البرجوازية الوطنية، وحدثت تجاوزات كثيرة في عمليات التأميم والمصادرات والاعتداء على الناس. أي أن صلاح جديد جعل من المزايدة اليسارية التي بدأها بدافع انتهازي خيوطا وقع هو في حبائلها أخيرا بمبالغاته اليسارية الطفولية المتطرفة وشعاراته وخطبه. وفي هذه الأثناء وقعت حرب ١٩٦٧. وكان النظام السوري هو العنصر الأساسي في جر العرب إلى معركة معروف سلفا أنها خاسرة. وخلافا للخطة العربية المتفق عليها في قمة ١٩٦٤ساد التذمر في الداخل ولم تكن الناس قد اعتادت الصبر طويلا على الظلم والقهر، فوجد حافظ الأسد الفرصة سانحة له ليتفرد شخصيا بالنظام. وكل ما فعله أنه غيّر هذه المبالغة اليسارية المتطرفة، ونشط التجارة الداخلية، وسمح للمقاولين والتجار بأن ينشطوا.

ـ ماذا عن مساهمة الضباط السنة مثل عبد الرحمن خليفاوي وعلي المدني وحكمت الشهابي ومصطفى طلاس في ايصال الأسد إلى السلطة؟

* كان حافظ الأسد وزيرا للدفاع. وكان الجيش معه وهؤلاء الذين ذكرتهم هم جنرالات بلا جنود، وليسوا مبرزين عسكريا في أي ميدان، وليس لهم نشاط معروف سابقا، وليسوا ضباط ميدان. أنهم موظفون وبعضهم خدم.

ـ ما الذي ساعد الأسد على ضرب صلاح جديد الذي كان متمكنا أكثر من أجهزة المخابرات؟

* أول عمل قام به حافظ الأسد أنه حاصر مسؤول المخابرات عبد الكريم الجندي الذي كان رمزا للإرهاب في عهد صلاح جديد وحمله على الانتحار.

ـ ليس هو الذي قتله كما قيل؟

* لا لم يقتله، بل دفعه إلى الانتحار.. فقد حاصره في مكتبه وكان الجندي عضوا في القيادة، وكان يعرف أنه إذا استسلم فإنه سيقتل. وبسقوط الجندي أكمل الأسد سيطرته على الجيش والمخابرات. وبقي صلاح جديد مسيطرا على الحزب فقط الذي لم يعد هو حزب البعث المناضل، بل حزب صلاح جديد ولذلك انتقل ببساطة إلى قيادة حافظ الأسد.

ـ هل كان اعتماد الحزب على العسكر خطأً تاريخياً؟

* عندما وافق حزب البعث على التعاون مع جماعة ٨ آذار كانت هناك قضايا كثيرة مطروحة ومنها إعادة الوحدة. ليس الوحدة بين سوريا ومصر فقط، بل الوحدة الثلاثية بين سوريا والعراق ومصر. وهذا الهدف الكبير لحزب البعث. كان دافعه الرئيسي أن البعث حزب وحدوي ومن أجل هذا وافق على حل نفسه عام ١٩٥٨ لتسهيل قيام الوحدة السورية – المصرية وحركة ٨ آذار أعطت حزب البعث في ذلك الوقت فرصة تاريخية لإعادة الوحدة على أساس أنه تسلم الحكم في العراق. ومصر لا تزال ناصرية. وفي داخل سوريا لم يتعاون حزب البعث فقط مع حركة ٨ آذار، بل تعاون مع الناصريين أيضا للهدف نفسه. وكان الناصريون متعجلين وطرحوا شعار الوحدة الفورية والعودة إلى إطار وحدة ١٩٥٨ بينما كان يرى البعث آنذاك، كما كتب الاستاذ ميشال عفلق عام ١٩٦٢، أن أخطاء الوحدة لا تبرر الانفصال، ولا بد من بحث هذه الأخطاء وتجاوزها وإعادة النظر والتدقيق فيها حتى لا يظهر حكم فردي يعتمد على المخابرات والإرهاب كما حدث في وحدة ١٩٥٨. ولذلك يجب أن تكون الوحدة ثلاثية. وفعلا جرت مباحثات بين

البلدان الثلاثة واتفق على قيام وحدة ثلاثية في نيسان ١٩٦٣، لكن تأزم الخلاف في سوريا بين البعث والناصريين الذين يريدون الوحدة الفورية أدى إلى تركهم الحكم. ولم يُقاتلوا، وكانوا برئاسة لؤي الأتاسي وجاسم علوان من العسكريين، وعبد الكريم زهور وجمال الأتاسي ومحمد الجراح وغيرهم من المدنيين. وتخلوا عن حركة ٨ آذار في وقت مبكر، أي في تموز ١٩٦٣ بعد فشل محاولة ١٨ تموز التي قام بها جاسم علوان. وبقي حزب البعث وحده في الحكم. لكن لم يكن هناك اندماج بين تنظيم حزب البعث والتنظيم العسكري الذي قام بالانقلاب، بل كان هناك التقاء في المجلس الوطني على أساس أن للحزب ممثلين محدودين، وللعسكر عدد محدود أيضا. وكان الحزب يسعى إلى تطوير الأمور في اتجاه ديمقراطي. وآخر وزارة شكلها صلاح الدين البيطار عاشت مئة يوم دعا فيها كل الاحزاب في سوريا للمجيء إلى مجلس نواب متفق عليه ووضع قانون انتخاب جديد. ولكن حدث الانقلاب بعد مئة يوم من بيان صلاح الدين البيطار.

لماذا شكل البيطار الوزارة ثلاث مرات؟

لأنه كان من الصعب حسم الخلاف بين المجموعة العسكرية التي تريد ترسيخ الحكم العسكري وبين حزب البعث بتقاليده المناوئة للنظام العسكري. وتاريخيا فإن الانقلابين الكبيرين في سوريا قام بهما حسني الزعيم وأديب الشيشكلي. وقد حمل البعث راية الكفاح ضدهما. لهذا فإن القول بأن حزب البعث هو الذي أتى بالعسكر فيه ظلم. أما عن مسؤولية الاشتراكيين والأستاذ أكرم الحوراني في تشجيع حسني الزعيم والشيشكلي، فقد سمعت بهذه الأقوال، ولكن الحوراني منذ ١٩٥٢ كان عضوا في قيادة حزب البعث المعارض للانقلابات العسكرية. ولما اضطهد الشيشكلي حزب البعث كان عفلق والحوراني والبيطار هم قادة الحزب وعاشوا السنة الأخيرة من حكم الشيشكلي في الخارج كلاجئين سياسيين. ولم يكن للحوراني موقف مختلف داخل الحزب.

الحلقة الثانية

- الوطن العربي: لكن من يتحمل المسؤولية عن فشل قيام الوحدة الثلاثية؟

* **حمود الشوفي**: نظام الحكم العسكري في سوريا ومصر يومذاك كان هو المسؤول. النظام العسكري الناصري اعتمد المخابرات والقمع والإرهاب دون مبرر. والنظام السوري أيام الوحدة اضطهد كل الوحدويين وخصوصا حزب البعث.

- ألم يرتكب حزب البعث خطأ تاريخيا عندما وافق على حل نفسه؟

* البعث في عقيدته هو حزب الوحدة العربية. وهو في الدرجة الأولى حزب، وحدوي، وديموقراطي، واشتراكي. وعندما وجد لأول مرة في التاريخ الحديث، وحدة تتحقق بين قطرين عربين لم يتردد في قبول شروط عبد الناصر، وكان شرطه الأساسي ألا تقوم الوحدة بوجود أحزاب في سوريا لعدم وجود الأحزاب في مصر. ووجد حزب البعث نفسه أمام هذه المعادلة: إما الوحدة وإما الحزب. واختار البعث أن يحل نفسه في سوريا لأنه حزب قومي وله تنظيمات قائمة في أقطار عربية أخرى. ولا أقول إن هذه الخطوة كانت صوابا أو خطأ لأن المسألة كانت نظرية: أن تقوم الوحدة أو لا تقوم. وإذا أراد المرء أن يفكر الآن بمنظور تاريخي فإن السؤال هو هل كان من الأفضل أن تتحقق الوحدة أو لا تتحقق؟ وليس السؤال أن يحل الحزب نفسه أو لا يحل نفسه.

- بالعودة إلى محاضر مفاوضات الوحدة التي بثها صوت العرب ونشرت عام ١٩٦٣في مجلدات يتبين أن السوريين لم يكونوا جديين في طلب الوحدة.

* ربما كان بين العسكر السوريين الذين فاوضوا من لم يكن جديا مثل صلاح جديد. أما ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار، فأعتقد أن أحدا في الوطن العربي لا ينكر وحدوتيهما وجديتهما. وكذلك الحزب في العراق الذي كان مرتبطا بالقيادة القومية برئاسة ميشال عفلق. ربما كان هناك أفراد ضمن الوفد السوري لم تكن لديهم الرغبة الصادقة. ولكنها لم تكن ظاهرة قبل عام ١٩٦٦ وربما كان هذا الأمر من أسباب الصعوبات التي واجهت التوصل إلى اتفاق مع عبد الناصر.

- لماذا؟ هل كان عبد الناصر خائفا من تجارب الماضي؟

* تماما فهو كان يتخذ موقفا معاديا للأحزاب، ووجد نفسه يتفاوض مع حكومتين حزبيتين وكان عبد الناصر يعرف أن الرأي العام في سوريا والعراق يطالب بالوحدة. وحتى نشر محاضر الوحدة يمكن تفسيره بأنه كان بدافع نيات مبيته إذ لم يكن هناك اتفاق على تسجيل الحوار، لأنه كان حوارا نظريا في معظمه. كان عبد الناصر يقول في ذلك الحين أنه لا يوجد خلاف نظري بينه وبين حزب البعث، والحرية كانت من مبادئ الثورة المصرية عام ١٩٥٢ وكذلك الاشتراكية والوحدة. وكان لا بد من نقاش نظري وعتاب لإزالة ما قد يكون عالقا في الأذهان والقلوب. لكن نشر المباحثات أكد الظنون من أن عبد الناصر لم يكن جادا وأنه أوعز بتسجيل المحاضر ونشر ما لم يكن معدا للنشر.

- أين سوريا الوحدوية في عهد حافظ الأسد؟ اعتقد أن الأجيال الجديدة في سوريا لم تعد مؤمنة بها.

* لنكن دقيقين. وليس لدي الانطباع بأن النشء الجديد في سوريا تحول عن العقيدة القومية. وشعبنا مثل غيره تجد فيه قلة تنساق مع التيار وتفتش عن مصالحها قبل المصلحة العامة. وحتى النشء الجديد لا يمكنك أن تفصله عن تاريخه. وسوريا مرتبطة بالفكرة العربية في تاريخها الحديث. في الثلاثينات، عندما حاول الفرنسيون تقسيم سوريا إلى دويلات طائفية، اصطدمت بمطالب كل الأحزاب ورجال السياسة الذين قدموا مطلب الوحدة الوطنية حتى على مطلب الاستقلال، وفضلوا البقاء شعبا واحدا ولو تحت الاستعمار، على الاستقلال مع التجزئة إلى خمس دويلات طائفية. الخوف من التشعب والتقسيم الطائفي واضح في سوريا منذ أواخر القرن الماضي، والنضال ضد الأتراك كان على أساس قومي عربي. وقد حافظت سوريا على هذا التقليد. وحتى الجيل الذي يذهب إلى مدارس حافظ الأسد ويرى أهله في طوابير الخبز والخضار يعايشون الذل، قد يخرج منه أفراد. كما خرج من جيلنا- يهتمون أولا بمصالحهم الخاصة. لا أقول إن شعبنا أحسن من غيره. لكنه ليس أسوأ. وعندما تتوافر الظروف والقيادة الملائمة والوضوح الفكري، أعتقد أن الأكثرية تختار الطريق القويم والقومي، وليس القطري والوحدة الوطنية لا الطائفية.

- التحالف الوطني لتحرير سوريا هل سينتقل إلى الكفاح المسلح ضد النظام السوري بعد انتهاء مرحلة التجميع والتنظيم الفكري؟

* لن يكون للتحالف معنى دون ذلك. وفي كل ما ينشره التحالف على ألسنة المسؤولين فيه يدعو إلى إسقاط هذا النظام حفاظا على الوحدة الوطنية في سوريا، والتي لا يمكن الحفاظ عليها إلا بالديمقراطية.

- ما هي السبل التي سينتهجها التحالف لإسقاط النظام؟ وهل سيقتصر على توزيع المنشورات؟

* إن إصدار نشرة وتوزيعها داخل سوريا هو اليوم خطوة كبيرة ومهمة. التحالف اختار عبارة "تحرير سوريا" بما يوحي أنها تحت حكم أجنبي. وواقع الحال دون مبالغة أن هذا النظام أجنبي عن سوريا. ويجب أن نفعل ذلك حتى لا يكون مستقبل سوريا مثل حاضر لبنان. وللنضال أساليب، ولا أستبعد أي أسلوب بشرط أن يكون منسجما مع الهدف الذي يتوخاه هذا النضال. وإذا كنا نسعى – ونحن كذلك- إلى إقامة نظام ديمقراطي متعدد الأحزاب، فإن عبء النضال لا يقتصر على تنظيم واحد وحزب واحد لئلا يكون ذلك بداية للتفرد في المستقبل. يجب أن يساهم في النضال كل الأحزاب والشخصيات والقوى. من الناحية العملية إذا تأخرت عملية التحرير شهرا مقابل انضمام قوة جديدة للنضال فإنني أقول: لنؤخر التحرير شهرا لنضمن أوسع قاعدة مشاركة للقوى المختلفة، ويكون من حقها مستقبلا المشاركة في نظام متعدد الأحزاب من الوسط واليمين واليسار. الصيغة العملية في اعتقادي هي أن أي جهد يجب أن تسبقه مرحلة لا أسميها الصحوة، بل الاستعداد للتحرك بالتظاهر والإضراب. وقبل الكلام عن النضال المسلح والمواجهات العسكرية، لا بد أن يكون المناخ الشعبي وصل إلى حد المشاركة الجماهيرية في الداخل ضد النظام. وما تحاول المعارضة السورية تحقيقه الآن هو شيء مختلف تماما عما كان يجري في السابق. في الماضي كان يقود عملية النضال حزب واحد. أو ضابط أو مجموعة ضباط، أي قوة سياسية متجانسة عقائديا وتكتيكيا. ما يجري الآن جديد في العمل السياسي العربي... فهذا النضال لإسقاط النظام هو من نوعية النضال لإسقاط المستعمر الأجنبي. وهذا يقتضي انخراط الأحزاب والقوى السياسية من اتجاهات متعددة في عملية النضال. عملية الانضاج هذه لا أقول إنها طالت، ولكن أقول أنها لا بد أن تحدث، ولا يمكن افتعالها قسرا. لا يسقط النظام من الخارج، بل من الداخل ... أي أن يكون هناك استعداد لدى العمال والطلاب والمثقفين والتجار وكل قطاعات الشعب للاستجابة لعملية

التغيير، اقتناعا بأن القائمين على التغيير فعلا يريدون تغيير النظام، وليس تغيير الشخص. أي تغيير الصيغة السياسية القائمة، وهي صيغة الحكم الدكتاتوري الفردي والإرهابي، وإقامة صيغة ديمقراطية متعددة الأحزاب يوافق عليها الجميع. المشكلة في سوريا أنه حتى يتم التوصل إلى مثل هذا الاقتناع على مستوى الشعب بشكل عام، لا بد من جهود فائقة، لأن كل أطراف التحالف الرئيسية لها تجربة معروفة لدى الناس بشكلها السلبي. وحتى تبني تواصل هذه القوى بقناعاتها الجديدة لا بد من وقت، وعملية تثقيف واسعة وتعاون بين الإخوان المسلمين والبعثيين والناصريين، وأن يتم هذا التعاون في الداخل. وأن يقولوا للناس إنهم تحولوا من فكرة التفرد إلى فكرة التعدد. وهذا ما يحمل البعض منا على التأفف، وقد ضاق صدره ويردد: إلى متى الانتظار؟

المعارضة العلوية

ـ خلال ١٨ سنة من حكم الأسد لم نر أثرا لعملية النضوج هذه التي تتحدث عنها.

* صحيح. صحيح ... لكن إذا توصلنا إلى هذه المرحلة نكون قد صنعنا شيئا كبيرا للبلد.

والآن، كيف يتطور الوضع داخل سوريا؟

قلت إن الناس مهتمة بشؤونها الخاصة، ولكن التمييز الطائفي والشرخ الطائفي عميق إلى درجة يصعب تصورها لأنه مخيف. وأي تحرك ضد النظام شرطه الرئيسي ليكون تحركا وطنيا لا طائفيا، أن تكون هناك مشاركة علوية أساسية لتلافي إعطاء الانطباع للشعب السوري أنها ليست قضية سنية ضد العلويين، أو قضية درزية ضد السنة، أو قضية سنية ضد النصارى... وفي ظروف سوريا القائمة حاليا، ومع التاريخ المعروف للأحزاب المشاركة في التحالف، فإن التحالف وحده لا يكفي، ويجب أن تتوسع الصيغة لتضم قوى أساسية من الطائفة العلوية. والانتظار من أجل تحقيق غاية كهذه ليس انتظارا دون جدوى، لأنه شرط أساسي للحفاظ على الوحدة الوطنية عندما تحين ساعة التغيير.

- هناك طبعا البداية والطليعة المعارضة من الشخصيات العلوية مثل الشاعر أحمد سليمان الأحمد. ولكن هل تعتقد أن ظروف العلويين في ظل النظام الحالي تسمح لهم بالاستجابة إلى النداء؟

* عندما تقول " طائفة"، هناك أمران إذا تداخلا فإنهما يضيعان البلد وتضيع معهما. الأمر الأول هو الطوائف كإرث ديني تاريخي. والثاني هو الطائفية السياسية التي تعني استغلال هذا الإرث القديم لأغراض سياسية انتهازية. إن وجود الطوائف في سوريا هو أمر قديم ومعروف ومقبول ولا اعتراض عليه. بعض المتطرفين من التيار الإسلامي قالوا إن حل هذه المشكلة يكون بأن نجعل الناس تتحول إلى السنة ولو قسرا وبالعنف، وهو أمر مشابه لما يقوله الخميني ويفعله اليوم. لا أقول إن الطائفة العلوية كل متجانس تاريخيا وواقعيا. هي ليست متجانسة شأنها في ذلك شأن السنة، والدروز، والإسماعيلية، وغيرهم. ولكل واحد من الناشطين سياسيا عادة توجه الذهني، فقد يكون بعثيا أو شيوعيا أو غير ذلك. ولا يوجد سبب منطقي يجعل الحاضر مختلفا عن الماضي. وطبعا فإن إثارة النعرة الطائفية يمكن أن تجد قوى جاهزة للسير في هذا الاتجاه. وهذه القوى هي عادة الأكثر جهلاً والأقل علما وثقافة. وهي ليست الجسد الرئيسي في المجموعة البشرية التي اسمها الطائفة. ومن خلال التجربة، وليس نظريا، أعتقد أنه لا يوجد ضمن الطائفة العلوية قبول بهذا النظام. ولو أتيح لنا إجراء نوع من الإحصاء لتبين لنا أن نسبة السنة المتعاونين مع النظام أعلى من نسبة العلويين المتعاونين معه. والمثل يقول: إذا أردت أن تطاع فأطلب المستطاع. ولا نكون واقعيين على الإطلاق إذا قلنا إن هذه الأكثرية الوطنية بين العلويين المعادية للنظام والمرتبطة بوحدة الشعب والقضايا القومية، يمكن أن تنقاد للإخوان المسلمين مثلا. ولا بد لها أن تكون ممثلة في جبهة وطنية حتى يمكن أن تصل إلى جمهور العلويين مثل أي طائفة أخرى، وأن تشارك في عملية التغيير.

- من يراقب المحيط العربي يلاحظ انحسار القومية العربية وظهور دول الطوائف والأقليات. ودول القبائل والتقوقع القطري. وهذه الأقليات حصلت على امتيازات من الصعب التخلي عنها. فكيف يتخلون عنها؟

* كما تخلى عنها أحمد سليمان الأحمد.

- هذا موقف شاعري مرهف...

* سيأتي الوقت الذي نتكلم فيه بالأسماء، والأحمد ليس هو الوحيد. العلوي يعد إلى العشرة إذا كان غيره يعد إلى الخمسة، قبل أن يأخذ موقف المعارض. ولكنه في النهاية سيتخذ هذا الموقف.

- ماذا سيمنحه التحالف ليتخلى عن امتيازات ثلاثة عقود؟

* من هم الذين حصلوا على امتيازات من العلويين؟ إنهم قلة. والأسماء التي نشرتها منظمة العفو الدولية تضم عشرات من العلويين ومنهم البعثي أو الشيوعي أو الناصري، وهم في السجون ولم يشفع لهم أنهم علويون.

- ربما لأنهم تطلعوا إلى السلطة؟

* لا، أبدا". هل الحزب الشيوعي (جماعة الترك) يتطلع إلى السلطة؟ حزب البعث المضطهد يضم علويين كثيرين في الداخل والخارج. إذا أخذت عينة من الناس تجد نسبة٢% مثلا من السيئين في أي ظرف. وتجد النسبة نفسها في العينة نفسها من الفضلاء في أي ظرف. الغالبية الساحقة هي بين بين، أو " هكذا وهيك"، وهذا حسب الظروف. ولا يوجد أي سبب تاريخي أو ثقافي أو اقتصادي يجعل من العلويين طبقة اجتماعية بهذا المعنى. من المستفيد من النظام؟ رفعت الأسد؟ ولكن هذا يقابله مصطفى طلاس مثلا من الطائفة الأخرى.

رفعت الأسد

- لماذا خرج رفعت الأسد من سوريا؟ هل خروجه كذبة كبرى؟ أم أن ضميره بدأ يعذبه؟

* الضمير لا علاقة له بهذه القضية. القصة بسيطة. مرض حافظ الأسد عام ١٩٨٥ وشارف على الموت. وكانت هنالك خلافات بين المقربين وخصوصا بين رفعت وقادة المؤسسة العسكرية: علي دوبا وعلي أصلان وعلي صالح وشفيق أصلان ومحمد الخولي. وهي خلافات على السلب والنهب وليست عقائدية أو سياسية، وكل واحد منهم يريد احتكار شيء لنفسه. رفعت يريد احتكار استيراد السجاير الأجنبية، وآخر هو محمد مخلوف شقيق زوجة حافظ الأسد عارضه ونافسه. وكان محمد مخلوف يحصل على ربح قدره ثلاثون قرشا عن كل علبة سجاير أجنبية تدخل سوريا. ضارب عليه رفعت الأسد وقبل بمبلغ ٢٥ قرشا. وهذه قصة واقعية اختلفوا على السجاير، ثم على التهريب، ثم على السيارات. ولأنهم بلا حسيب ولا رقيب عليهم، أصبح كل واحد منهم يحاول احتكار مصادر ربح حرام على حساب الأخرين. وفيما بعد حاول كل واحد منهم إعطاء هذا

الخلاف على المغانم شكلا سياسيا. مثلا مجموعة الضباط تمثل اليسار، ورفعت يمثل اليمين. عندما مرض حافظ الأسد وشارف على الموت، شعر كل طرف بأنه في سباق مع الطرف الآخر، وأن رفعت الأسد إذا سيطر على السلطة فإنه سيقص رقابهم. وكان هذا هو شعور رفعت أيضا. وتسابق الجميع في حرب دعائية: المخابرات وجماعة علي دوبا ومحمد الخولي من جهة، وسرايا الدفاع من جهة ثانية. فريق رفع صور حافظ الأسد، وفريق صور رفعت الأسد. وعندما شفي رئيس الدولة، وهو ككل دكتاتور يعتقد أنه خالد ولن يموت، ونقل إليه ما قام به رفعت، لم يعد من الممكن لفلفة الأمور بعد أن أصبح الأمر علنيا. ولأن حافظ الأسد لم يتمكن من التخلص من الجميع دفعه واحدة، ونظرا لتضامن خصوم رفعت، فقد وجد المخرج الطبيعي بترفيع رفعت إلى منصب نائب الرئيس، وإبعاده من سوريا بالاتفاق معه. وهذه ليست رغبة حافظ الأسد، وإنما لإرضاء المجموعة العسكرية التي يخشى أن يفقد ولاءها فتتحرك ضده، والآن يتصارع الطرفان تحت مظلة حافظ الأسد.

- ماذا عن باسل نجل حافظ الأسد؟

*يمكن أنه يحاول، ولكن النظام هو نظام حافظ الأسد. وإذا مات بشكل طبيعي انتهى النظام

- من سيرث النظام؟

* العسكر.

- وأهمهم؟

* محمد الخولي وعلي دوبا وعلي أصلان.

- هل هم قادرون على حفظ النظام؟

* هذا أمر آخر. ولكنهم نظريا إذا توفي الأسد فإنهم سيستلمون الاذاعة والجيش.

- أين إذن نفوذ رفعت؟

* المرتشون الذين جمعوا ثرواتهم من وراء استزلامهم لرفعت هؤلاء ولاؤهم للثروة التي جمعوها. لا يمكن خلق قوة سياسية نتيجة الرشاوى والفساد والمسألة أعقد من ذلك. نجح حافظ الأسد في احتكار السلطة طوال ١٨ سنة، ولكن ماذا حل بالبلد؟ وكيف استخدم السلطة؟ وماذا سيترك وراءه؟

- مع ذلك هل يمكن لرفعت أن يتخلى بهذه البساطة؟

* سيحاول. ولكن لو كان عنده النفوذ الكافي لما خرج من سوريا. وعندما خيّر حافظ الأسد بين رفعت والمجموعة العسكرية، كان من الطبيعي أن يختار رفعت لأنه لا يشك بولائه له. ولكنه اختار الطرف الآخر لأنه في الحسابات التي أجراها وجد أن القوة بيدهم، أي الجيش والمخابرات العسكرية.

- ماذا عن البارزين في الطائفة العلوية الآن؟

* البارزون أشخاص تافهون جدا وليس لهم جذور عشائرية، أو ثقافية، أو وضع اجتماعي، أو أي شيء. وهم لا يمثلون زعامة دينية أو أي شيء من هذا القبيل.

- لماذا استمروا إذن؟

* الإرهاب هو الذي مكنهم من الاستمرار. فرانكو حكم اسبانيا ٣٠سنة. إن بيدهم السلاح وميزانية الدولة وكل التجارة والمساعدات العربية والسكوت العالمي عنهم.

- كيف تفسر انحياز الأسد إلى إيران؟ المال؟ الكراهية؟ ماذا؟

* هذه قضية تتطلب محللا نفسيا لا محللا سياسيا. يبدو أن شهوة الحكم عند حافظ الأسد تطغى على أي اعتبار آخر، حتى الاعتبارات الوطنية والقومية والإنسانية. لقد جاءته فرصة لا تتوفر إلا للقلائل من دكتاتوري العالم. ذلك أنه عندما قام بانقلابه على صلاح جديد فإن الناس أيدته.. لكنه عوضا عن أن يبني على هذا التأييد، أختار أن يكون رجل أمن وليس قائدا سياسيا، وذلك من الأيام الأولى. وكانت أمامه فرصة لتطوير النظام لأنه أتى في أعقاب نظام دكتاتوري فردي طائفي بغيض، ولكنه اختار العكس. لم يمش فقط على خطى صلاح جديد، بل وبالغ فيه بهذا الأسلوب الذي وصل إلى مجزرة حماة. وقد تكون تدخلت عوامل خارجية للتلاعب بعقله، ولكن المسؤولية التاريخية تقع عليه في النهاية.

- أليست هي مسؤولية الناس التي سكتت ١٨ سنة؟

* نحن الآن في أميركا. وليس لنا الحق في إصدار حكم على الناس الذين عانوا الإرهاب والذل والقهر. لم يفعل أحد في سوريا كما فعل هذا النظام، لا تيمورلنك، ولا هولاكو، ولا الاستعمار الفرنسي، ولا الأتراك، ولا اليهود في فلسطين. مدى الظلم والإرهاب المفروض على الناس في سوريا يجعلني أتردد كثيرا في تحميل الناس المسؤولية. أفتح الإذاعات الخارجية تجد أن العالم نسي وجود الشعب السوري وهذا يخلق حالة من القهر. الصمت العربي والعالمي على النظام السوري " يهد الحيل".

واشنطن- موسكو

- إذا أردنا أن نحلل هذا الصمت نقول إن الصمت العربي سببه أنه يجد في هذا النظام خصما عنيدا لإسرائيل. ودوليا هناك نوع من التملق للنظام لجلبه إلى حظيرة التسويات السلمية.

* النظام الوحيد الذي لديه توجه قومي وعربي هو نظام حزب البعث في العراق الذي يخوض حربا لأكثر من سبع سنوات دفاعا عن الأرض. ومن التجني مطالبته بأكثر من ذلك. فهو يقدم التضحيات والرجال والشهداء، وصموده هو صمود العرب. أما الأنظمة العربية الأخرى فكل واحد منها معني بقضاياه. مصر بوزنها وثقلها ومركزها العربي كان يمكن أن تكون عنصر دعم وتشجيع، ولكنها بعد غياب عبد الناصر اختارت طريقا آخر. مبارك يحاول بحذر أن يعيد مصر لتلعب دورها العربي، ولكن ببطء. وليست لديه الرغبة بان يقود مصر كما في أيام عبد الناصر. ولديه اهتمامات اجتماعية واقتصادية. وهي قضايا مخيفة. ويمكننا أن نفهم ثقل القضايا الداخلية التي تقيد حرية مبارك لو أراد أن تستعيد مصر دورها العربي. النظم العربية الأخرى بشكل عام معنية بقضاياها الداخلية أكثر من اهتماماتها العربية، وليس في هذا ظلم لأحد. إذن، عمليا، فإن العرب غائبون عما يجري في سوريا. وباستثناء العراق ومصر ليس من الممكن حضورهم. أما الدول الأجنبية فليست دول عشائر، وهي تفكر في مصالحها. الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مصلحتهما على امتداد التاريخ هي الحفاظ على الحالة الراهنة. وسوريا عنصر تغيير فاعل في محيطه العربي. ووطنية سوريا هي أن تنشر القومية العربية وتذوب فيها، وتحقق الوحدة العربية. أي تغيير الحالة الراهنة. والدول الكبرى لها مصالح في المنطقة، ولا أقول مصالح استعمارية. ومهما كانت الشعارات، فإن الدول الكبرى تسعى للحفاظ على الحالة الراهنة، وتعرف كيف تتعامل معها، والتغيير يقلقها. الدول الكبرى تحكمها البيروقراطية التي هي ضد التغيير. ومن المريح لأميركا وللاتحاد السوفياتي أن تغيب سوريا عن لعب دورها العربي. ويخيل أليهم أنه في غياب الدور السوري تغيب العروبة أصلا ومعها وجع الرأس.

إن أي تحرك عربي يعني تغيير الجغرافيا والحدود وخلق إمكانات جديدة، ويعني نقل العرب من أن يكونوا حصة الغالب إلى أن يصبحوا أطرافا في الصراع الدولي والمعادلة الدولية. أن العرب الآن مثل أفريقيا، هم حصة الغالب. إذن فالمسألة مريحة جدا بالنسبة للدول الكبرى. ببقاء الحالة

الراهنة، وهو الحل الأفضل والأمثل. إذا تغير النظام فهم يستطيعون التعامل مع النظام الجديد، لكنهم في الوقت نفسه يمكنهم المساعدة على إبقاء النظام إذا شعروا بأنه مهدد.

- نسمع دائما في الغرب بأن الأسد نجح في تحقيق الاستقرار في سوريا.

* هناك حقيقة. وهي أن فرنسا وأوروبا لم تعودا من القوى الفاعلة. القوتان الفاعلتان هما الإتحاد السوفياتي وأميركا، ظاهريا على الأقل. والاتحاد السوفياتي مثل كل القوى الكبرى حريص على استمرار الوضع الراهن، خصوصا إذا كان هذا النظام يقول، ولو ظاهريا، أنه اشتراكي، وهو سوق جيد للسلاح لاستيراد البضائع الرخيصة. ومن وجهة نظر الاتحاد السوفياتي فإن سوريا لا تزعجه إذا كان النظام غير ديمقراطي، فمن قال إن الاتحاد السوفياتي ديمقراطي؟ وما من سبب منطقي يحمل السوفيات على معاداة النظام، إلا إذا انحاز بشكل كامل سياسيا إلى أميركا. أما الولايات المتحدة فبتقديري أن سياستها في الشرق الأوسط أسيرة للسياسة الإسرائيلية وليس العكس. وسياستها في المنطقة هي بنسبة ٩٥٪ صورة طبق الأصل للمصلحة الإسرائيلية كما يراها يمين الصهيونية، وليس كما يراها الصهاينة الليبراليون. خذ مثلا: منذ أيام كارتر وحتى الآن نرى أميركا تسعى في أسيا وأفريقيا وأمريكيا اللاتينية بشكل خاص لتشجيع التحول نحو الديمقراطية. أما في الشرق الأوسط فإن الديمقراطية وحقوق الانسان لا تعني لها شيئا لأن مصلحة إسرائيل هي كذلك. لبنان كان نظاما ليبراليا، وسلم أمره إلى أميركا دون تحفظ. ولكن أميركا تخلت عنه لأن مصلحة إسرائيل أن يتحول لبنان إلى حزام طائفي.

وإذا أردنا دراسة سياسة أميركا نحو نظام حافظ الأسد فأن العامل الحاسم في هذا الأمر هو: أين مصلحة إسرائيل؟ ومصلحتها أن تتفتت سوريا ليس إلى أربع دول طائفية، بل إلى عشرين دولة إذا أمكن. لأن وجع الرأس يأتي من سوريا. والتجربة العملية تؤيد ما أقوله، فعندما وجدت إسرائيل من مصلحتها دخول بيروت لم تكن سوريا عقبة في وجه ذلك. ولما ضمت الجولان لم يكن حافظ الأسد عقبة في طريقها. وعندما ارتأت إسرائيل أن مصلحتها أن تكون الحدود مع سوريا هادئة لم تجد كذلك عقبة. إن تفتيت سوريا وانحيازها لإيران وضرب التضامن العربي في حدوده الدنيا يخدم مصلحة إسرائيل. موقف أميركا المتعاطف مع سوريا هو امتداد لمصلحة اسرائيل الحريصة على ضرب سوريا وقهرها على يد واحد من أبنائها.

حدث ذات يوم

- ألا ترى ازدواجية في الموقف الأميركي بين استقبال شولتز بالأحضان في دمشق، وبين إعلان أميركا أن سوريا متورطة بالإرهاب، ومع ذلك يجري الحديث همسا عن محاولة لعقد قمة بين ريغان والأسد؟

* هنالك نوع من العلاقة الجدلية بين صلة الحاكم بالداخل وصلته بالخارج. الحاكم يكون قويا في وجه الخارج إذا كان شعبه معه في الداخل. عبد الناصر وقف في وجه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لأن الشعب كان معه. وصدام حسين يقف في وجه إيران بحجمها الذي يساوي ثلاثة أضعاف حجم العراق وتحصل على السلاح والدعم من الصهيونية وأميركا لأن الشعب العراقي مع صدام حسين، ولكن عندما يكون الحاكم معزولا في الداخل مثل حافظ الأسد فإن موقفه يكون صعبا جدا أمام الخارج، وكلما تقاوى على شعبه في الداخل كان أكثر ذلا في التعامل مع الخارج.

وأريد أن أروي لك هذه القصة.... في عام ١٩٨٣ دعيت إلى حلقة دراسية في جامعة كولومبيا، وكان الموضوع عن سوريا. وقدمت ورقة خلاصتها أن الفكرة الشائعة هي أن هناك حلفا استراتيجيا بين أميركا وإسرائيل، يقابله حلف آخر بين سوريا والاتحاد السوفياتي. وما أراه أن الحلف الحقيقي قائم بين إسرائيل والنظام السوري، واستشهدت بغزو إسرائيل للبنان، والموقف من منظمة التحرير وكان النظام السوري أشد وطأة عليها من إسرائيل، والموقف من الحرب العراقية- الايرانية، وهو يؤدي في النهاية إلى نتيجة واحدة. وكان الحضور من المعنيين بالشرق الأوسط من صحافيين وأكاديميين ودبلوماسيين. وتوقعت أن يستغربوا التحليل وفوجئت بأن معظم الحضور أيدوا ما ذهبت إليه، وبعضهم أضاف إليه وعدله، باستثناء رجل واحد قام يدافع عن الأسد بشكل عقلاني، ويخاطب العقل الاميركي بصورة ذكية وقال إن المحاضر(يقصدني) ربما كان متأثرا بوضعه الشخصي وبظلم النظام السوري له، والذي حقق الاستقرار لمدة ١٥سنة (في ذلك التاريخ) ودخل لبنان لمنع الراديكالية من الانتصار. وقد دافع هذا الرجل دفاعا بليغا عن النظام السوري بأسلوب يفهمه المواطن الأميركي. ولكنني لاحظت أن في لهجته لكنة ألمانية ثقيلة. وعندما انتهى أردت أن أرد عليه وقلت له: معذرة، فإنني لم أتذكر اسمك. هل من الممكن أن تعيد التعريف بنفسك لي وللحاضرين؟ فقال أنا البروفسور ممثل الليكود في الولايات المتحدة قلت له: شكرا لقد برهنت على صدق نظريتي!

- لكن الأسلوب الذي يتبعه النظام السوري يجلب له الدعم العربي ومنها موقفه من كامب ديفيد...

* أريد أن أجيبك بحادث واقعي مع تجنب ذكر الأسماء لتلافي الإحراج. بعد أن أصبح مبارك رئيسا للجمهورية كنت في مصر مع بعض الإخوان من السياسيين السوريين. وكنا نتحدث مع مسؤول مصري كبير جدا. وأبدى تعاطفه مع شعب سوريا دون تحفظ وسألنا: ما هو المطلوب من مصر؟ وأجبنا: أن تتوقف المساعدات العربية للنظام السوري. واستمهل عدة أيام وسافر هو إلى إحدى الدول العربية، وبقيت في القاهرة انتظر الجواب. وعندما عاد قال لي: إن الأميركيين يصرون على أن تستمر المساعدات العربية لسوريا.

- المواطن السوري يتمتع بوعي سياسي وهو لا شك يدرك مغزى هذا الموقف الاميركي.

* لا أشك لحظة بأن المواطن السوري يتمتع بوعي سياسي ممتاز، وهذا ما يقودنا إلى تقرير الحقيقة التاريخية وهي أن تغيير النظام هو مسؤولية الشعب السوري، وهو سينهض بهذه المسؤولية، وأن "التحالف" لم يبدأ من أجل أن ينتهي بإعلان بيان، ولن نتوقف إلى أن يسقط هذا النظام. وإذا كانت نسبة التأييد الشعبي للتحالف هي الآن ٢٠% مثلا، فإنها ستصبح ٢٥٪ بعد سنة و٦٠٪ بعدها. إلى أن يأتي وقت يصبح فيه التغيير مسألة شهور أو أسابيع أو أيام وهذه للحظة آتية لا ريب فيها.

- المنتفعون بالنظام يتساءلون دائما: ولكن من هو البديل عن حافظ الأسد؟

* صلاح الدين البيطار طرح هذا السؤال عام ١٩٨٠ وأجاب عليه. السؤال يجب أن يطرح هكذا: ما هو البديل وليس من هو البديل؟ وبديل النظام الدكتاتوري الفردي الطائفي العسكري هو نظام ديمقراطي متعدد الأحزاب بغض النظر عن الأشخاص. وهذه هي قناعة غالبة الشعب السوري. ومع الجهد والتنظيم واستمرار المحاولات، سيصبح هذا الكلام هو العقيدة الفاعلة لدى الناس ولسنا بعيدين عن مثل هذا اليوم. يقول البعض: هناك أشخاص خسرناهم. وأنا أقول إنها ليست خسارة فالذي استسهل الإثراء وقبل الإذلال وباع شرفه، هو في حسابات الحركة الوطنية نوع من الربح لأنه انكشف فعلا الآن بدلا من أن ينكشف بعد عشر سنوات مثلا. ومن ماشى النظام من أجل مكاسب آنية لا يعتمد عليه، والأفضل أن نعرفه من اليوم بدلا من أن يمشي معنا ويغشنا، وننخدع به ونظنه مناضلا ثم نكتشف حقيقته فيما بعد. وعملية الفرز التي قام بها الرئيس الأسد هي من منظور تاريخي كسب للمعارضة وليست خسارة. وعلى كل حال فإن عدد هؤلاء قليل ولا يشكل أكثرية.

- السياسة السورية في لبنان جزء مكمل لملامح النظام. ويقول البعض إن مخطط حافظ الأسد هو إنشاء سوريا الكبرى. ويقال أيضا إن أميركا أعطت الضوء الأخضر له اعترافا بقوته الإقليمية.

* التدخل السوري في لبنان يحتاج إلى شرح طويل. وقد عشت معاناة شخصية منذ اللحظة الأولى لهذا التدخل، وعايشت بعض فصوله بشكل مباشر. الضوء الأخضر لم يأت من أميركا، بل من إسرائيل، وطلب التدخل جاء من أميركا عن طريق ريتشارد مورفي عندما كان سفيرا في دمشق. وكان الهدف القضاء على الثورة الديمقراطية العلمانية في لبنان التي كان يقودها كمال جنبلاط، لتخليص لبنان من النظام الطائفي. وتدخل الأسد لإفشال هذا المشروع. ومما شجع الأسد للاستجابة إلى رغبة أميركا هو أن السادات كان قد أنهى اتفاقية فك الاشتباك الثاني في عام ١٩٧٥. وبرز اسمه في المنطقة، بينما غاب الأسد قليلا من الواجهة بعد أن تجاهله السادات في الاتفاقية الثانية لفك الاشتباك. أراد الأسد أن يلعب دورا كبيرا، وأحست أميركا بذلك والوضع الدولي سنة ١٩٧٥ لم يكن يسمح لإسرائيل بأن تتدخل عسكريا ولا كذلك أميركا، وكان البديل السوري جاهزا. وعندما طلب منه ذلك فعل بشكل فردي ودون تحضير الحزب والشعب لهذه الخطوة، لهذا جاء التدخل مفاجأة للسوريين قبل غيرهم، وكنت أنا يومذاك في سوريا. صحيح أن لسوريا علاقات تاريخية بلبنان، ولكنها علاقات مع الحركة الوطنية وليس مع الانعزالية، ومع تحويل لبنان إلى الصف العربي، وليس عزل لبنان عن الصف العربي، ومع أنصار العروبة وليس مع أنصار إسرائيل. لقد تدخلت سوريا في الوقت الخطأ والمكان الخطأ للهدف الخطأ. والاعتراض الوحيد على هذا جاء من صلاح الدين البيطار الذي نشره في جريدة" لوموند" الفرنسية. وللأسف فإن الدول العربية أعطت الأسد غطاء بطلب أميركي، وهذه معلومات وليست استنتاجات. وما يقال عن سوريا الكبرى هو مجرد كلام للاستهلاك. وقد يكون في حسابات الأسد أن لبنان هو مكان مناسب للمعارضة السورية ولذلك أراد قطع الطريق عليها سلفا بسيطرته على لبنان.

- لماذا إذن تحصل المواجهات العسكرية بين سوريا واسرائيل بين حين وآخر؟

*يحصل هذا كلما تكون هناك مصلحة للطرفين أو لإسرائيل وحدها. مثلا، عندما تحصل الانتفاضة المشرفة في فلسطين، تبادر أميركا إلى إحياء مساعي التسوية السلمية. ويكون من مصلحة إسرائيل أن تفشل المبادرة الأميركية دون أن يتحمل المسؤولية شامير أو شارون، ولذلك ينبغي

أن يرفضها طرف عربي، وحافظ الأسد جاهز لهذا الرفض. المواجهة بين سوريا وإسرائيل مقفلة منذ عام ١٩٧3 ولم يقع فيها حادث واحد يعكر أمن الدولة اليهودية. ولم يقع حادث تسلل فدائي واحد. وعدد الفلسطينيين المعتقلين في سوريا أكبر من عدد المعتقلين منهم في اسرائيل.

- أليس في هذا الطرح أي نوع من المغالاة والمبالغة؟

* حافظ الأسد في السياسة والتاريخ مجالاته واسعة. انتقى في الداخل والخارج الرجال الذين تعلقوا عنده هوس التفرد في الحكم، ودفعوه في هذا الاتجاه فاندفع إلى أقصى حد. أما ما يقال في الصحافة الغربية عنه فهو من نوع التملق المدروس، كما ذكر مرة من أن كارتر جاء ليتعلم منه. ممثلو الدول الكبرى يتلاعبون كثيرا بمشاعر وعواطف وغرور الحكام في العالم الثالث. وعندما يعرف المرء حافظ الأسد عن قرب يلمس مستواه المتواضع. قلت له مرة عندما كان وزيرا للدفاع وكان يهيئ نفسه لتسلم الحكم: هناك كاتب إسرائيلي اسمه يوري أفنيري وضع كتابا عنوانه " إسرائيل بدون الصهيونية"، وسألته هل قرأ هذا الكتاب: فأجاب لا والله. وبعد فترة من الحديث قلت له إن البيطار ينشر مقالات في مجلة " الحوادث" خلاصتها أن القرار ٢٤٢ الذي وافقت عليه الدول الكبرى اتخذ من أجل أن ينفذ، ولا يجوز للعرب أن يزايدوا على الموقف من هذا القرار، فإما أن تقبله معا ضمن استراتيجية، أو ترفضه معاً ضمن استراتيجية. وسألته هل قرأ هذه المقالات فأجاب: لا والله. وسألته عن ثلاثة أو أربعة أمور أخرى وكان جوابه لا والله. فقلت له: يا أبو سليمان، إذا كنت لا تقرأ مثل هذه الأمور وأنت تستعد لتسلم الحكم، فماذا تقرأ إذن؟ أجابني: ليس لدي الوقت لقراءة مثل هذه الامور. قلت: كيف تمضي وقتك إذن؟ أجاب: إذا كان أي رقيب في الجيش يريد الانتقال من مكان إلى آخر فلا بد من أخذ رأيي فكيف يسمح لي الوقت بالقراءة قلت: هذا شغل رجل الأمن وليس عمل الحاكم. علق قائلا: والله هكذا هو الحكم في بلادنا.

- نستنتج من كل هذا الحوار، أن الظروف الموضوعية هي التي أتت بحافظ الأسد والظروف الموضوعية هي التي ستطيح به.

*عندما ظهر الخميني، وُجد بين المثقفين العرب من يقول إن عصر القومية العربية قد انتهى، وبدأ عصر النهضة الدينية، وكان بين هؤلاء عدد من منظري الماركسية. حزب " توده" الشيوعي الإيراني أيد الخميني، إلا أن الخميني زج بأعضائه وقياداته في السجون ولاحقهم واضطهدهم. هناك محاولات بدأت في أيام الأتراك ولم تنته حتى الآن لإقناع العرب بأن القومية العربية كما

يقول الخميني مساوية للصهيونية! هناك وعي استعماري لخطر القومية العربية والفكرة العربية، وأي شيء من شأنه تغييبها لا يترددون في عمله. وكثير من المثقفين العرب، بدلا من أن يهضموا الثقافة الغربية، فإن الثقافة الغربية هي التي هضمتهم، ولا يتركون فرصة إلا ويغتنمونها لتحطيم فكرة القومية العربية، وإخواننا الماركسيون هم على رأس هذا التيار ويحاولون الحط من شأن القومية العربية، حتى ولو كان البديل هو التيار الإسلامي أو الخميني. حافظ الأسد جاء إلى الحكم في تشرين الثاني ١٩٧٠وعبد الناصر مات في ٢٨ أيلول ١٩٦٩ عبد الناصر كان ممثل القومية العربية، وحافظ الأسد ممثل الردة على القومية العربية. وكان الخميني أكثر حذقا بالعودة إلى الأصول. أما الأسد، فعبر عن اتجاهه بسرقة الشعارات القومية. وهو يتكلم عن الوحدة العربية، لكنه يخرب أي مؤتمر قمة عربي. ويتحدث عن تحرير فلسطين، ولكنه يشق منظمة التحرير، ويزج بالفلسطينيين في السجون. ويتكلم عن حرمة التراب العربي لكنه يحتل لبنان ويفرزه إلى " دول طائفية"

نسيم السفرجلاني صديق العمر ورفيق المصير

نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ حمود الشوفي في بغداد في حفل تأبين المرحوم أبو مضر الأستاذ نسيم السفرجلاني في بغداد بتاريخ 19 حزيران 1994

نسيم السفرجلاني صديق العمر ورفيق المصير

ليست الحياة إلا لحظة متصلة، نعيها فنحبها على أنها فرصتنا الوحيدة لإثبات جدارتنا بها. ومهما تفاوتت الإمكانات، فإن لكل ذي عقل وخلق منا حظا لأن يقدم من نفسه شيئا، ليحقق بذلك ذاته، وليعطي لوجوده المعنى الذي يريده. وفي ساعات الشدة وقسوة المأساة، تتركز بصائرنا على ما وراء المحسوس، لكي نفهم الموت ونقبله على أنه نهاية منطقية حتما إذا كانت الحياة- بداية- عقلانية. وعندما يخطف الموت منا من نحب ونحترم، يكون للموت طعم حاد لاذع ينبه أحاسيسنا لما عملنا، ولما لا يزال واجبا أن نعمله. وقد كانت الفاجعة "بنسيم" بالنسبة لي ولكل من عرف " أبا مضر" من المناضلين العرب، الصدمة الصاعقة التي تعيدنا بعفوية أصيلة إلى تلك الأيام المتوثبة، الباسمة، الجياشة بالثقة والأمل، إلى خمسينات هذا القرن، عندما كنا واثقين، مثل ملايين العرب، أن وحدة أمتنا تدق باب المستقبل المنظور وأننا كأفراد سنعيش حياة كلها نشوة لأنها كلها عطاء واندماج بالأمة وإسهام في صنع مستقبل لها يضاهي بعظمته تاريخها المعطاء.

كان" نسيم" هو الوجه البعثي البارز في جامعة دمشق. وما أسرع ما كان التعارف بينه وبين أبناء جيله من البعثيين- وأنا منهم- أن يتحول إلى صداقة وطيدة، تمتد غالبا امتداد العمر كله. وأنا أعرف كم هي واسعة ومتينة دائرة الأصدقاء التي كان " نسيم" مركزها والتي لا تزال- رغم كل مرارة التجارب، وبؤس الوقائع، وندرة النجاحات- دليلاً مجسدا على أن الأمة العربية ولودة للخير وللحق وللخلق النبيل.
وهي قطعا- وبالمقابل- ليست عقيما ولا عاقرا كما يحاول الغرب وإسرائيل أن يبرهنوا بقهرنا وبتجزئتنا، وإيقاع كل هذا الظلم والإجحاف بالعرب والمسلمين.

وأنا لا أستطيع كما لا يستطيع غيري أن يذكر" أبا مضر" أو يتذكره دون أن تقفز إلى وعينا- عفويا ودون مقدمات- كل المعاني والقيم والأخلاق التي تصنع العروبة. ذلك لأن " أبا مضر" قد جسد هذه المعاني بسلوكه، وأسلوب حياته وعلاقاته بكل الناس الأقربين منهم والأبعدين. مع أن " نسيم" لم يكن وحده الذي تشابكت حياته الخاصة بتطلعات الأمة العربية للوحدة والحرية والاشتراكية، أو الذي أثرت منعطفات النضال القومي، السلبية منها والإيجابية، على مجرى حياته وحياة أسرته ومستقبل أبنائه، إلا أنه كان من أشد المناضلين التصاقا بقضايا الأمة، ومن أكثرهم تأثرا مباشرا بها.

لقد كان تحقيق الوحدة بين سورية ومصر سنة ١٩٥٨ بالنسبة لجيلنا حدا فاصلا في التاريخ العربي. كان نهاية واضحة لمرحلة وبداية ساطعة لشمس الوحدة التي ستغمر كل بقاع الوطن وزواياه. وربما كان " نسيم" أكثر من عرفتهم ارتباطا بالوحدة واندماجا كاملا بها، وقد كان موقف الآخرين من الوحدة بالنسبة لنسيم هو المقياس الذي لا يخطئ لتمييز الصدق من الكذب، والوطنية من نقيضها، وبكلمة واحدة لتمييز الخير من الشر. وعندما نضيف إلى هذا الحس الوحدوي الطاغي الخلق المتين الواضح، والصدق الكامل مع النفس ومع الآخرين، والعقلانية الرزينة الواعية، فإننا نحدد شخصية " نسيم" بمقوماتها التي تفسر تفرده واحترام المناضلين له على مدى العمر كله.

محطة استراحة قلقة

استقر بجيلنا المقام بعد الوحدة. وبدأ " نسيم" يبني أسرته الخاصة فتدرب على المحاماة ومارسها في دمشق والقاهرة. وكنا لا نزال في قمة النشوة الوحدوية عندما بدأت المخاوف تتسرب إلينا وإلى أبناء الأمة العربية كلها من أن أشياء تحدث ولا تتفق مع انتظار تحقيق الوحدة الكبرى. وبعض هذه الأشياء يقع في دولة الوحدة فيخفف من اندفاع الناس لها، وبعضها يحدث خارج دولة الوحدة فيدلل على ضخامة العداء العالمي الذي ينتظر الوحدة. ولعل انحراف ثورة ١٨ تموز ١٩٥٨ كان أول إنذار صاعق للوحدويين أن يحذروا. ولكن الحذر لم يستطع أن يمنع نجاح المؤامرة، واستغلت أخطاء الوحدة لارتكاب جريمة الانفصال. وشعر " نسيم" كما شعر كل أبناء ذلك الجيل أن الانفصال ليس عودة إلى نقطة الصفر كما يقال، وإنما هو انحدار بالأمة ومصيرها إلى هوة سحيقة في الأخطاء المرئية أو المدركة. وكان على أبناء جيلنا مواجهة مسؤولياتهم الجسام. وضمن هذا الجو الثقيل والمليء بالخوف على الحاضر والمستقبل، بادر نسيم وخالد الحكيم وأنا مع مجموعة من المناضلين بقيادة الشهيد العربي الكبير صلاح الدين البيطار إلى إقامة تنظيم بعثي في سوريا قبيل انهيار الوحدة. وكان من الطبيعي جدا أن نجد أنفسنا منتظمين في حزب البعث العربي الاشتراكي من جديد بعد إعادته لتنظيمه في القطر السوري سنة ١٩٦٢.

٨آذار ١٩٦٣

مع أن المجموعة العسكرية التي قامت بانقلاب ٨آذار 1963، لم تكن منتظمة في حزب البعث ولا في غيره من التنظيمات السياسية الوحدوية، فإن إعلانها عن توجهاته الوحدوية والخلفية البعثية لقسم هام منها، ووجود بعض الأفراد في قيادتها من لا يرقى الشك إلى وطينتهم وإخلاصهم القومي وماضيهم النضالي، خاصة وقد دعي ليكون على رأسهم الفريق محمد أمين الحافظ، كل هذه العوامل قد أقنعت قيادة حزب البعث آنذاك بتحمل المسؤولية السياسية لحركة ٨آذار. وبلغ التفاؤل بالقيادة وبنا وبالكثيرين من المناضلين البعثيين، لأن نأمل ونعمل على تحويل انقلاب ٨آذار إلى ثورة قومية واجتماعية في آن معا. وإن انخرط " نسيم" بكل ما عُرف عنه من نشاط وحزم وبصيرة مدركة في عملية التحويل المنشودة، وممارسته لمسؤوليات إدارية كمحافظ للاذقية، ثم كأمين عام لرئاسة الجمهورية، أعطى خلال هذه الفترة القصيرة الصورة المجسدة للبعثي كما كان ينظر إليها أثناء ولادة البعث وحتى عنفوان شبابه. وهي صورة الشباب الذين يفهمون السياسة على أنها حصرا ممارسات أخلاقية وأن الخلاف بالرأي بينهم مقبول ومشروع ومطلوب، ولكن أي حيدان عن الأخلاق كما يفهمها مجتمعنا العربي والإسلامي يكفي لإخراج الفرد من البعث.

المعارضة المستمرة للانحراف المستمر

وكما هو معروف فلم تظل مشاركة البعث بحكم سورية. وأتى انقلاب ٢٣شباط ١٩٦٦ ليدمر الأمل، أمل البعث في الثورة، وأمل سورية بعودتها للوحدة، وأمل الأمة العربية بالوحدة الكبرى التي لا تقوم بغياب سورية. وكان واضحا " لنسيم" ولكل المناضلين البعثيين، ولكل الواعين من أبناء الأمة العربية، أن الانقلاب الشباطي لم يكن موجها ضد الوحدة أو البعث فحسب، ولكنه كان الصورة الجديدة للانفصال وقد التفح بعباءة ماركسية. وكما بقيت سورية حتى هذه اللحظة غائبة عن دورها القومي العربي نتيجة لذلك الانقلاب المشؤوم في ٢٣شباط ١٩٦٦ فقد ظل " نسيم" كذلك ملاحقا ومشردا بسبب نفس ذلك الانقلاب حتى وافاه الأجل قبل عام من يومنا هذا.

فلقد حاول حزب البعث أن يستعيد السلطة من الانقلابيين وأن يطهر صفوفه من الانتهازيين الذين طغوا على تنظيماته بين ١٩٦٣ـ١٩٦٦ وأوكل " لنسيم" دور قيادي أساسي في عملية إعادة التنظيم لاستعادة السلطة. وقام " نسيم" بهذا العبء الكبير خير قيام، وكاد النجاح أن يحالف البعث لولا أن جريمة خطيرة قد وقعت، فكشفت التنظيم لسلطات ٢٣شباط. مع أن مرتكب هذه الجريمة قد إدعى

حسن النية فيما بعد، إلا أن المستقبل قد يكشف كل خفاياها وعلاقاتها مع كل ما أعقبها من رسوخ نظام ٢٣شباط في سورية وتهيئة الأجواء لقيام النظام الأسدي واستمراره حتى الآن مع كل ما ترتب على ذلك من المآسي القومية التي تكاد تلغى العروبة والإسلام لتمكن للغرب وإسرائيل في أرضنا وكرامتنا وأمننا وكل مستقبلنا.

أما بالنسبة لنسيم فقد لوحق في سوريا، فلجأ إلى لبنان وظل فيه حتى اقتربت طلائع القوات السورية من بيروت، فغادر إلى مصر ثم استقر به المقام في بغداد، وبقي فيها إلى أن هاجمه السرطان فخرج من العراق للتداوي، وعاد جثمانه الطاهر إليه ليكون في بغداد مثواه الأخير. ولم ينقطع " نسيم" أثناء اغترابه الاضطراري الطويل عن سورية، أو يتوقف يوما عن البذل والعطاء ليعود يوما إلى دمشق التي أنشأته على تقاليدها النضالية العربية فكان- والحق يقال- من خير الأبناء لخير المدن بانية للحضارات. وكان دائما الرجل المتزن الخلوق الذي لا يعرف التبجح والمباهاة، والذي يؤدي واجباته النضالية بعفوية وبساطة، لأنه لا يقبل للحياة محتوى يبتعد به قيد شعرة عن قدر الأمة ومصيرها، ولا يرضى لنفسه أن يكون إلا حيث يقتضي الواجب القومي والنضالي منه أن يكون.

هل لنا – نحن أصدقاء " نسيم"- من عزاء؟

وإنني- ككل أصدقاء " نسيم" ومحبيه- إذ أشعر بفداحة الخطب وعظم الخسارة الوطنية، وإذ نتقبل إرادة الله التي لا راد لها، فإن عزاءنا الحقيقي أن نوطد النفس على متابعة النضال لتحرير سورية، واستعادة دورها القومي. وإنني لعلى ثقة تامة أن شباب أمتنا اليوم وغدا، سيتابعون الطريق الذي لا بديل له، طريق الشرف والمروءة والأخلاق القويمة، لكي نصل أمتنا إلى وحدتها وحريتها واشتراكيتها. وبذلك فقط نعطي لحياتنا كأفراد قيمتها الإنسانية، ونتغلب كأمة على الموت الذي هو مصيرنا كأفراد. رحم الله " أبا مضر"، وأسكنه فسيح جناته، لقد عاش حياة حافلة منتجة، أعطى فيها كل ما استطاع فأصبح النموذج والمثال الذي يصبو لبلوغه كل مناضل حقيقي.. اعتداد دون غرور، ودماثة دون تزييف، واستقامة دون تعصب، وخلق قويم لا عوج فيه، وكأن المتنبي قد عناه إذ يقول:

فيه السماحة والفصاحة والتقى والبأس أجمع والحجا والخير

سورية واحتمالات التغيير

نص المقالة التي كتبها الأستاذ حمود الشوفي، ونشرتها صحيفة القدس العربي الصادرة في لندن بتاريخ 25/2/ 2006

سورية واحتمالات التغيير

تجتاح سورية اليوم إلى صحوة. فالنظام الذي ظل متماسكا لأربعة عقود طويلة، يبدو وكأنه قد فقد اتجاهه، وأخذ يتخبط في سيره، ويقدم على خطوات لا يمكن تفسيرها إلا بعدم الأهلية. وتكشف عمق المأزق الذي وضع النظام نفسه فيه من موقفه العلني المستهتر بمسلسل الاغتيالات التي يُتهم النظام بارتكابها إلى تردده إزاء قرارات مجلس الأمن المتعلقة بلبنان إلى هذا التخبط غير المعقول سواء في معالجة الوضع الاقتصادي المتأزم، ومشكلة الفساد السرطاني المزمن في الإدارة وأجهزة الأمن، أو في سياسته العربية المتذبذبة ومواقفه الدولية الخائفة.

ويبدو ـ في المقابل ـ أن القوى السياسية السورية ـ بدأت تلمح بريق أمل في إمكانية التغيير، ولكن أكثريتها حتى الآن حائرة بين أن تتغلب على شكوكها تجاه أمريكا وتصديق ما تدعيه من رغبتها في تغيير النظام لإقامة نظام ديمقراطي بديل، وبين أن تبحث عن طريق وطني خاص بسورية يبتعد ما أمكن عن التهويش السياسي ليقترب ما أمكن من إيجاد الصيغة العملية البديلة لهذا النظام باعتبار أن التغيير قد أصبح أمرا محتملا. وإن المأزق الحالي الذي يجد النظام نفسه فيه لا يمثل الا جزءا من المشكلة العويصة التي تواجهها سورية كمجتمع مدني، وكيان سياسي وجزء حي من الأمة العربية. ولا بد لأي تحليل يستهدف إخراج سورية من محنتها أن يبدأ بتفهم المشكلة السورية التي يصمم النظام منذ بداية هذا القرن على تجاهلها عمدا مما أوقعه في مأزقه العويص الراهن وجعل التغيير، تبعا لذلك، أمرا ليس له بديل.

إن الطائفية السياسية هي أصل المشكلة السورية، وإن أي حل حقيقي ليس إمامه إلا ان يبدأ من الاعتراف بهذا الواقع، لا من أجل القبول به، ولكن من أجل تغييره بشكل يحفظ وحدة الوطن والشعب، ويجنبنا إراقة دماء غزيرة كما حدث في ثمانينات القرن الماضي، وكما يمكن أن يحدث إذا انقلبت الصحوة الحائرة الراهنة إلى صحوة يائسة لا تستطيع في الأجواء الدولية الحالية إلا أن تنقلب إلى انفجار شعبي شامل. ونعني بالطائفية السياسية أن بعض السياسيين، مدنيين وعسكريين، قد استغلوا الطائفية المذهبية لأغراض انتهازية فخلقوا لنظامهم عصبية طائفية هددت ولا تزال تهدد وحدة الشعب كله، وأدت إلى ضرب المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لسورية، وإلى شل دورها القومي الطليعي الذي ما تزال سورية قادرة عليه إذا تمكنت من أن تتجاوز هذه

الأزمة بوعي ناضج، وبعقلانية منفتحة قد تؤدي إلى نوع من العقد الاجتماعي الجديد الذي دعت، ولا تزال تدعو اليه معظم القوى الحية لشعبنا والتي حاول النظام منذ أن تسلم الدكتور بشار الأسد رئاسة الجمهورية أن يبشر به بين حين وآخر، إنه كذلك يدرك استحالة الإبقاء على الوضع الراهن المتأزم، وإنه يريد التهيئة للوصول إلى نفس هذا العقد الاجتماعي الذي دعت له معظم فصائل المعارضة السورية في الداخل والخارج. وقد تتابعت وعود السلطة بالتقليل من سيطرتها المطلقة ومن احتكارها لحق العمل السياسي، والغاء حقوق المواطنين جملة وتفصيلا على مدى أربعين عاما. وقد أيدت التصريحات الشجاعة للأستاذ عبد الحليم خدام النائب السابق لرئيس الجمهورية وجود مثل هذه التطلعات الإصلاحية عند النظام، عندما روى كيف أنه قدم للرئيس بشار الأسد، بناء على طلبه، مذكرة للإصلاح السياسي تم تناسيها ثم ماتت، وعاد فقدم له مذكرة ثانية لإصلاح اقتصادي تعرضت لنفس المصير، ومذكرة ثالثة لإصلاح إداري لم يكن حظها بأحسن من حظ أختيها السابقتين، ولا يستطيع الإنسان، إزاء ذلك إلا أن يستنتج بأن النظام لم يكن جادا في أية عملية إصلاحية، سياسية كانت أو اقتصادية أو حتى إدارية.

إننا نعلم تماما، كما يعلم كل مواطن وكل متتبع لأوضاع سورية، أن النظام إنما يستند وجوده كله إلى قوته الطائفية في الجيش، وأن الادعاء بالانتماء البعثي أو القومي أو التقدمي ليس سوي ادعاءات، لان النظام في أساسه نظام عائلي ديكتاتوري متفرد، يستغل انتهازيا أبناء الطائفة العلوية ليحتمي بها، ويسمح لبعض البارزين المتنفذين فيها، أن يعيثوا في الأرض فسادا، وأن يجمعوا الثروات والمنافع التي تجرها لهم سلطة غير مقيدة، وبدون رقابة أو حساب أو مسؤولية. وعندما اختارت أجهزة النظام الدكتور بشار الأسد ليخلف أباه، فإن غالبية القوى السياسية الحية في المجتمع، من داخل النظام ومن خارجه، أي أن غالبية فصائل المعارضة العلنية والمعارضة الخفية، قبلت صعود الابن مكان أبيه، لان الأمل كان يحدوها بأن يتمكن الدكتور الشاب، والجيل الذي ينتمي إليه من أصحاب النظام، من تطوير نظامهم باتجاه انفتاح حقيقي على الشعب، ذلك لأن بشار الأسد وأمثاله قد حصلوا ثقافة حديثة معقولة، وعرفوا كيف يعيش العالم وتعيش الشعوب خارج الحدود، وتنتفي في حياتهم الشخصية أية شبهة بأنهم سبق أن تعرضوا لأي تمييز أو اضطهاد أو استعلاء، هذا إن لم نقل إن العكس هو الصحيح.

وتمر أيام الانتظار على شعبنا طويلة، ثقيلة وقاسية. والنظام جامد في مكانه. وبدلا من اعتبار مأزقه الدولي في لبنان فرصة له ليعيد النظر في جموده، ويبدأ سعيا حثيثا يقربه من الشعب حتى يبرر لشعبنا وللعالم بأن مأزقه الخانق يهم سورية كلها بدلا من ذلك فإن النظام، وبإعلانه عن أسماء وزرائه الجدد، وعن التغييرات الشكلية في واجهته السياسية فانه إنما يعلن في واقع الأمر، إصراره على نهجه العائلي الدكتاتوري المتفرد، واضعا من جديد أبناء الطائفة العلوية وكافة أبناء شعبنا أمام تحد جديد وكبير، ألا وهو كيف الخروج بسورية من أزمتها الراهنة بأقل ما يمكن من الخسائر، وأكثر ما يمكن من ضمانات النجاح. وحتى نتوصل إلى نتيجة منطقية معقولة، لا بد أن نتذكر الحقائق التالية، بوصفها حقائق واقعية لا يستطيع أي تفكير جاد أن يقفز فوقها أو يتجاهلها.

الحقيقة الاولى: إن النظام السوري قد وضع نفسه في مأزقه الراهن نتيجة لنوع من العجز والقصور ومحدودية الإدراك يصعب على الإنسان تصديقه. فما هو الداعي إلى سياسة الاغتيالات البشعة هذه؟ وإذا كان المسؤولون عنها عناصر من النظام، وليس النظام كله، فلماذا هذا التردد في الكشف عنهم؟ وعدم الترحيب بالتحقيق الدولي لمعاقبة المتورطين والمنفذين لجريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري وكل القادة الذين تم اغتيالهم من معارضي السياسة السورية في لبنان وآخرهم الشهيد جبران تويني؟ وإذا كان النظام أو بعض مفكريه يتطلعون إلى الاغتيالات التي تمارسها علنا السلطات الإسرائيلية كهادٍ ومعلم لهم، فإنهم يقعون في وهم قاتل، وهم الظن بأنهم يستطيعون خرق القانون الدولي، وارتكاب أبشع الجرائم دون حساب كما تستطيع إسرائيل. لأن الفارق واضح جدا بينهم وبينها. فإسرائيل تتحكم بالسياسة الأمريكية في الشرق الاوسط. أما هم فإنهم جزء ممن تتحكم بهم هذه السياسة الامريكية ـ الإسرائيلية. وإذا تمكن النظام السوري بالخروج من مأزقه الحالي بشكل ما (مثلا يجعل الخدمات التي يقدمها للاحتلال الامريكي في العراق علنية وأكثر فعالية، أو بتنازله عن الجولان المحتل رسميا لإسرائيل، أو بما يشبه ذلك) فإن هذا الخروج من المأزق لا يقدم ولا يؤخر شيئا في توصيف الأزمة السورية، ولا يريح أي وطني من عبء البحث عن إيجاد مخرج حقيقي لها.

الحقيقة الثانية: إن أمريكا لن تغزو سورية عسكريا، كما غزت العراق، وأسباب ذلك واضحة جدا، فأمريكا قد غزت العراق لان نظام البعث فيه بقيادة الرئيس صدام حسين كان قد هيأ كادرا متقدما من علماء عراقيين وعرب، وطور الجامعات ومراكز الأبحاث لتزداد كفاءة هذا الكادر العلمي وتتوسع قاعدته، وكان قد وضع هدفا واضحا له هو استقلال القوة العسكرية العربية بجعلها نتيجة جهد وطني محض. وكان العراق في الوقت ذاته، وبالاستفادة من خبراته العلمية المتنامية يقوم بعملية تحديث شاملة لبناه الاقتصادية التحتية وتطوير كل مصادره الهائلة، الصناعية والبترولية والزراعية مما جعل من العراق تهديدا مستقبليا محتملا لإسرائيل. وأدى ذلك الي تكاتف قدرات حزب الليكود الثقافية والاستخبارية مع القدرات السياسية للإنجيليين المسيحيين المتطرفين فتمكن حلفهما من الاستفادة السريعة من حدث 11 ايلول (سبتمبر) سنة 2001 ودفعا بأمريكا إلى غزو العراق واحتلاله، ومع اقتراب السنة الثالثة للاحتلال على نهايتها يلمس كل متتبع للسياسة الامريكية وعيا شعبيا بهذه الورطة، وتصميما على عدم تكرارها وحتى لو أتى بعد بوش رئيس جمهوري، فان تغيير السياسة الحالية سيكون أمرا مؤكدا. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن الحكومة الأمريكية ستوقف حملاتها الإعلامية ضد النظام السوري أو أنها ستبدي انزعاجها إذا تغير بطريقة ما. ولكنه يعني بالتأكيد أن أمريكا لن تقوم بدور إيجابي حقيقي لإسقاط النظام.

الحقيقة الثالثة: إن سورية محظوظة بأن أمريكا لا تستطيع القيام بمغامرة عسكرية جديدة لا ضد سورية ولا غيرها، وقد يكون ما يجري في العراق درس مفيد لسورية وذلك بأن تتجنب وبأي شكل كان تكرار المأساة الدامية التي تسبب بها الاحتلال الأمريكي للعراق. فبالرغم من كل النشاط الإعلامي، وبالرغم من كل الادعاءات التي تبرر غزو العراق بالرغبة في تحويله الي واحة ديمقراطية في منطقتنا، فان ما يجري واقعيا على أرض الرافدين هو التحضير الواعي لنكبة قد تصبح ـ إذا نجحت فيها أمريكا ـ من أقسى ما عرفناه في تاريخنا الطويل، وذلك بإشعالها حربا أهلية على اساس طائفي صريح. فالجيش العراقي الذي تدربه وتموله وتبنيه أمريكا هو جيش يقتصر الانتساب إليه بشكل عام على الشيعة فقط، كما أن قوات الشرطة، وقوات الأمن الداخلية التي تمولها وتدربها أمريكا تقتصر كذلك على منتسبين من الشيعة، وبينما كان الشعب العراقي بكل اتجاهاته السياسية المختلفة يعرف هذه الحقيقة طوال الوقت، ومنذ أن حلت أمريكا الجيش العراقي وأخذت ببناء جيشها الجديد هناك فإن العالم الخارجي لم يطلع على هذه الحقيقة إلا مؤخرا

بعد أن اضطرت أمريكا وتبعتها الحكومة العراقية للإعلان عن وجود جهاز خاص ضمن الشرطة العراقية، وضمن أجهزة الأمن العراقية، له مهمة واحدة فقط وهي تقتيل العرب السنة لإشعال فتيل الحرب الطائفية.

الحقيقة الرابعة: إن التجارب والمنطق السليم، والوضع العربي المهترئ تقطع كلها بأنه لن تتحرك قوة عربية أو دولية لنجدة شعب سورية، وعندما نأخذ بالاعتبار الحقيقة الثانية المتقدمة، فإن التدخل الدولي يغدو مستحيلا، ويحسن بنا في هذا الصدد أن نتذكر أحداث لبنان وكيف ومتى طلبت أمريكا من سورية أن تتدخل سنة 1976 بعد ان كانت المأساة قد أصابت كل أسرة تقريبا في لبنان. ونسأل الذين يأملون أن يأتي حل الأزمة السورية من واشنطن، أو حتي من نيويورك هل إنهم يودون أن تجري أولا أنهار الدماء السورية لكي يتحرك ضمير الإنسان فيدفع الأمم المتحدة للتدخل؟ وهل إن القوى السياسية الحية في سورية مضطرة للتخلي عن مسؤولياتها الوطنية على أمل أن ينهض غيرها بها؟

الحقيقة الخامسة والأخيرة هي أن النظام العائلي المتفرد لم يعد قادرا على البقاء في تركيبته الراهنة، ولسنا بحاجة لأن نكرر هنا ما يعرفه كل المواطنين والمراقبين من تردي الأوضاع الداخلية، وخسارة النظام لاحترام الناس وعجزه عن تخويفهم باللجوء إلى المزيد من القمع والبطش والإرهاب كما حدث بين 1966 وإلى 2000 لأن الأوضاع الدولية قد تغيرت. ولأنه لم يعد هناك من هو مستعد للتغطية علي النظام الأسدي، ولان شبكة الاتصالات العالمية الانترنت تجعل ارتكاب المجازر والتغطية عليها في الوقت ذاته أمرا مستحيلا أو يكاد. ولأن هذا النظام فوق كل ذلك يكشف عن عجز واضح في إدارته للمأزق الذي يحاصره بخروجه من لبنان فيتصرف وكأنه يخطط ليعيد التاريخ إلى الوراء، ويعود جيشه إلى لبنان.

والنتيجة الحاسمة التي نتوصل إليها هي أن النظام الطائفي القائم في سورية لا بد له أن يتغير وليس مهما من وجهة نظر وطنية، أن يبقى أو لا يبقى بشار الأسد فهذه قضية ثانوية ووقتية قد يعالجها أو لا يعالجها مجلس الأمن الدولي عندما تنتهي لجنة التحقيق باغتيال الرئيس الحريري من أعمالها. وليس مهما أبدا لسورية ومستقبلها وتجنيبها كارثة محتملة مصير شخص أو مجموعة من الأشخاص. وأعتقد أن الأكثرية الكبيرة من شعبنا العظيم لا تحمل لبشار الأسد شخصيا حقدا

أو ضغينة. والسؤال الكبير المطروح على كل العاملين في الحقل العام وعلى كل الوطنيين والغيارى على الأرض والعرض، على الحاضر والمستقبل، السؤال هو كيف يمكن أن يتم التغيير بأقل ما يمكن من الخسائر وأكثر ما يمكن من إمكانات النجاح؟

ويبدو أن التغيير يمكن أن يتم بإحدى طريقتين لا أرى ثالثة لهما: الطريقة الاولى هي أن يتآكل شيئا فشيئا الأمل الشعبي الذي انتعش مع اهتمام مجلس الأمن الدولي بلبنان وإخراج القوات السورية منه وما رافق ذلك من تصاعد مفاجئ وعارم لمد شعبي هائل في لبنان. وعندما يتحول الأمل في القلوب إلى يأس وقنوط فلن يكون مستغربا أو غريبا أن ينفجر الاحتقان دفعة واحدة مثلما حدث في رومانيا مثلا، أو أن يتدخل مجلس الامن من جديد مثلما حدث في لبنان.. إن تغييرا كهذا قد يكون باهظ التكاليف، ويصعب أن يقتصر على تغيير بعض الأسماء وإنما قد يصيب وحدة شعبنا ذاتها في الصميم بكل ما يمثله ذلك من أخطار تطال سورية كما تطال العرب والإسلام معا.

والطريقة الثانية لتغيير محتمل هي الطريقة العقلانية التي ندعو اليها، والتي تبدأ بحوار حقيقي بين أصحاب النظام وبين كل القوى السياسية الموجودة والمعروفة بما فيها حزب البعث الحاكم نظريا والإخوان المسلمين، ويهدف الحوار إلى إيجاد صيغ عملية للانتهاء من التفرد واحتكار العمل السياسي والاتفاق على إقامة وضع سياسي منفتح للجميع دون استثناء. ولا يثير مخاوف أحد من أن يصبح كبش الفداء لعملية التغيير المطلوبة. وأرى أنه بين كل القضايا المعروفة والتي أشبعت درسا وتحليلا من مختلف الجهات والتي لا تشكل في الحقيقة عقبات جدية تبرز قضيتان محددتان لا بد من الحوار الجاد والمسؤول والعلني حولهما باعتبارهما المدخل المقبول ليكون الحوار جادا وليصل إلى وضع جديد بالفعل. والقضيتان هما: **الجيش والديمقراطية**. فالجيش الذي يشكل الدعم الحقيقي للنظام الطائفي القائم لا بد من إعادته إلى وضعه الطبيعي ليصبح جيشا وطنيا مهمته الوحيدة هي الدفاع عن الوطن. ولكن عندما نأخذ بالاعتبار حرص كل القوى السياسية على وحدة البلاد ووحدة الشعب فإنه يمكن أن تأخذ عودة الجيش إلى وضعه الطبيعي فترة زمنية معقولة تتجنب الهزات ما أمكن. وذلك بأن يتوازن التقدم بهذه العملية مع بناء نظام ديمقراطي دستوري سيشكل الضمان الحقيقي لحفظ وحدة الشعب ولقبول الجميع بالجميع.

أما قضية الديمقراطية فإنها كذلك يجب أن تعالج من منظور حرصنا على وحدة الشعب وعلى ممارسة الحرية بمسؤولية دون خوف أو تخويف، ولعل المطلوب منا أن نبتعد ما أمكن عن الصيغ الشكلية التي سبق أن جربت فيما مضى، ولأنها كانت مجرد تقليد لنظم أجنبية فلم تستطع أن تترسخ وتضرب بجذورها في حياتنا الاجتماعية وأن تحمي نفسها بالتالي من أخطار الانقلابات التي عانينا منها ولا نزال. وأعتقد ان أوضاعنا الاجتماعية والثقافية تملي علينا أن نقترب من مبدأ الشورى وأن نبتعد عن التمسك الحرفي بمبدأ حكم الأغلبية العددية. ذلك لأن الشورى تعني أنه بعد التشاور يتم التوصل إلى اتفاق يحظى بما يقترب من الإجماع، ويصعب أن يأتي اتفاق قائم على الشورى ممثلا لرأي جهة واحدة، بل سيكون على الأغلب ممثلا وسطا معقولا لكل الجهات. وليس عسيرا على الاخصائيين في القانون والدستور وفي فقه القوانين، التوصل إلى صيغة أو صيغ تلبي حاجتنا للأخذ بمبدأ الشورى بدلا من مبدأ حكم الأغلبية العددية، وقد يكون ذلك بأحداث مجلسين تشريعيين مثلا كما هو الحال في بلاد كثيرة، وقد يكون بخلق هيئة عليا تمثل كل القوى السياسية والعسكرية والمهنية فيها تتم الشورى المؤدية إلى اتفاق.

ودون الدخول في مزيد من التفاصيل فإن الأمر الحاسم باعتقادي هو الاستجابة الصادقة المخلصة من كل العاملين في الحقل العام لهذا الامل الذي يلوح في الأفق والعمل الجاد السريع لحماية الأمل من التلاشي، والتوصل ببلدنا الحبيب إلى الانتقال من هذا النظام العائلي الطائفي المتفرد إلى نظام يعيد للمواطن الفرد كرامته وحقوقه، ويعيد لشعبنا حرياته الطبيعية، ويعيد سورية إلى مكانها الطبيعي والطليعي على الصعيد القومي وعلى كل صعيد إنساني آخر*

**كما وردت في صحيفة القدس العربي الصادرة في لندن*

حفلات التأبين

أقيم للمرحوم الأستاذ حمود الشوفي حفلتي تأبين. كانت الأولى بتاريخ 17 نيسان 2011 في مدينة أوغستا من ولاية جورجيا في الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان يعيش آخر حياته مع زوجته وأولاده وأحفاده. وأقيمت الثانية في مسقط رأسه في مدينة صلخد من محافظة السويداء في سورية.

حفلة أوغستا

كانت حفلة هادئة ومنظمة. شارك فيها جميع أفراد العائلة الممتدة المتواجدين في الولايات المتحدة، وجمع كبير من الأصدقاء والمعارف، وشخصيات مرموقة في المدينة. تحدث في البداية ابنه المهندس العربي الشوفي مُفتتحاً حفل التأبين، ومرحبا بالحضور وشاكراً لهم حضورهم ومشاركتهم. ومن ثم تلاه ابنتيه الدكتورة ليلى الشوفي والدكتورة ميسون الشوفي، اللتان تحدثتا عن حياة ومناقب والديهما. كما وألقت أصغر أحفاده، لينا العيسمي، كلمة مؤثرة. عبرت فيها عن حبها لجدها وتعلقه فيها وبأحفاده الباقين، ديمة الشوفي، لميس العيسمي، وخالد الشوفي. كما وتحدث باللغة العربية صديقه ورفيق دربه السيد أبو عبدالله خالد الحكيم، عضو قيادة قومية سابق. سرد مناقبه، وتحدث عن إنجازاته المتميزة على مدى أكثر من خمسين عام على الصعيد الشخصي والحزبي والسياسي، والديبلوماسي. وأيضا تحدث باللغة الإنكليزية صديق العائلة الدكتور بشير تشودري، طبيب من أصل باكستاني. تلاه الدكتور هيو ليبرت، أستاذ جامعي. وأخيرا تحدث الدكتور رياض العيسمي، أستاذ جامعي، باللغتين الإنكليزية والعربية. شكر الجمع واختتم الحفل. وكانت جميع الكلمات قد أشادت بتجربة الأستاذ حمود الشوفي النضالية والشخصية والثقافية. كما ووصلت برقيات ورسائل واتصالات هاتفية للتعازي من العديد من رفاقه وأصدقائه ومحبيه، ممن لم يتمكن من الحضور واستطاع سبيلا للاتصال. وكان في مقدمة المُتصلين الأستاذ شبلي العيسمي الأمين العام المساعد ونائب رئيس الجمهورية العربية السورية السابق، الذي تعذر عليه الحضور بسبب استعداداته للسفر إلى لبنان. حيث أُختطف من هناك إلى سورية بعد عدة أيام من وصوله، وما زال مصيره مجهولا حتى اللحظة. ومن ضمن ما جاء في تعزية الأستاذ شبلي العيسمي:

لقد افتقدنا في حمود أخا عزيزا ومناضلا شجاعا، ووطنيا مخلصا.

صورة جامعة تضم أبو العربي حمود الشوفي وزوجته أم العربي وداد عزام في الوسط. ومن الأعلى على اليمين ابنتهما الصغرى الدكتورة ميسون الشوفي، ابنتهما الكبرى الدكتورة ليلى الشوفي وزوجها الدكتور رياض العيسمي. ومن اليسار ابنهما المهندس العربي الشوفي وزوجته المهندسة غادة السعدي. ومن الأسفل على اليمين أحفادهما ديمة الشوفي، لميس العيسمي. ومن اليسار لينا العيسمي وخالد الشوفي.

النبذة التي نشرت عن حياة المرحوم الأستاذ حمود الشوفي في الصحيفة المحلية في مدينة أوغستا في ولاية جورجيا الأمريكية حيث كان يعيش قبل وفاته مع أولاده وأحفاده

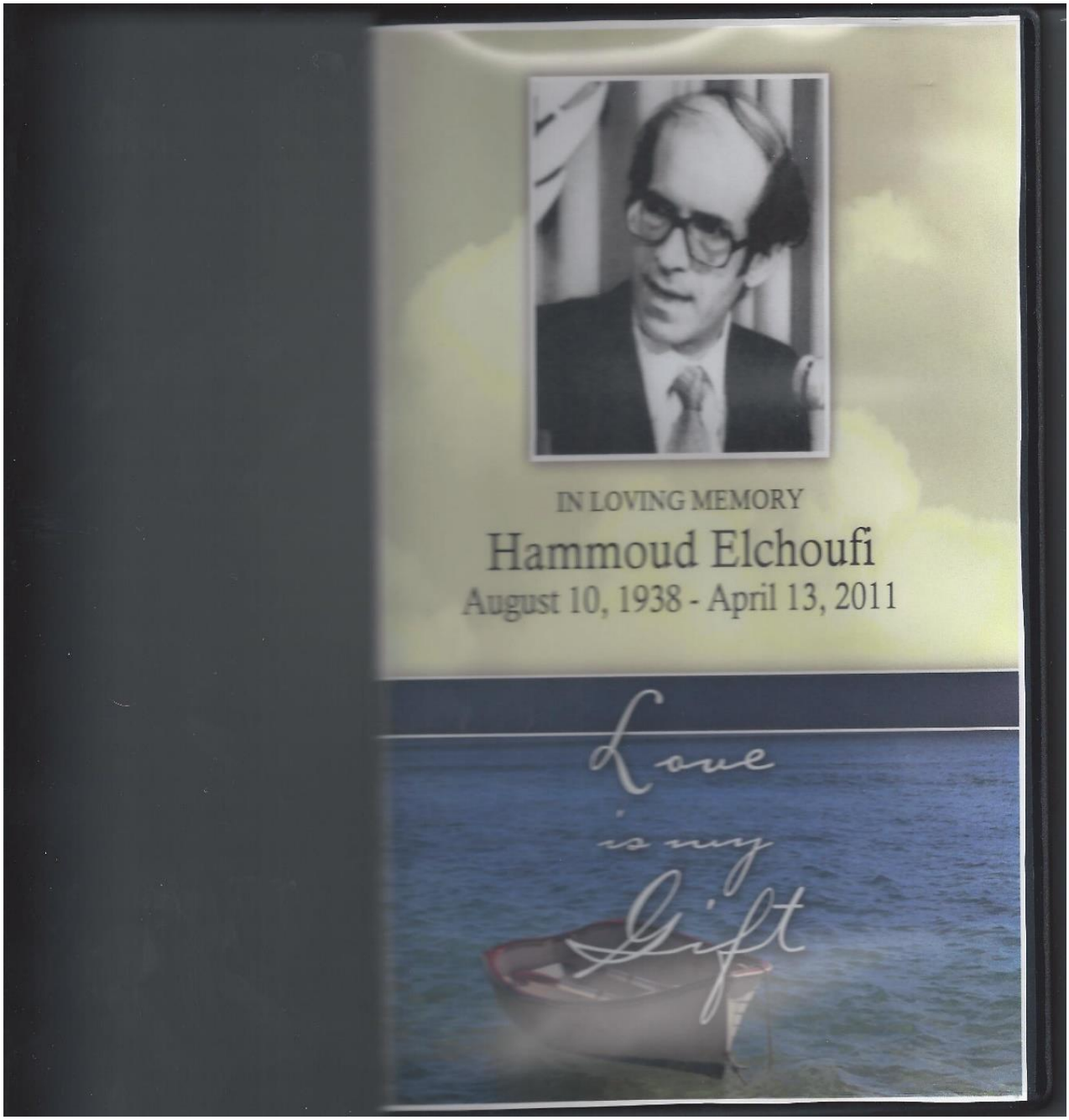

The Augusta Chronicle

Hammoud Elchoufi (AUGUSTA, Ga.)

AUGUSTA, Ga. - Hammoud Elchoufi, beloved husband and father, and a former leader of Syria's Baath Party and Syrian ambassador to the United Nations, died on Wednesday April 13, 2011, in Augusta, Georgia. Funeral services will be held on Saturday, April 16, 2011, at 10:00 AM at Platt's Funeral Home Belair Rd. Chapel. Burial will follow at Westover Memorial Park. Mr. Elchoufi was born in Salkhad, a small village in the mountains of southern Syria, on August 10, 1938. He studied literature and law at Damascus University, where he was President of the Student Union in the late 1950s. He was intimately involved in the emergence of the Syrian Baath Party and was imprisoned repeatedly for his political activity. In 1963 he served as the Party's head and in 1963-1964 as a member of the ruling National Revolutionary Council. He went on to hold several leading posts in the Syrian government. He was Syria's ambassador to Indonesia from 1965 to 1970, ambassador to India from 1970 to 1972, and the Syrian ambassador to the United Nations from 1977 to 1979. In 1979 he resigned from office to protest the Syrian government's increasingly repressive tactics and joined the Syrian Nationalist Opposition movement in Paris. The two great loves of Mr. Elchoufi's life were his nation and his family. His nation, as he was fond of saying, was not Syria but the Sha'ab al-Arabi or "Arab people." The political unification and economic and cultural renaissance of this nation was the guiding goal of his life in politics. When this goal proved elusive

and its pursuit threatened the safety of his family, however, he removed himself from the public eye, living first in northern Virginia and later making his home in Augusta, GA. He was well known to the librarians of the Columbia County public library, as some of his great passions were reading and intellectual pursuits. He also enjoyed spending time with his family and friends, who greatly appreciated both his wisdom and his wry humor. Mr. Elchoufi is survived by his wife, Widad; his son, Alarabi Elchoufi; his two daughters, Leyla Elchoufi, M.D. and Mayssoun Elchoufi, M.D.; two brothers, Hussein Elchoufi and Jadullah Elchoufi; daughter-in-law Ghada Elchoufi; son-in-law Riad Aisami; and four grandchildren, Deema, Lamees, Khaled, and Lena. The family will receive friends on Friday, April 15, 2011, from 6pm to 8pm at Platt's Funeral Home Belair Rd. Please sign the guestbook and send condolences at: www.plattsfuneralhome.com Platt's Funeral Home, 337 N. Belair Rd., Evans, GA 30809 Sign the guestbook at AugustaChronicle.com

From The Augusta Chronicle-April 14, 2011

حفلة صلخد

ضمت جمع غفير من أبناء مدينة صلخد والقرى المجاورة. وعدد كبير من المعارف والأصدقاء والمحبين من باقي مدن وقرى محافظة السويداء. وبحضور أخويه جادالله وحسين الشوفي. ألقى كلمة آل الفقيد شقيقه الأستاذ جادالله الشوفي. كما ألقى كلمة فيها رفيقه وصديق طفولته الأستاذ المحامي طارق أبو الحسن، وخطباء أخرين توالوا على رثائه مُبرزين صفاته ومناقبه الشخصية وتاريخه النضالي والوطني الحافل. وفيما يلي نص كلمة الأستاذ طارق أبو الحسن عضو قيادة قطرية سابق في حزب البعث العربي الاشتراكي وأمين عام حزب العمال الثوري في حفلة التأبين في صلخد.

حمود أيها الصديق العزيز، أيها المسافر المغامر، أيها المتمرد المشرد

أيها الحفل الكريم: نودع اليوم واحدا من أهم رجال هذا الجبل العربي الأشم. نودع حبيبا وفيا من جبل حبيب. كنا نتمناه بيننا يعيش معنا يحيى، ويحيى ويموت، ولكنه مات بعيدا، هناك في أمريكا، دفع ودفعنا معه ثمن خطأ الرؤية والتصرف نحن أبناء جبل مناضل، خضنا نضالا قويا من أجل عيش عزيز كريم لمجتمعنا وشعبنا. أصبنا في الخط العام وأخطأنا في الرؤى والمواقف.

أيها السادة: عرفت أبا العربي منذ الطفولة، عرفته مهذبا، لطيفا خجولا، وعرفته دارسا وطموحا معتدا بنفسه صابرا وجريئا، وكان من أذكى جيله وأنشطهم. في شبابه انتسب وانتسبنا في الخمسين لحزب البعث العربي، وأهدافه وحدة العرب وحريتهم واشتراكيتهم، ناضلنا ضد الأنظمة العسكرية الديكتاتورية وعرفنا السجون والمعتقلات والتعذيب، حلمنا صادقين ومؤمنين أن المستقبل آت. آت بعزيمة شعب عانى ويعاني من الفقر والذل والقهر، ما يساعد على التمرد أولا والثورة ثانيا لبناء وطن موحد عزيز كبير متحرر، لبناء شعب سعيد مجيد.

وصل الحزب إلى الحكم في العراق وسورية

وفي أول مؤتمر للحزب بعد ٨ آذار ١٩٦٣ انتخب أبو العربي أميناً قطرياً للحزب في القطر العربي السوري، وأذاع البيان الختامي للمؤتمر. قرر الحزب إقامة الوحدة الثلاثية بين مصر التي يحكمها عبد الناصر والعراق حيث يشارك في الحكم علي صالح السعدي وسورية التي فيها حمود

الشوفي. لكن هذه الوحدة فشلت، ثم قرر الحزب إقامة الوحدة بين سورية والعراق، لكن هذه الوحدة فشلت أيضاً... كان التآمر على أشده، سقط علي صالح السعدي ورفاقه المناضلين في العراق، وسقط حمود الشوفي ورفاقه المناضلين في سورية، واستولى العسكر على الحكم في البلدين.

حصل انشقاق في حزب البعث، وطلب إلى أبي العربي أن يخرج من البلد سفيراً في إندونيسيا مدة زادت عن الخمس سنوات، ثم نقل سفيراً لسورية في الهند لمدة سنتين، وعاد لوزارة الخارجية ليرأس دائرة الأمريكيتين فيها. ثم كلف بأن يكون الممثل الدائم لسورية في الأمم المتحدة، وبعد مدة قصيرة استقال من هذه الوظيفة، وأصدر بياناً "نقدياً" شديداً لنظام الحكم في سورية، حوكم على أثره غيابياً وصدر بحقه حكم بالإعدام. وبعد فترة قصيرة حاول العودة إلى سورية، ولكن محاولته باءت بالفشل. أصيب بمرض عضال ومات منذ أيام في الولايات المتحدة الأمريكية.

حمود أيها الصديق العزيز، أيها المسافر المغامر، أيها المتمرد المشرد

أحيي فيك الوعي والشجاعة والإقدام. أحببناك كما أنت، الإنسان الذي يصيب" كثيراً" ويخطئ" قليلاً" الإنسان الذي يحب الإنسان، حرية الإنسان، كرامة الإنسان. حمود أتمنى لأسرتك الصغيرة، أم العربي، الإنسانة المكافحة الصبورة، والعربي، المهندس النشط الكريم وليلى وميسون الدكتورتين المتفوقتين الواعدتين. كما أتمنى لأخويك وأسرتك" آل الشوفي" الوطنيين الأبرار ولأهل قريتك الأعزاء الأحرار. ولسورية الحبيبة وكل الوطنيين العرب الأخيار، أتمنى لهؤلاء جميعاً العزاء بك، والدعاء بالصبر والسلوان.

أيها السادة: شباب هذه الأمة تنتفض وتثور، تنتصر في تونس القدوة، وفي مصر العظيمة العائدة لدورها العربي القائد المميز. لقد هبت رياح التغيير، شديدة عاتية رغم سلميتها، قوية كالقدر رغم وعيها وهدوئها. رياح التغيير تعم الوطن العربي وستقذف إلى الفضاء كل من يقف في طريقها.

الرحمة للشهداء الأبرار الذين سقطوا ويسقطون على درب الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية درب النهوض والتقدم. سينتصر التغيير، سينتصر التغيير. ثورة الشباب عزاؤنا وعزاؤك يا أبا العربي، أيها الشهم الأبي. وداعاً والسلام عليكم وبكم.

صلخد – السويداء- طارق أبو الحسن

حمود الشوفي بالصور

صور منتقاة من محطات عمله في السلك الدبلوماسي كسفير للجمهورية العربية السورية في إندونيسيا والهند

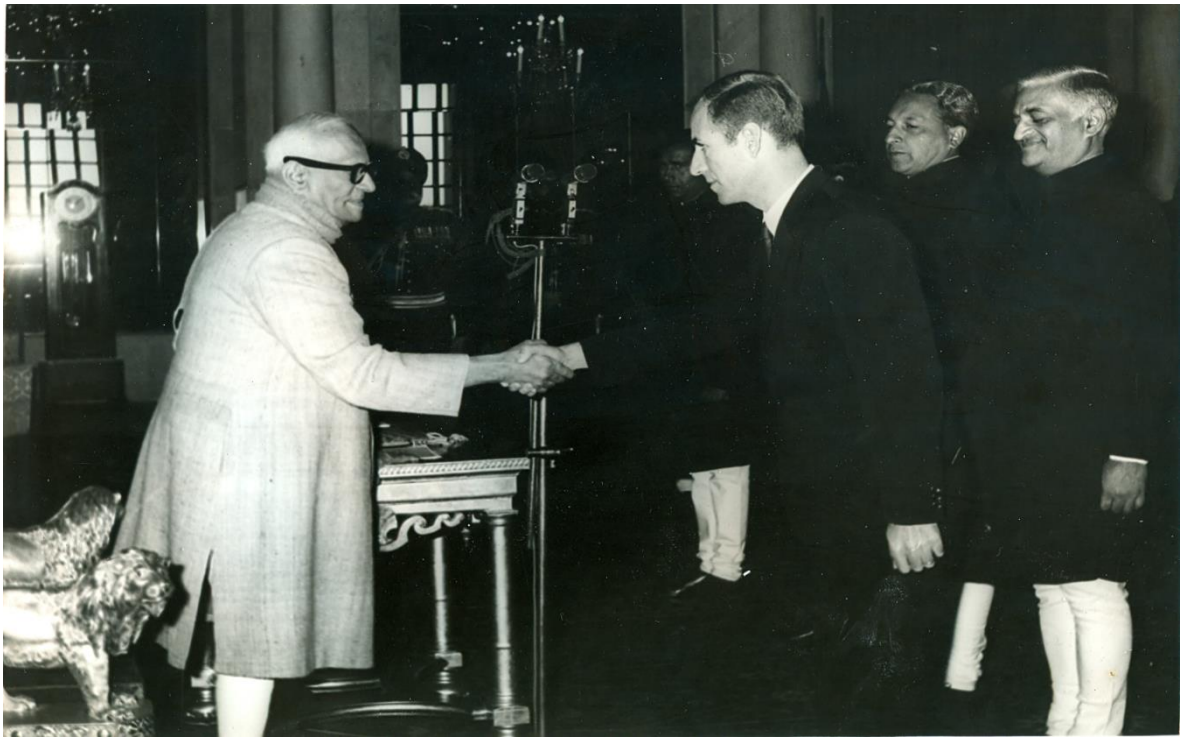

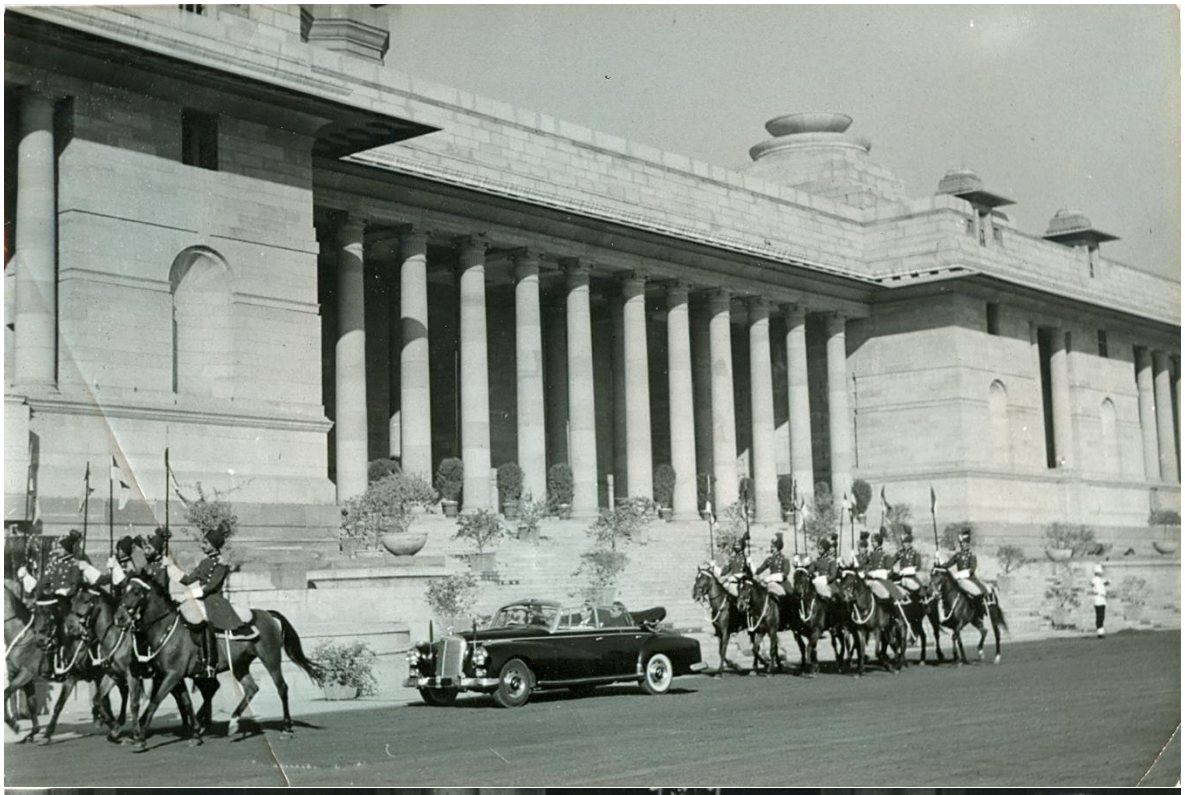

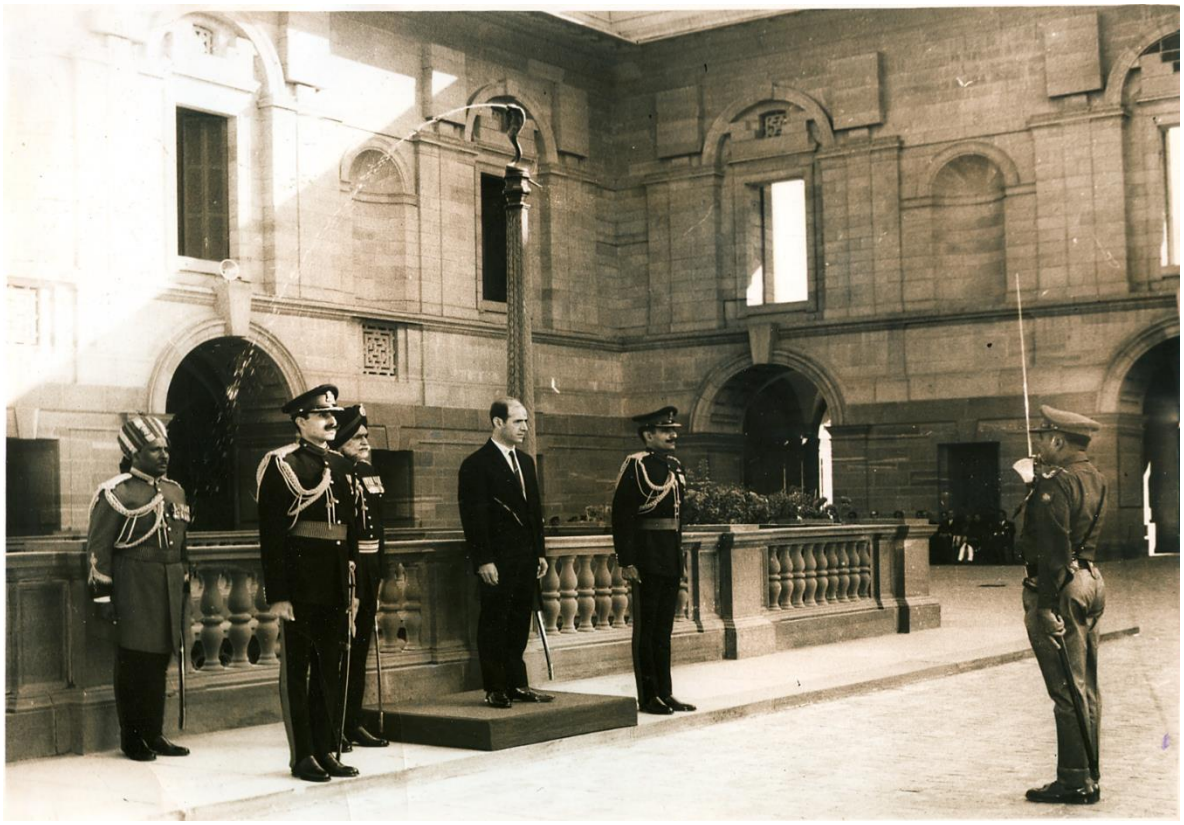

بالصوت والصورة نص الاستقالة التي قدمها سعادة السفير حمود الشوفي من منصبه كممثل دائم للجمهورية العربية السورية للأمم المتحدة في مؤتمر صحفي عقد بتاريخ 1979/12/27

UNITED NATIONS: THE SYRIAN AMBASSADOR TO THE UNITED NATIONS RESIGNS FROM POST IN PROTEST AT SYRIAN GOVERNMENT POLICY. (1979)

https://www.britishpathe.com/asset/240819/#

The Syrian ambassador to the United Nations, Hammoud El-Choufi has resigned from his post because he says he wants to work to defend the democratic aspirations of the Syrian people.

EL-CHOUFI: "In the absence of genuine democratic processes rampant practices of corruption, extortion and bribery have remained unchecked. Assad's recently announced and much publicized campaign to wipe out corruption from his government had to be halted after it became clear that it would implicate personal friends and relatives for whom he had secured choice governmental and military positions. Many patriotic Syrians, civilians, and military alike, who have criticized these policies or oppose the practices of the Assad regime have been silenced by arrest and incarceration. Amnesty International has documented the many violations of human rights of political detainees in Syria including the use of torture and the denial of the criminals' rights to a fair trial and open hearing. Despite (indistinct) the Assad regime has done nothing but pay lip service to the cause of Arab unity against Zionist

Israel. On two previous occasions when Arab unity was essential and could possibly have been forged, first with Egyptian, Libyan Syrian unification affair and second with the Syrian, Jordan unification affair the Assad regime merely exploited its popular esteem and later didn't hesitate to abort the unification affair. I believe that the only solution to the problem faced by my country today lies in the formation of a viable and formidable front built upon active participation and full involvement of all political forces of the Syrian peoples who uphold the ideas of national unity, Arab nationalism and above all re ready to defend their democratic aspirations and demands of the Syrian people. I have asked you to come today in order that I may formally announce my resignation from the post of ambassador and permanent representative of the Syrian Republic to the United Nations and to let you know of my intention to devote my affairs together with other patriotic forces to this task which lies before us. I intend to take up this responsibility with the zeal and fervor that is required in order that the long-awaited national front for a truly democratic and freedom loving Syria will be established and so that the country can once again take its place in the forefront of the cause for Arab unity, solidarity, genuine democracy and (indistinct). I thank you."

**Retrieved on October 25, 2023, from:*

https://www.britishpathe.com/asset/240819/#

حمود الشوفي يعود إلى ساحة الكرامة في السويداء بعد 70 عاماً حيث بدأ الطريق إلى الحرية

صورة ل حمود الشوفي ترفع في مظاهرة في ساحة الكرامة في السويداء مطالبةً بإسقاط النظام الديكتاتوري في سورية، والذي هو امتداد لنفس النظام الذي كان قد طالب حمود الشوفي بإسقاطه قبل ستين عاماً ولنفس الأسباب، الحرية.

حمود الشوفي في سطور

ولد في عام ١٩٣٥في مدينة صلخد من محافظة السويداء السورية
(مسجل رسميا في عام 1938)
أكمل دراسته الابتدائية في مدينة صلخد والإعدادية والثانوية في مدينة السويداء
انتسب إلى حزب البعث في أذار 1951
التحق بجامعة دمشق لدراسة الأدب العربي، وتخرج منها بعد حصوله على دبلوم التربية عام 1962
عمل مدرسا للغة العربية في السويداء لفترة ثلاثة أشهر قبل أن يطرد منها بسبب نشاطه السياسي
دخل السجن في عام 1954 لمعارضته حكم الرئيس أديب الشيشكلي وفي عام 1961 لمعارضته حكم الانفصال
أنتخب أمينا لسر القيادة القطرية لحزب البعث بعد استلام الحزب للسلطة في 8 أذار عام 1963
استقال من أمانة سر القيادة القطرية وعضوية المجلس الوطني لقيادة الثورة في شباط 1964 احتجاجا على تصرفات اللجنة العسكرية
عمل سفيرا لسورية في إندونيسيا بين عامي 1965 – 1970
عمل سفيرا لسورية في الهند بين عامي 1970 - 1972
عمل مديرا لإدارة الأمريكيتين في وزارة الخارجية بين عامي 1972 - 1978
عُين مندوبا دائما لسورية في الأمم المتحدة في عام 1978
استقال من منصبه في ٢٧ كانون الأول من عام 1979 لينظم للتحالف الوطني لتحرير سورية.
حُكم عليه بالإعدام غيابيا من قبل حافظ الأسد في عام1979 وتعرض بعدها لمحاولتي اغتيال
متزوج من المربية والمعلمة وداد عزام. له ثلاثة أولاد المهندس العربي، والدكتورتين ليلى وميسون. وأربعة أحفاد ديمة وخالد الشوفي، ولميس ولينا العيسمي
عاش مع عائلته في مدينة أوغستا من ولاية جورجيا في الولايات المتحدة إلى أن وافته المنية في 13 نيسان 2011 ودفن في 17 نيسان، الذكرى الرابعة والستون لاستقلال سورية

فهرس الأعلام

أ

الأتاسي، جمال

الأتاسي، هاشم

الأتاسي، نور الدين

الأسد، حافظ

الأطرش، حسن

الأطرش، زيد

الأطرش، سلطان

الأطرش، منصور

الأفغاني، محمد سعيد

أبو الحسن، طارق

ب

البيطار، صلاح

ح

الحريري، زياد

الحكيم، خالد

الحوراني، أكرم

حاطوم، سليم

حمد عزام، شبلي

حمدون، مصطفى

ج

الجندي، سامي

جواد، حازم

خ

الخطيب، عبد الوهاب

ز

الزعبي، موسى

الزعيم، حسني

الزلط، عبد الفتاح

زهر الدين، عبد الكريم

زهور، عبد الكريم

س

السراج، عبد الحكيم

السعدي، علي صالح

السغبيني، صالح

السفرجلاني، نسيم

السيد، جلال

ش

الشريطي، نايف

الشيخ راضي، محسن

الشيشكلي، أديب
شيا، جميل

ط

الطويل، محمد رباح

ع

العبد الله، منير
العظم، خالد
العقاد زهير
العيسمي، شبلي
عامر، عبد الحكيم
عامر، غالب
عبد الدايم، عبد الله
عبد الناصر، جمال
عمران، محمد
عبيد، توفيق
عفلق، ميشيل
علم الدين، حسين
عزي، فواز
عزي، عبد الكريم

ف

الفكيكي، هاني
فروخ، عمر

ق

القوتلي، شكري

ن

النابلسي، محمد راتب
نعيسة، عادل

م

المالكي، رياض
مصطف، علي

ك

كيخيا، رشدي

المصادر والمراجع

- مجلة الوطن العربي- مقابلة مع الصحفي تمام البرازي- 13-5، 18-5- 1988
- صحيفة القدس العربي- مقالة حمود الشوفي. "سورية واحتمالات التغيير" 25-2-2006
- في رثاء الحبيب نسيم السفرجلاني- كلمة حمود الشوفي في رثاء نسيم السفرجلاني 1995
- كلنا شركاء- كلمة طارق أبو الحسن في تأبين حمود الشوفي- 21-6-2011

المراجع الإنكليزية

The Augusta Chronical
Brishpathe Website